حين أبكاني الذي لم ينطق

رواية

قاسم محمد كوفحي

حين أبكاني الذي لم ينطق

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - 1447 هـ - 2026 م

جمهورية مصر العربية

اسم المطبوع: حين أبكاني الذي لم ينطق

اسم المؤلف: قاسم محمد كوفحي

اللغة: العربية

رقم الإيداع: 19640 – 2025

الترقيم الدولي: 978-633-99693-2-4 : ISBN

الناشر: محتوى للنشر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله لأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

All Right Reserved, No Part Of This Book May Be Reproduced, Stored In a Retrieval System Or Transmitted In Any Form Or By Any Means Without Prior Permission Writing Of The Author

المكتب الرئيسي

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة

+971525551980 — +971509207910

Email: info@dahfzc.com — Email: daralhkmahfzc@gmail.com

إدارة المبيعات وخدمات النشر والطباعة

UAE +971525551980 — EGYPT +201157800089

Email: info@muhtaw.com

إدارة النشر

UAE +971507217526 — EGYPT +201118482644

Email: muhtaw07@gmail.com

amazon — GET IT ON Google Play — Download on the App Store

الحكمة للنشر والتوزيع
Al Hekmah
Publications & Distrbution
+971 52 555 1980 / +971 50 920 7910
Sharjah Publishing City, Free Zone, UAE
daralhkmahfzc@gmail.com
info@dahfzc.com

محتوى للنشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - 1447 هـ - 2026 م

جمهورية مصر العربية

اسم المطبوع: حين أبكاني الذي لم ينطق

اسم المؤلف: قاسم محمد كوفحي

اللغة: العربية

رقم الإيداع: 19640 – 2025

الترقيم الدولي: 978-633-99693-2-4 : ISBN

الناشر: قاسم محمد كوفحي

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعارة المعلومات أو نقله لأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All Right Reserved, No Part Of This Book May Be Reproduced, Stored In a Retrieval System Or Transmitted In Any Form Or By Any Means Without Prior Permission Writing Of The Publisher

المكتب الرئيسي

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة

+971525551980 — +971509207910

Email: info@dahfzc.com — Email: daralhkmahfzc@gmail.com

إدارة المبيعات وخدمات النشر والطباعة

UAE +971525551980 — EGYPT +201157800089

Email: info@muhtaw.com

إدارة النشر

UAE +971507217526 — EGYPT +201118482644

Email: muhtaw07@gmail.com

amazon — GET IT ON Google Play — Download on the App Store

الحكمة للنشر والتوزيع
Al Hekmah
Publications & Distrbution
+971 52 555 1980 / +971 50 920 7910
Sharjah Publishing City, Free Zone, UAE
daralhkmahfzc@gmail.com
info@dahfzc.com

محتوى للنشر

حين أبكاني الذي لم ينطق

رواية

تأليـــف

قاسم محمد كوفحي

1447 هـ - 2026 م

الحكمة للنشر والتوزيع
Al Hekmah
Publications & Distrbution
+971 52 555 1980 / +971 50 920 7910
Sharjah Publishing City, Free Zone, UAE
daralhkmahfzc@gmail.com
info@dahfzc.com

محتوى للنشر
Egypt - Al Mansura
info@muhtaw.com
+201157800089
+971525551980

المحتويات

القسم الأول 5

القسم الثاني... 35

القسم الثالث 101

القسم الـرابع 155

القسم الـخامس 187

القسـم السادس.. 207

القسم الأول

فيصل لم يعرف الفقر يوماً، أو على الأقل لم يسمح لذاكرته أن تحفظ له صورة غير تلك الصورة التي عرفت الترف والرفاهية من بداية الحياة. وُلد على سرير من حرير، ناعمٍ كأحلام الطفولة التي لم تكف عن التقلب بين أيدٍ دافئة وعناق أمه الحنون، تلك الأم التي فتحت له أبواب الحياة كأنها تملك المفتاح الوحيد لعالمٍ كاملٍ مليء بالفرص والمكانة، أمٌّ تحنو على ولدها الوحيد بحنان يذيب كل عثرات الطريق.

كبر فيصل في قصرٍ عالٍ، تكسوه جدرانٌ شديدة الارتفاع، تعلو السماء دون أن تسمح لأي نسمة هواء أو صوتٍ خفيفٍ أن يدخلا إلى داخله، حارساً على عالمه الصغير المغلق الذي لم يعرف فيه غير الصمت المطبق والرفاهية التي كانت تمنحه مظهراً عتيقاً من القوة. في ذلك القصر، حيث صدى خطواته وحده يعلو، كان فيصل يمشي بين الممرات كطيف يبحث عن ذاته المفقودة، كان صوته يرنّ في الغرف الباردة، لكن الصوت الذي يعود إليه لم يكن سوى صدى المال الذي يتردد، يزداد ويتصاعد كأنه يردد تأكيداً على أنه وحده القادر على ملء الفراغ.

المال الذي كان يملكه كان أشبه بالهواء الذي يتنفسه، لا يراه ولا يشمه، لكنه ضروريٌ لحياته. لكن تحت كل تلك الثروات، كانت هناك حالة من الاغتراب الغامض. لم يكن فيصل يعيش حياته بل كان يُعادُ إنتاجه في قالبٍ قاسٍ لا يرحم، قالب يصنعه الآخرون من حوله: شركاؤه، ,موظفوه، وحتى عائلته التي أفرطت في تدليله إلى حدٍّ جعل روحه تخشى النزول إلى عمق الحياة الحقيقية.

كل يوم كان يبدأ كما انتهى الذي قبله، يبدأ بنغمة الهاتف الحادة التي تخترق صمت الفجر، ويستمر بتوقيع عقودٍ ضخمة وصفقاتٍ تتراقص على أطراف الأوراق البيضاء كنجومٍ بلا سماء. في عيني فيصل، كل هذه الأرقام لم تكن إلا سراباً جميلاً، براقاً لكنه غير حقيقي. كان يبحث، من وراء كل عقد، عن بصيص نورٍ صغير يشير إلى وجوده الحقيقي، إلى كينونته التي لا تعرفها تلك العقود ولا تلك الأرباح. ولكنه كان يعود خائباً، كأن كل نجاحٍ يحرزه يبعده أكثر عن ذاته، ويغوص به في عمق لا قاع له.

كانت رحلاته إلى عواصم العالم الكبرى بمثابة هروبٍ من واقع صار يخنقه، من قصره الكبير إلى غرف الفنادق الفاخرة، حيث الضوء يُلقي ظلالاً طويلة على حيطانٍ زجاجية، ينظر من خلالها إلى أضواء لا تنام، لكنه لا يرى فيها سوى انعكاس خافت لوجهه الذي بدأ يتلاشى، يتشقق كما تتصدع نوافذ الطابق الأعلى حين تعصف بها العواصف. في هذه الغرف، كان يشعر بوحدة لا تسمح لها الفخامة أن تُخفى، ولا الأموال أن تُزيلها.

في المساء، حين ينكسر النهار ويُفترض أن يحل السكون، كان فيصل يجلس وحيداً في غرفة المعيشة التي تحولت إلى مزار للصمت، لا صوت يعلو سوى

تنفسه الهادئ ونبض قلب كلبه الوحيد. ذلك الكلب الذي لم يكن مجرد حيوان أليف، بل ظلٌّ صامت، ناظرٌ لا ينطق، رفيقٌ يشارك الحزن بلا كلمات، يستمع دون أن يحكم، يشعر بلا أن يبوح.

كان الكلب يمثّل وحده حقيقةً لم يستطع فيصل التعبير عنها. كان رفيقاً يشبه ما كان يفتقده، وكان وجوده الصامت يذكره بإنسانية كانت قد تلاشت من بين أوراق التقارير والأرقام التي تكدست حوله. ذلك الحيوان الصغير، بعينيه الصادقتين، كان يحيي شيئاً ميتاً بداخله، شيئاً كان يُظن أنه فقده إلى الأبد.

وهكذا، في ذلك القصر الكبير، المكلّل بزجاج فخم، تُركت روح فيصل تائهة بين جدرانٍ صمّاء لا تسمح إلا لصدى المال أن يتردد فيها. كان يبحث عن معنى يتجاوز الثراء، عن صوتٍ يسمعه هو فقط، عن حياةٍ لا تحكمها العقود ولا تملأها الأوراق.

ورغم كل ما يملكه من ثروةٍ تفيض بها خزائنه، كانت أغلى ممتلكاته ذلك الصمت المشترك مع كلبه، ذلك الحضور الذي لا يخون، الذي يُخفف عن وحدته ويرتبط به برابطة لا تحتاج إلى كلمات.

لكن فيصل، في أعماقه، كان يعلم أن هذا ليس كافياً، أن هناك شيئاً ما في داخله يصرخ كي يتحرر، كي يرى النور الحقيقي، لا الأضواء المزيفة التي يبيعها العالم خارج نوافذ قصره العالي.

كان فيصل ينهض باكراً، لا عشقاً للشمس ولا عشقاً لصباح يخبئ وعوداً، بل لأن عالم الصفقات لا يرحم النائمين، لا ينتظر تردد القلب أو تلعثم الأنفاس.

في ساعة لا تزال تلامس برودة الليل، كان يفتح عينيه على أصوات الهاتف المتتابعة، نغمات لا تنقطع، توقيعات تتراكم كأغصان شجرة لا تثمر إلا أوراقاً، أختامٌ تختم عقوداً ووعوداً تندثر سريعاً في غبار الأسواق، وطحن الأسهم في بورصة تسرد حكاية سقوط لا مفر منه.

وسط هذا البحر من الأوراق المبعثرة، كانت هناك قصة أخرى لا تُروى، قصة رجل يبحر بلا مجداف، يبحث في أعماق الأرقام عن معنى ينسجم مع ذاته، عن وجهٍ يعكس وجوده وسط آلاف الأسماء والرموز. كان يحفر في صفحات العقد كما يحفر في ذاكرته، ينتظر ظهور بصيص، يرتقب تلاشي الظلال ليشرق نور لا يشبه أضواء المدينة التي لا تنام.

كانت الأرقام تتكاثر كخلايا صغيرة لا تتوقف عن الانقسام، كل رقم يولد خلفه رقماً جديداً، عالمٌ مغلقٌ يدور في حلقة مفرغة من الرابح والخاسر، من الربح المادي والخسارة الروحية. كان فيصل يشعر بثقل هذا العالم يكبل روحه، كأنه يعيش في داخل آلة ضخمة، لا تملك إلا أن تدير نفسها دون أن تتوقف، دون أن تترك له فسحة للحياة.

في تلك اللحظات، كان يسأل نفسه: هل هذه الحياة التي رسمها بحسابات دقيقة، هي ما تريده حقاً؟ أم أن بين طيات الأوراق المخفية، هناك غيابٌ أعمق، فراغٌ لا تسدّه أرقامه ولا حساباته؟

ومع كل صباحٍ جديد، كان يغادر سريره المغلف بالحرير، ليس ليحتفل بالحياة، بل ليقف في مواجهة يوم جديد من الصمت المزعج الذي يصاحبه بين

أروقة المال. كانت خطواته في ممرات القصر تردد أنيناً خفياً، أنين رجلٍ لا يريد أن يفقد نفسه رغم كل ما يمتلك.

لم يكن المال وحده قيداً، بل الثقافة التي ربطته بهذا العالم المادي، النمط الذي حُكم عليه بأن يعيش فيه، كأنيابٍ لا ترحم تقضم أعمق ما في الإنسان من حيوية وروح. كان يجد نفسه محاصراً بين جدران مادية تغلق كل منافذ الحرية، بينما يبحث عن نفسٍ تتنفس، عن حياةٍ تستحق أن تُعاش، لا أن تُباع وتُشترى في سوق بلا رحمة.

أحيانا، حين يغلق الهاتف، ويخفت صخب الأسواق، كان يلتقي عيني كلبه الصامت، ويجد فيه عالماً آخر، عالماً لم يتلوث بعد بأرقام البورصة وبرسائل الصفقات، عالماً تملؤه الوفاء والبساطة والصدق. كانت عيني الكلب نافذة تطل على الحقيقة التي يتجاهلها فيصل، حقيقة لا تحتاج إلى أرقام أو عقود لتثبت وجودها.

في تلك اللحظات الهادئة، كان يشعر كأنه يلمس جزءاً من نفسه المنسي، كأنه يستمع إلى نغمة قديمة كانت دفينة في قلبه قبل أن تتلوث بأصوات الصفقات والمال. هناك، في عيني الكلب، كان يرى ضوءاً مختلفاً، ضوءاً ينتمي إلى عالم الحياة، عالم الحب، عالم الوجود الخالص.

كانت تلك اللقاءات الصغيرة، بين الرجل وثانيه الوفي، هي التي تمنحه قوة للاستمرار، رغم كل شيء. كانت بمثابة تذكير بأن هناك ما هو أكبر من المال، وأعمق من النجاح، وأصدق من كل الأوراق التي يوقع عليها.

ورغم ذلك، كان فيصل يغادر تلك اللحظات بسرعة، يعود إلى دوامة الأرقام والصراعات، يدفن ذلك الجزء من روحه تحت طبقات من الحسابات التي لا تنتهي. كانت الحياة التي يعيشها تسير بوتيرة متسارعة، تجبره على النسيان، وعلى إغلاق باب القلب أمام كل ما لا يحقق الربح، أمام كل ما لا ينضوي تحت عناوين البورصة.

لكن، مهما حاول أن ينكر ذلك الصوت الداخلي، كان هناك شيء في أعماقه لا يزال يقاوم، شيء لا يرضى أن يموت في صمت. كان يبحث، حتى وإن لم يدرك ذلك، عن طريق للخروج من دائرة الأرقام، عن حياة تستطيع أن تلمس قلبه بدلاً من حساباته، عن معنى يستحق أن يحيا لأجله.

وهكذا، كان يعيش بين عالمين، عالم الأرقام القاسي، وعالم الوفاء الصامت مع كلبه، بين ضجيج الصفقات وسكون النظر الحنون، وبين فوضى الأسواق ونقاء البراءة.

كان فيصل يدرك أن حياته ليست مجرد أرقام متداخلة، بل هي قصة معقدة من البحث، الفقد، والأمل. قصة رجل يحاول أن يجد ذاته وسط الضباب، يبحث عن الضوء في عيني كلبه، عن حياة تستحق أن تُعاش خارج تلك الحسابات التي لا تنتهي.

حين يسافر فيصل إلى أوروبا أو شرق آسيا، لا يحمل معه سوى حقيبة صغيرة.

في تلك الحقيبة التي توحي بالبسطاء، يضع قميصاً أبيض وربطة عنق

داكنة، كما لو أن كل ما يحتاجه هو لبنة أساسية بسيطة تتيح له المرور عبر العوالم المختلفة التي يجوبها، عوالم لا يعرفها إلا السريعون الذين لا ينشغلون بالتفاصيل. كانت المدن، من باريس إلى طوكيو، تبدو متشابهة أمام عينيه، لا فرق بينها إلا في ألوان الأضواء التي ترصع الشوارع، أو في رائحة القهوة التي تنبعث من مقاهي الزوايا. المدن كلها – وفقاً له – كانت نسخة متكررة، تصميماً معمارياً لأحلام غير مكتملة، قاعات انتظار لوجوهٍ عابرة تتشابه في تقاطيعها.

كانت جيوبه ممتلئة، وبهذا الامتلاء لا يرى ما وراء الترف المادي، ذلك الامتلاء الذي يشبه قفصاً ذهبياً، يمنع روحه من أن تطير.

دخل الفنادق الكبرى في كل مرة وكأنه ملكٌ لا يحتاج إلى أن يعرّف عن نفسه، فحضرته تحيط به، لا رهاب لديه، لا خوف من المجهول، فقط ثقة مهندسة ومبنية على ركام من النجاحات والمكاسب التي لم تترك له مجالاً للشك. كان يترك حقيبته الصغيرة في جناح ملوكي مخصص له، جناح لا يستخدمه إلا للنوم السريع الذي لا يرحم ضياع الوقت، ضياع فرصة جديدة لبيع، شراء، توقيع، أو استثمار.

تلك الغرف، رغم فخامتها، كانت تبدو له الزنازين، تماثل زنزانة قصره في الوطن، فارغة إلا من فراغه الداخلي المتراكم، كأنما كل غرفة تفتقر إلى ما يستحق أن تُدعى منزلاً. كان يقف في الشرفات الزجاجية ذات الإطلالات الواسعة، ينظر إلى مدن تنبض حياة لكنها في عينيه مجرد نوافذ شبيهة، صور متكررة معلقة على جدران الواقع الذي لا يرحم.

في فترات استراحته النادرة، كان يجلس على الأريكة الجلدية في غرفة الاستقبال الخاصة، يراقب وجوه الغرباء الذين يمرون، يلاحظ ضحكاتهم، ونظراتهم، وحركات أيديهم، لكنه لم يشعر في أي لحظة بأنه واحد منهم، أو حتى قريب منهم. كان دائماً الغريب، المتفرج على المسرح الكبير للحياة، لا المشارك فيه.

كان هذا الشعور بالاغتراب مزمناً، ليس فقط داخل المدن التي زارها، بل في داخله ذاته. كان يشعر كأنه يعيش داخل صُدفة لا يعرف كيف يفتحها، كأنه سجين في داخله. لم تكن الأموال التي يمتلكها كافية لتعبيد الطريق إلى سعادته، بل كانت جزءاً من قضبان غير مرئية تقيده وتمنعه من أن يتحرر.

رحلاته إلى الخارج لم تكن رحلات اكتشاف ولا رحلة بحث عن معنى، بل كانت روتيناً آلياً، أداءً للواجب. عبور مطارات، وجلسات طويلة في قاعات انتظار، وتناول وجبات سريعة على عجل، وأحياناً اتصال هاتفي هنا، وتوقيع عقد هناك. كان يتحرك بين هذه الأدوار كما لو كان جسداً بلا روح، جسد يتحرك وفق سيناريو مرسوم له بعناية.

في إحدى رحلاته إلى مدينة أوروبية قديمة، تذكّر فجأة قصة رجل صغير قرأها في إحدى الكتب ذات الغلاف الباهت. ذلك الرجل فقد كل شيء، ووجد ملاذه في الاعتناء بالكلاب الضالة التي لم يكن أحد يرعاها. في تلك اللحظة، ارتفعت في ذهنه صورة كلبه القديم، رفيقه الصامت في غرف القصر الفارغ. تذكّر كيف وقف ذلك الكلب أمام باب البيت يوماً، وأوقفه عن فعل لم يكن يريد هو أن يفعله، وقف بقوةٍ صامتةٍ تمنع الانهيار.

بدأ يفكر، هل هو ذلك الرجل الصغير الذي فقد كل شيء، أم أنه لا يزال ذلك الرفيع، المرتدي بدلات المصممين، المتحدث ببراعة في اجتماعات كبار المستثمرين؟ هل ثمة مجال للتغيير؟ هل ثمة مخرج من هذا العالم الذي صنعه بنفسه؟

في المساء، وهو يجلس في غرفة فندقية على ارتفاع شاهق، تطل على أضواء المدينة التي لا تنام، استسلم لفكرة أن يتحرر. لم يكن يبحث عن مغامرة، ولا اكتشاف جديد، بل عن مكان في قلبه، مكان يستطيع فيه أن يكون فقط هو، بعيداً عن كل القوالب التي وضعت له.

رحلاته إلى الشرق كانت أكثر هدوءاً. هناك، بين الأسواق القديمة والحكايات المعلّقة في الزقاق، كان يلمح أناساً يعيشون ببطء، وأحياناً بعمق. كانوا يضحكون بقلوبهم، يبكون بأعينهم، وكان يبدو له أن الحياة لديهم أبسط، وأكثر صدقاً، رغم كل ما يعانونه.

كان يتأمل ذلك كله، وداخل قلبه صوت خافت يدعوه للتوقف، للتساؤل، لإعادة النظر في مساره. لكن هذا الصوت كان خافتاً للغاية، يغطيه صخب الصفقات والمكاسب. كانت كل رحلة تبدأ كما لو أنها نهاية جديدة، وكل عودة تزداد ثقلاً، أكثر قسوة.

ومع ذلك، كان هناك ذاك الكلب الذي ينتظره، الذي يذكره بأن هناك حياة حقيقية غير تلك التي يصنعها في رحلاته وكتبه وتقاريره. كلب لم يكن يهمه سوى وجوده، لم يكن يسأل عن ماله ولا عن ماضيه.

في هذا الصمت، شعر بشيء لم يعرفه من قبل: هوّة عميقة بينه وبين ذاته، فجوة كانت تنتظره كي يسقط فيها، لكنه لم يرد السقوط، بل قرر أن يغوص في أعماقها ليعرف ما تخفيه. كان يسمع نبض قلبه، ذلك الصوت الذي حاول طويلاً تجاهله، ولكن الآن كان واضحاً كصدى في وادٍ واسع.

في الليل، بعد يوم طويل، حلم فيصل بحلمه القديم ذاته. كان يقف على حافة منحدرٍ عالٍ، يشعر بأن كل شيء حوله ينهار، وأنه على وشك السقوط. لكن فجأة، ظهر ذلك الكلب، وقف عند الباب، منع سقوطه. رفع رأسه نحو السماء المظلمة، ونبح نباحاً هادئاً لكنه قوي، كأنه يقول له " ابقَ، هناك شيء يستحق الحياة."

استيقظ فيصل من الحلم بقلب يخفق بقوة، شعر بصدق ذلك النباح داخل نفسه، كأنه صدى صوت الروح التي لم تموت، التي ما زالت تبحث عن سبب للثبات.

رغم كل هذه اللحظات، لم تكن رحلة فيصل سهلة. كان يتصارع مع نفسه، مع الذكريات التي كانت تثقل كاهله، مع الخوف من الفشل والعودة إلى دوامة العدم.

في إحدى الأمسيات، جلس أمام المرآة، نظر إلى وجهه المتعب، وراوده سؤالٌ مرير: هل يمكن لرجل أن يتغير حقاً، وأن يتحرر من سجنه الداخلي؟ كانت المرآة تعكس صورة رجل يحمل عبء سنوات من الخوف والغربة، لكنه كان يرى أيضاً بريقاً خافتاً يلمع في عينيه، بريق أمل.

بدأ يكتب في دفتر صغير، كلمات تعبر عن مخاوفه وأحلامه، أحاسيسه التي لم يجرؤ على نطقها. كان يكتب ليهذب روحه، ليخفف ثقل الماضي، وليحلم بغدٍ مختلف.

هناك، خلف ستائر الغرف الباذخة،

في تلك اللحظة التي ينكشف فيها الليل عن أضوائه المتلونة، يقف فيصل في صمتٍ مهيب أمام نوافذ زجاجية شاهقة. تشبه تلك النوافذ الحدود التي تفصل بين عالمين، بين الداخل واللا متناهي من الخارج، بين الذات والآخر. أضواء المدينة تحتفي بليلتها، لا تكلّ، لا تعرف السكون، ولا تستكين لنعاس كما يفعل الإنسان.

كان فيصل وحده، غريباً بين هذا الضجيج، بين هذا البحر من الوميض والومضات المتلاحقة. يسترسل في النظر بعيداً، إلى حيث لا يراها أحد، إلى ما وراء الضوضاء، إلى صمتٍ أكثر عمقاً من كل الكلمات التي حاول أن يلفظها في حياته.

يتساءل بصمت، لكن السؤال لا يخرج من شفتيه، بل يستقر في صدره كجرحٍ قديم لا يندمل:

- "أي حياةٍ هذه؟"

كأنها حياة تدور حول نفسها، تلتقط تفاصيلها بين صفحاتٍ مطوية، بين أوراق لا تحمل سوى ضجيجاً متكرراً. كأنها حياة في زجاج، محصورة داخل

إطارٍ صارم، لا يعرف التمدد ولا الانفلات. حياة مثل ذلك الضوء الاصطناعي، الذي يحاكي النهار لكن ليس له دفء الشمس، بل برودة تحبس النفس.

يرجع فيصل إلى طاولته، حيث الأوراق الكثيرة التي تمثل عوالمه الصغيرة، تلك الصفقات التي لا تنتهي، وأكواب القهوة التي تعبث بوعيه كأنها محاولة للهروب من تيه الأيام. كوب بعد كوب، يحاول أن يعيد ترتيب فوضى ما بداخله، أن يجد في رشفة القهوة شيئاً من ذاك الشعور الذي فقده.

لكن كل رشفة، بدت له كأنها تُذَكّرُه أكثر بغياب الحياة، بفراغ اللحظة التي يفتقد فيها معنىً ما.

يتذكّر حيناً، قبل كل هذا، كان هناك حلمٌ، حلم يشبه الشمس التي تشرق كل صباح على وجه الأرض. كان حلماً بسيطاً، لكنه كان ينبض بالحياة. كان يحلم أن يعيش حياة لا تقف عند حدود النوافذ الزجاجية، حياة تليق بإنسان يُدعى فيصل، وليس بشخص يحارب الظلال في غرفة مضاءة بالنيون.

مرّت السنوات، وانكمش الحلم، صار لا يتجاوز صرخات الصمت الذي يخنقه الآن.

وسط هذا الركود، ولدت داخله رغبة عميقة في التحرر. لم يكن يعلم كيف يبدأ، ولكن كان يعلم أن عليه أن يفتح نافذة أخرى، نافذة لا تضيء فقط، بل تسمح للهواء أن يدخل، للروح أن تتنفس.

يبدأ فيصل بكتابة رسالة لنفسه، رسالة تبوح بما لم يستطع قوله طوال سنواته:

"يا نفسي، إن الحياة ليست مجرد صفقات وأوراق، ليست مجرد أكواب قهوة تملأ فراغ الأوقات. الحياة هي رحلة تتقاطع فيها الطرق، وتتعانق فيها الأرواح، هي أن تعيش بكل ما فيك من حزن وفرح، فشل ونجاح، ضياع وإيمان. إنني أريد أن أعود للحياة، أريد أن أسمع دقات قلبي كما كانت من قبل، أريد أن أرى النور من خلال نوافذ ليست زجاجية فقط، بل منحنية بألوان الحرية."

ثم يضع القلم، وينظر إلى نافذته مجدداً، وكأنها تتغير أمام عينيه، تتلوّن بألوان جديدة.

في اليوم التالي، قرر أن يخرج. أن يمشي في الشوارع التي رآها من بعيد، أن يلامس الأرض التي كانت تحته لكنه لم يشعر بها. في تلك اللحظة، أدرك أن المدينة لا تقتصر على أضوائها، بل هي أيضاً رائحة الأرض بعد المطر، همس الأطفال في الحدائق، ضحكات عابرة في الأزقة.

بدأ فيصل يلتقي بأناس، قصصهم كانت مختلفة، لكنها كلها تحمل بداخلها شرارة الحياة التي تشتاق إليها روحه. تعرف على امرأة في مقهى صغير، كان صوتها كالموسيقى يحيي صمته الداخلي. كانت تتحدث عن الحب، وعن الألم، وعن الأمل. ومن خلال كلماتها، بدأ فيصل يرى العالم بعيون أخرى، عيون لا تقبل الاستسلام.

لم يعد كل شيء بالنسبة له أرقاماً وأوراقاً، بل أصبح يرى في كل شخص حكاية تنتظر أن تُروى، وفي كل مكان فرصة لتجديد الحياة. بدأ يكتب مرة

أخرى، ليس فقط عن الصفقات، بل عن مشاعره، عن أمواجه المتلاطمة، عن السعادة التي اكتشفها في اللحظات الصغيرة.

مرت الأيام، وأصبح فيصل يحيط نفسه بالبساطة، في اختيار الناس، في الأماكن، في الأشياء التي يحبها. اكتشف أن الحياة ليست بذاك التعقيد الذي ظنه، بل هي بساطة المضي قدماً رغم كل ما يُثقل.

وفي مرة، وقف مرة أخرى أمام نافذته الزجاجية، لكن هذه المرة، لم يكن هناك غموض أو حيرة، بل كان هناك هدوء واعٍ. أضاءت الأضواء المدينة كما اعتادت، لكنها كانت بالنسبة له الآن مجرد خلفية لصورة جديدة من حياته. صورة تتنفس الحرية، تغني على نغمة التفاؤل، وتتأمل في جمال اللحظة.

لم يعد فيصل يسأل: ؟ "أي حياة هذه؟" بل أصبح يجيب نفسه بابتسامة ناعمة:

- "هذه هي حياتي، بكل ما فيها من وجع وفرح، بكل لحظة وألم، بكل حلمٍ لم يمت بعد."

في نهاية المطاف، فهم فيصل أن الحياة ليست مجرد مكان يُحتلّ أو أضواء تُرى، بل هي لحظة يعيشها الإنسان بإخلاص، لحظة يتصالح فيها مع نفسه، مع عتمة الليالي وضوء النهار، مع زجاج النوافذ ومع الهواء الخارج منها.

هناك، خلف ستائر الغرف الباذخة،

في ذلك الليل الذي لا يشبه أي ليلة، وقف فيصل أمام النوافذ الزجاجية

الشاهقة، ينظر إلى المدينة التي لا تعرف السكون. أضواؤها كأنها أحلام معلقة في فراغٍ لا نهاية له، تتلألأ مثل نجوم لا تنطفئ، لكنها كانت لأحد ما كوابيس متكررة.

أعاد النظر إلى أوراقه المنتشرة فوق الطاولة، ورق لا يتنفس، ولا ينبض بالحياة، وصفحات تكاد تبتلع روحه شيئاً فشيئاً، بينما يحتسي قهوته بمرارة وكأنه يحاول معها تذوق طعم وجوده.

لكن شيئاً ما كان يرفض الاستسلام. داخل هذا الرجل المحاصر في عالم من الأعمال والصفقات، كانت هناك شعلة صغيرة ترفض أن تنطفئ، نور خافت يئن في صدره يطالب بالحرية.

تلك الليلة، بعد أن أغلق دفتر أعماله، أخذ نفساً عميقاً، وقرر أن يخرج إلى المدينة، لا ليبحث عن عمل أو صفقة، بل ليبحث عن الحياة التي تسللت بعيداً منه.

خرج إلى الشوارع. لم تكن تلك شوارع الأعمال والمكاتب التي عرفها، بل كانت أزقة قديمة في حيّ منسي، حيث يلتقي الزمن بأهله، حيث تُحكى الحكايات في زوايا المقاهي الصغيرة، حيث تعيش البساطة في أوجه الناس.

هناك، بين وجوه الناس، لاحظ فيصل بريقاً مختلفاً، لم يكن في أضواء المدينة أو في معمارها الباذخ، بل في العيون، في الابتسامات، في اللمسات الخفيفة.

في تلك اللحظة، بدأ يشعر بأن الحياة ليست عبئاً، بل هبةً تنتظر أن تُعانق.

كتب عن ألم الوحدة الذي خلفته السنوات، عن خوفه من أن يفقد ذاته في دوامة النجاح، عن حلم طفولي لم يمح بعد، حلم بأن يكون حراً.

وأدرك أن الكتابة ليست فقط هروباً، بل بوابة ليفتح من خلالها نافذته الخاصة، تلك التي تسمح له بالنظر إلى ذاته، إلى أحلامه، إلى حياته كما هي، بلا أقنعة أو أوهام.

في الأيام التالية، بدأ فيصل يخرج أكثر، يسير بلا هدف محدد، يراقب الناس، يسمع أصواتهم، يلمس تفاصيل الحياة التي كانت مخفية وراء جدران عمله.

في سوق شعبي قديم، شاهد طفلاً يلهو ببساطة، يركض خلف طائرة ورقية تطير عالياً، طائرة لا تقيدها نوافذ زجاجية ولا تضيء بأضواء كهربائية، بل تسبح في فضاء حر، لا يخاف السقوط.

ابتسم فيصل، وتذكر أيام طفولته، تلك اللحظات التي لم يعرف فيها الخوف بعد، فقط الفرح والفضول.

دخل محلاً صغيراً لبيع الكتب، حيث التقى بشاعر محلي، رجل هادئ الروح، تحدثا عن الشعر والحياة، وعن الجروح التي تُشفى بالكلمات.

قال الشاعر: "الشعر ليس فقط كلمات نكتبها، بل هو صدى الروح، هو النبض الذي يجعلنا نشعر بأننا ما زلنا أحياء. هل تعيش حياتك بشعر، فيصل؟ "

تردد فيصل، لكنه أجاب بصراحة: "ربما لم أعد أعرف كيف أعيش، لكنني أريد أن أتعلم."

كان هذا اللقاء نقطة تحول، إذ بدأ يقرأ الشعر، يكتب بعض السطور، يشارك في ورش أدبية بسيطة.

تفتحت روحه على عوالم جديدة، لم تكن مرتبطة بنوافذ زجاجية أو صفقات، بل بعلاقات إنسانية، بتواصل صادق، بتقبل الذات والآخر.

في أحد الأيام، استيقظ فيصل مبكراً، خرج إلى حديقة عامة، جلس على مقعد خشبي تحت شجرة كبيرة. رأى طيوراً تغني، ,رائحة الأرض بعد المطر تملأ المكان، وأشعة الشمس تتسلل بين أوراق الأشجار.

تساءل لنفسه: "هل يمكنني أن أعيش هذه اللحظة كما هي، بلا خوف؟"

وأجاب بقلبه: "نعم."

بدأ يشعر بسلام داخلي لم يعرفه منذ سنوات. لم يعد يبحث عن إجابات في الأوراق أو الصفقات، بل وجدها في بساطة اللحظة، في تنفس الهواء، في ضحكة طفل، في همس امرأة.

لم يكن فيصل قد تحول بين ليلة وضحاها، لكنه بدأ رحلة العودة إلى ذاته، رحلة تحتاج إلى صبر، إلى جرأة، إلى حب.

لم يعد يرى النوافذ الزجاجية حاجزاً، بل أصبح يدرك أنه يمكن أن يكون

هناك شقوق تسمح للضوء أن يدخل، تسمح للحرية أن تتسلل، تسمح للحياة أن تُعاش.

وفي آخر مشهد، يعود فيصل إلى غرفته، يقف أمام نافذته، ينظر إلى الأضواء التي لم تعد تبدو له كأوهام أو قيود، بل كجزء من لوحة كبيرة، لوحة يتشارك رسمها هو وكل من يعرف كيف يعيش.

ابتسم لنفسه، وقال بهدوء:

- "هذه هي حياتي، بسيطة، ,معقدة، ,جميلة، وكل يوم منها فرصة جديدة لأن أكون أنا، بكل ما لدي من ضوء وظلام."

- بعد أن بدأ فيصل يكتشف روحه من جديد، وُلد داخله فضول لمعرفة قصص الآخرين الذين يسكنون المدينة بعيونهم الخاصة. أراد أن يقترب من حياة ليست معدودة في دفاتر أعماله، حياة تحمل شجن الإنسان وأمله.

في صباح مشمس، خرج فيصل متجهاً إلى سوق الحي القديم. كان المكان يعج بألوان الحياة وروائحها، من بهاراتٍ تفوح بأريجٍ شرقي، إلى أصوات الباعة المترددين في مناداتهم. كان السوق ككتاب مفتوح، تُقرأ فيه صفحات الحياة بتفاصيلها الدقيقة.

وقف فيصل أمام بائعة تمور تحمل ابتسامة دافئة على وجهها، تحدّث معها عن النخيل، عن جذورهم الممتدة في الأرض كجذور الذكريات في القلب. قالت له بصوت هادئ:

"النخيل يعلمنا الصبر، يا فيصل. يثبت جذوره رغم العواصف، ويظل يثمر رغم القسوة."

تأمل فيصل كلماتها، وفجأة شعر بأن حياته كانت مثل ذلك النخيل. راسخة في الأرض، لكنها تحركها الريح، بين الثبات والرغبة في النمو.

في المساء، وجد نفسه في معرض فني صغير. كانت اللوحات تحكي قصصا عبر ألوانها، تتحدث بلا كلمات. لفت انتباهه رسم تعبّر ملامحه عن رحلة داخلية؛ خطوط ملتوية، وألوان داكنة تتخللها ومضات من النور.

وقف أمام اللوحة طويلاً، كأنه يبحث عن انعكاس ذاته فيها. تبادل الحديث مع الفنان، شاب يحمل نظرة حالمة.

قال الفنان: "نحن نرسم لنُخرج ما في داخلنا، لنُريح قلوبنا من ثقل الصمت. أحياناً نحتاج أن نرى الألم من الخارج لنتصالح معه."

تلك الكلمات ضربت في قلب فيصل، وجعلته يفكر كيف أن التعبير ليس فقط بالأفعال، بل أيضاً بالرسم والكتابة والحديث.

في يوم آخر، التقى فيصل في حديقة عامة بشيخ مسنّ، يجلس وحيداً تحت شجرة زيتون. اقترب منه، وجلس بجانبه. تحدث الشيخ عن الزمن الذي مضى، عن التجارب التي علمته كيف يرى الحياة بنظرة مختلفة.

قال له: "يا ابن الناس، الحياة بحر عميق. لا تغرق في أمواجها، لكن تعلّم أن تسبح فيها. الألم جزء منها، لكن ليس هو كل شيء."

فيصل استمع له بتمعن، وأدرك أن الحكمة ليست في المال أو المراكز، بل في قبول الذات والحياة بكل تعقيداتها.

تأثر فيصل بهذا اللقاء، وقرر أن يبدأ مشروعاً صغيراً يجمع فيه قصص الناس، أصواتهم، آمالهم وأحزانهم. أراد أن يجعل من هذه القصص جسراً بين نفسه وبين الآخرين، أن يعيد اكتشاف الإنسان في كل تفاصيل الحياة.

خلال هذا المشروع، تعرف على فتاة صغيرة تدعى ياسمين كانت تحب الرسم والكلمات، لكنها تخشى التعبير عن ذاتها. شجعها فيصل وقال لها:

"لا تخافي أن تظهري ما في قلبك. لأن التعبير هو بداية الحرية."

تعلم فيصل من ياسمين البراءة والقوة معاً، وكيف أن الأمل يمكن أن يولد في أصغر اللحظات.

تغير فيصل تدريجياً. لم يعد يخاف من الفشل أو الوحدة. بل رأى فيها فرصة للنمو، للمصالحة مع الذات والعالم.

ذات مساء، جلس مرة أخرى أمام نافذته الزجاجية العالية. لم يعد هناك سؤالٌ في صدره. كانت المدينة تضيء بألوان مختلفة، لكنها لم تعد تُخيفه. لقد أصبح جزءاً من تلك الحياة بكل ما تحمله من أضواء وظلال.

أغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، وقال لنفسه:

"أنا هنا، أتنفس الحياة، أقبلها بكل ما فيها، وأُضيء نوافذي الخاصة، نوافذ الحرية التي لم تغلقها الأيام."

» في البيت، الذي يشبه قصراً غارقاً في الغرور،

كان ذلك المنزل يقبع في صمتٍ ثقيل، كما لو أنه غارق في غيبوبةٍ لا تفقه شيئاً عن الحياة التي تحدث خارجه. جدرانه العالية، والمزينة بزخارفٍ عتيقة، تحكي قصصاً عن زمنٍ مضى، حيث كان البيت مركزاً لكل شيء، ملكاً لا ينازع فيه. اليوم، بدا القصر وكأنه مزار مهجور، محاط بهالة من الغرور المكتوم، فارغاً من الحميمية، متكئاً على مجده الذي يتلاشى.

الخدم، الذين يتحركون داخله كظلال لا تُرى إلا في الانعكاسات، يجولون في أرجائه بصمتٍ مُنهك. وجوههم مقفرة من التعب، أبدانهم تعبّر عن صمتٍ قاسٍ أكثر مما ينطق به لسانهم، كأنهم حراس على بوابة زمنٍ انتهى، يشهدون عظمةً اختفت ولكن لا تزال تفرض حضورها بصرامة. هم ليسوا سوى تلاميذ في مدرسة العزلة، يخطون أقدامهم بلا هدف، يراقبون حياة لا تعنيهم.

في هذا القصر الكبير، لم يكن هناك صوتٌ يخصه سوى صدى خطواته وحده. لم يكن له ولدٌ، ولا زوجةٌ تشاركه المائدة، ولا وجه يعرفه ليعود إليه، إلا تلك المائدة الفارغة التي تبدو كمنصة مهجورة لأسرار لم تُقال. كل شيء حوله يتحدث عن فراغ عميق، فراغ لا يلتئم إلا بذكريات ربما كانت يوماً ما.

حين يعود في المساء، يفتح الباب بهدوء، كأنه لا يريد أن يوقظ الأشباح التي تسكن الغرف. الصمت يقف عند الباب، ينتظره كضيفٍ قديم لكنه لم يعد محبوباً. يسكن البيت كله كما لو أنه لا يريد أن يسمح له بالدخول، كأنه سجنٌ لا يرحم.

لكنه في تلك اللحظة، يكسر هذا الصمت بنداءٍ صغير، لا يخرج من قلبه فقط، بل من حاجة عميقة إلى شيء حي، إلى رفقة تُذكّره بأنه لم يُمحَ بعد من الوجود.

ينادي: "صديقي..."

ذلك الكلب الوحيد في هذا القصر الكبير، لم يُمنح اسماً كالآخرين، لأن اسمه كان يعبر عن حقيقة أعمق، عن رغبة في أن يجد في هذا العالم صديقاً، لا مجرد كلب. "صديقي" هو ذلك الرفيق الذي لا يطلب إلا أن يكون هناك، بصمت، بحضورٍ لا يشوبه كلام، برضى لا يُشترى.

يمضي في أرجاء المنزل، و"صديقي" يتبعه بخطوات ثقيلة، كأنهما اثنان يتشاركان وحدتهما، رغم كل ما بينهما من اختلاف في الشكل والمصير.

جلس في غرفة الجلوس، ألقى نظرة على الجدران التي احتوت أيامه، على الصور القديمة التي لم تزل معلقة، حكايات الناس الذين رحلوا، وحكاياته هو التي لم تبدأ بعد. وضع كوباً من القهوة، تردد في الإمساك به، كأن في ذلك الكوب تذكرة بحياةٍ أخرى، حياة لم يعرف كيف يعيشها.

"صديقي" استلقى إلى جانبه، رأسه على ركبته، حضورٌ حنون يملأ الفراغ بكثير من الصمت الذي يتكلم بلغة تختلف عن البشر.

نظر فيصل إلى الكلب، وتساءل بصوت خافت: "هل نحن اثنان فقط في هذا العالم؟ هل بقي شيء يمكن أن نثق به سوى هذا الوجود البسيط؟"

كان البيت مسرحاً لتلك الأسئلة التي لا تجد أجوبة، لحظات تأملٍ غارقة في صمتٍ كالصحراء، حيث يُحتجز الإنسان بين زمنٍ ماضٍ لا يعود، ومستقبلٍ لا يزال غامضاً.

في الصباح التالي، نهض متأخراً، وجده البيت يرحب به ببرودةٍ لم تعتدها أنامل يديه. استدار نحو النافذة العالية، حيث كان يطل على المدينة التي تبتلع ضوء الشمس ببطء، كأنها تسترخي تحت عبء يوم جديد.

لم يكن هناك أحد في حياته ليشاركه هذا المشهد، إلا "صديقي" الذي ظل يراقب بعيونٍ تثق به بلا كلام.

تحرك نحو المكتب حيث تكدّست الأوراق، ملفات عمل كانت كأنها قلعة صغيرة تحميه من فراغه، لكنها لم تكن سوى جدران أخرى تبعده أكثر عن ذاته.

جلس، مدّ يده ليأخذ ورقة، لكنه تردد، كأنه فقد القدرة على بدء شيء ما. لم يكن الأمر يتعلق بالعمل فقط، بل بشيء أعمق، بالبحث عن معنى في تفاصيل الحياة التي لم تعد تحتملها الروح.

قرر الخروج إلى الخارج، نحو الشارع، لعل الهواء البارد يفتح له نافذة في صدره المسدود.

في الخارج، المدينة تعج بالحياة المتدفقة، الأصوات تتداخل، والروائح تملأ المكان. الناس يمشون، ويتحدثون، ويضحكون، ويبكون، يختبرون ألوان الحياة المتعددة التي اختفى منها هو.

لكن رغم هذا، كان يشعر بأنه غريب في هذا العالم، كأن جلده لا يتناسب مع الضوء، كأن روحه تائهة في زمنٍ ليس زمنه.

سار في الشوارع، يتأمل وجوه المارين، يرى في أعينهم قصصاً لم تروَ، أحلاماً وُلدت وماتت في صمت.

توقف عند مقهى صغير، دخل دون أن يخطط لذلك، جلس في ركن بعيد، وطلب قهوة لا يعرف طعمها، لكنها كانت بداية لشعور جديد: الشعور بأنه جزء من شيء أكبر من وحدته.

خرج من المقهى، وقفت عيناه على حديقة عامة صغيرة، أخذ يتجه نحوها. هناك، رأى أطفالاً يلعبون، أمهاتهم ينادونهم بابتسامة حانية. توقف وتأمل تلك اللحظات، براءة الحياة التي لا تعرف الغرور، عذوبة الزمن الذي لم يكن لديه.

في تلك اللحظة، شعر بشيءٍ دافئ ينمو في داخله، شيء يشبه الرجاء، يشبه بداية قد تكون عتبة حياة جديدة.

عاد إلى البيت، لكن هذه المرة لم يكن مجرد زائر يعود إلى صمتٍ خانق، بل كان رجلاً يحمل في قلبه بذرة حياة، بادرة نضوج.

نظر إلى "صديقي" وقال له: "ربما ليس العالم الذي يجب أن يتغير، بل نحن من نحتاج أن نعيد اكتشافه."

جلس إلى جانب رفيقه الوفي، وبدأ يكتب، ليس عن الصفقات أو الأوراق، بل عن الحياة، عن الوحدة، عن الحب الذي لم يعرفه إلا في عيون كلبٍ بلا اسم.

تلك كانت أولى خطواته في رحلة طويلة، رحلة للبحث عن معنى، عن حضور، عن لحظة في هذا العالم لا تكون مجرد صدى لصمتٍ قاتل.

عاد فيصل تلك الليلة إلى غرفته، أطفأ الأضواء التي تحاصر الأشياء ببرودتها، واكتفى بإنارة خافتةٍ تأتي من مصباح صغير بجوار سريره. استلقى فوق الملاءات التي لم يلمسها جسدٌ آخر منذ سنوات. كانت رائحتها تشبه رائحة العزلة: نظيفةٌ أكثر مما ينبغي، بلا أثرٍ لبشرٍ يشاركونه الدفء.

أغمض عينيه قليلاً، لكن النوم ظل معلقاً في سقف الغرفة، يراقبه ولا يزوره. فتح عينيه مجدداً. تطلع إلى السقف الأبيض الذي صار مع الوقت دفتراً يسجل فوقه بقايا الأفكار، أصوات الناس الذين غادروا، ووجوه أولئك الذين لم يأتوا أبداً.

في الصباح، استيقظ على صوت خطوات "صديقي" يجرّ أظفاره فوق الرخام البارد. مد يده إلى رأس الكلب وربت عليه كأنه يربت على شظايا روحه. ثم نهض، وقرر هذه المرة أن يقلب جدوله رأساً على عقب.

في ذلك النهار، اتجه إلى حيٍّ قديمٍ في أطراف المدينة. حيٌّ يشبه أول العمر، حين كان فيصل فتىً يركض خلف صوته ليكبر قبل أوانه. مرّ بأبوابٍ خشبيةٍ متآكلةٍ من المطر والسنين، أبوابٍ لا تحتاج إلى حراس لأنها لا تخفي شيئاً سوى الصدق.

توقف عند مكتبة صغيرة يقف أمامها شيخٌ أحدب، يضع نظارات سميكة

تكبر عينيه وتصغّر العالم. كان الشيخ يقلب كتباً على طاولة خشبية موضوعة أمام دكانه الصغير، يلوّح بين حين وآخر بدخان غليونه كمن يحاور الغياب.

اقترب فيصل وسأله:

- ماذا تبيع هنا؟
- أجابه الشيخ بعينين تلمعان رغم غيم الشيخوخة:
- أبيع ما تبقى من الكلام الذي لم يقله أحد.

مدّ يده إلى رزمة كتبٍ صفراء الحواف. التقط روايةً قديمةً، لم يقرأ اسمها لكنه شمّ رائحتها. ضحك الشيخ وقال:

" الكتب، يا بني، تُشمّ قبل أن تُقرأ. من لم يعرف رائحتها، لا يليق به أن يفتحها".

ابتسم فيصل بخجلٍ يشبه اعترافاً سرياً. دفع ثمن الكتاب وعاد يمشي بين الأزقة. شعر أن تلك الورقة التي يحملها بين يديه أثقل من صفقاته كلّها. كأنها مفاتيح صغيرة تفتح باباً صدئاً في صدره.

في المساء، جلس يقرأ. كانت الكلمات كأصابعٍ حانيةٍ تزيل الغبار عن قلبه. أدرك أنه لم يكن يعيش، بل يكدّس الأيام بعضها فوق بعض حتى يختنق تحتها دون أن يدري.

في اليوم التالي، قصد ورشة أدبية تعقدها جماعة من الشباب في مقهى شعبي. جلس في الخلف، استمع إليهم يتجادلون في الشعر والحب والخيبة، وشعر بشيءٍ يشبه الدمع يحوم عند عينيه.

اقتربت منه فتاة في العشرينات، تحمل دفتراً مليئاً برسوماتٍ وخطوطٍ لم تكتمل. قالت له ببراءة:

- لماذا تجلس وحيداً؟ ألا تكتب مثلنا؟
- أجابها وهو ينظر إلى دفترها:
- أحاول أن أكتب نفسي قبل أن أكتب الكلمات.

ضحكت وقالت:

- إذن أنت شاعرٌ دون أن تدري!

بعد الورشة، عاد إلى بيته. لأول مرة لم يستقبل الصمت عند الباب، بل استقبلته فكرة جديدة: أن العزلة يمكن أن تُهزم بشيءٍ صغيرٍ مثل قصيدة، أو نظرةٍ تأتيك من عينٍ لا تعرفك لكنها ترى فيك شيئاً يشبهها.

في الأسابيع التالية، صار فيصل يقسّم وقته بين صفقاته التي ما عاد يراها إلا كأرقامٍ تملأ حاجات الحياة، وبين مقاهٍ صغيرةٍ تفتح نوافذ روحه.

صار يحتفظ بدفترٍ أسود يكتب فيه جملاً قصيرة. أحياناً يسميها خربشات، وأحياناً يسميها "حياةً مؤجلة". كتب فيه مرة:

- "العزلة أن تعود إلى بيتٍ لا ينتظرك فيه أحد. والكتابة أن تجد أحداً خفياً ينتظرك في داخلك."

وذات صباحٍ غائم، قرر أن يفعل شيئاً ظل يؤجله لسنوات: سافر إلى مدينةٍ بحريةٍ صغيرة، قيل له إن البحر فيها لا يشبه البحار الأخرى.

وقف أمام الموج طويلاً. خلع حذاءه، غرس قدميه في الرمل الرطب، أحسّ أنه يعود إلى ركنٍ نسيه داخل جلده. تذكر طفولته عندما كان أبوه يمسك يده على شاطئٍ قديم ويهمس له: "لا تخف من الموج، الموج يعيدك إن ضعت."

أغلق عينيه وترك الموج يبلل أطراف سرواله. لم يضحك، لكنه شعر بأنه أخفّ. كان "صديقي" يقف غير بعيد، ينبح تارةً ويركض تارةً أخرى، كأنه يُبارك لسيده نجاته الصغيرة.

عاد من رحلته تلك بوجهٍ مختلف. صار يرد التحية على الحارس العجوز أمام باب القصر، صار يجلس مع الطباخة العجوز ليستمع إلى حكاياتها عن زوجٍ مات وترك لها جرحاً كبرت معه.

ومساءً، صار يترك باب البيت مفتوحاً أحياناً. يخال أن الريح إذا دخلت ربما تحمل معه صوتاً جديداً، أو خطوةً منسية، أو عطراً غريباً يكسر رتابة هواء الغرف الثقيلة.

هكذا، تحوّل قصره من سردابٍ للأسرار الصامتة إلى مكانٍ يعرف أنفاس الحياة، حتى لو بقي وحيداً فيه. صار يعلق على الجدران صوراً التقطها بنفسه، يضع زهرةً صغيرةً على الطاولة كل صباحٍ ليقول لصمته: "اليوم لا أنتصر لك، بل أنتصر عليّ."

وفي ليلةٍ هادئة، جلس مع "صديقي" في فناء البيت الواسع. وضع يده على رأسه وهمس له:

- لو لم تأتِ إليّ يوماً، لكنتُ حجراً في قصرٍ بلا حياة.

نظر إلى النجوم، شعر أن الليل صار خفيفاً، ليس لأنه تبدّل، بل لأنه أخيراً صار يرى فيه نافذة، لا سقفاً مغلقاً.

أغلق دفتره الأسود، ابتسم في عتمةٍ صار فيها الضوء حليفاً، وتمتم لنفسه:

- قد لا أكون عثرت على اسمٍ لك، يا "صديقي، لكنك كنت اسمي حين نسيت نفسي.

ومن تلك الليلة، صار فيصل يعود من شوارع المدينة إلى بيته وهو يحمل أثراً جديداً من البشر: وردة من بائعٍ أعمى، جملة من فتاةٍ صغيرة، ضحكة من سائق سيارةٍ عجوز... وكل أثرٍ كان يمحو قليلاً من جدار الغرور حول القصر، ويملأ غرفه بنبضٍ كان يظنه مات.

هكذا تعلم فيصل، أخيراً، أن الصمت ليس عدواً دائماً... بل بابٌ حين نعرف كيف نطرقه. وأن الوحدة لا تُكسر بكثرة الناس، بل بقلبٍ يسمح للريح أن تمر فيه دون أن تخربه.

- كان يقولها فيصل هامساً وهو يجلس إلى جواره على سجادةٍ حريرية أمام مدفأةٍ لا يدفّئها سوى حضور ذلك الحيوان الصامت.

ربّت عليه ذات ليلةٍ طويلة، كأنه يربت على ما تبقّى فيه من إنسانٍ لم تلتهمه العقود.

همس له:

- "يا صديقي... لو تدري كم نحن غرباءٌ هنا، أنا وأنت..."

كان الكلب يهزّ ذيله فيظن فيصل أن صمته جوابٌ مطمئن: "أنا هنا... حتى لو ذهب كل شيء."

لم يعرف فيصل من الرفاهية إلا زجاجها الذي لا يعكس إلا صورته.

لم يعرف من السفر إلا حقائبه التي تعود فارغة من الروح، ممتلئةً بالإيصالات وتذاكر الفنادق.

لم يعرف من القصور إلا أبوابها الثقيلة، وسرائرها المفروشة بفراغٍ ناعمٍ يلدغ القلب.

وفي نهاية كل يومٍ، كان يتمدد في غرفةٍ بلا ضجيج عائلي، ينظر إلى سقفٍ يلمع بالثريات، ثم يغمض عينيه كمن يغفو فوق جرفٍ زجاجي:

هشٌ، باردٌ، وشفافٌ... ومغرٍ بالانكسار.

القسم الثاني

لم يسمع فيصل صوت السقوط أول الأمر. كان السقوط صامتاً، مثل تشقّقٍ في جدارٍ قديمٍ لا يراه أحد. كشرخٍ يتكوّن ببطء في قلبٍ تظاهر بالقوة طويلاً، حتى ظنّه أصحابه حصناً لا يُقهر. في صباحٍ باهتٍ من تلك الصباحات التي لا رائحة لها، جاءه الخبر لا على هيئة كلماتٍ تطرق بابه، بل أرقامٍ حمراء تتسلل على شاشة هاتفه كدمٍ جديدٍ يتفجّر من شريانٍ لا يعرف كيف يُسدّ.

هبط السوق المالي، ثم هبط أكثر، ثم تدحرجت الأسهم من تحت يديه كما يتدحرج الماء من بين أصابع ظامئٍ عمياء. جلس أمام شاشته الكبيرة، يحدّق في تتابع الأرقام. كل رقمٍ ناقصٍ كان ينتزع شيئاً من صدره، قطعةً من يقينه الذي بنى عليه بيته الواسع، مكتبته التي زُيّنت بأعمدة الأرقام وشهادات الربح وصفحات عقودٍ وُقّعت في ليالٍ لا تنام.

تساءل في داخله: "كيف يسقط شيءٌ ظننته ثابتاً؟ كيف ينهار بلا صوت؟"

وهو الذي درّب قلبه ألا يثق إلا في الأرقام. أرقامٌ بيضاء تنمو مثل أوراق

شجرةٍ حديديةٍ لا يعرف الخريف طريقاً إليها. لكن تلك الليلة لم تكن ليلته. تلك الليلة، لم ينقذه أي رقم. لم يجد في شاشةٍ باردةٍ سوى انعكاس وجهه المنكسر، وجهٌ كان يتغذّى على طمأنينة الفائض، فإذا به يواجه الفراغ لأول مرةٍ بوجهٍ عارٍ من كل حيلة.

نهض من كرسيه ببطءٍ ثقيل. مرّر يده على سطح المكتب، تحسّس الأوراق والملفات، كأنه يبحث عن دفءٍ مستحيل في أوراقٍ باردةٍ لا تردّ عليه السلام. سار نحو النافذة الكبيرة التي تطلّ على المدينة. من هناك كان يرى كيف يلمع زجاج الأبراج، كيف تتحرّك السيارات في شرايين الإسفلت، كيف يبدو البشر من بعيد مجرّد نقاطٍ بلا أسماءٍ ولا ملامح. كان يقول دائماً إن العلوّ يحميه. وإن من يصعد إلى الأعلى لا يرى التفاصيل المزعجة، ولا يسمع الأصوات الخافتة تحت قدميه.

لكنه هذه المرة رأى كل شيءٍ من هناك، رأى نفسه: رجلٌ يقف خلف زجاجٍ سميكٍ يرتعد قلبه من كلمة "سقوط". رجلٌ لم يعرف من العالم سوى صفقاته، ومن الناس سوى ما يحتاجه منهم. والآن، في اللحظة التي تساقطت فيها أرقامه مثل أوراقٍ مبلّلة، لم يجد أحداً ليسنده سوى ظلّه.

عاد إلى غرفته الواسعة، تلك الغرفة التي تزدحم بأثاثٍ فاخرٍ وصورٍ مؤطرةٍ لا تحمل سوى وجوهٍ من زمنٍ آخر. على رفٍ منخفض، جلس "صديقي" - الكلب الوحيد الذي بقي في هذا البيت الكبير. رفع رأسه، هزّ ذيله بكسلٍ متواطئ، نظر إليه فيصل وكأنه يقول له: "لا تخف... لا شيء هنا يسقط إلا إذا كنت تظن أنك واقف."

جلس فيصل أرضاً، تمدّد نصفه على البساط قرب الكلب، وأغمض عينيه. لأول مرة منذ سنوات، وجد نفسه في مستوى الأرض. لا مكاتب مرتفعة ولا مقاعد جلدية ولا نوافذ شاهقة. فقط الأرض، و"صديقي" الذي لم يكن يوماً بحاجةٍ إلى أرقامٍ ليحبّه.

مع الغروب، خرج فيصل من البيت. لم يأخذ سيارته السوداء اللامعة، بل قرر أن يمشي. خاف من صوته الداخلي، خاف من جدران بيته التي تردّد رجع أفكاره فتكبّره حتى لا يحتمل. مضى في شوارع جانبيةٍ لم يطأها من قبل. رأى أطفالاً يركضون خلف كرةٍ وحيدة، عجوزاً يجلس على كرسيٍ مائلٍ قرب بابٍ من خشبٍ عتيق. لمح دكاناً صغيراً يبيع السجائر والحلوى وعلب السردين، وأدرك فجأةً أن المدينة فيها حياةٌ لم يرها.

جلس على مقعدٍ صدئٍ في حديقةٍ خافتة الإضاءة. مدّ نظره إلى العابرين: أمهاتٌ يحملن حقائب تسحبهنّ الأرض إليها، شبابٌ يضحكون، عجوزٌ يجرّ قدميه وكأنه يعتذر عن إزعاج الرصيف. تساءل في سرّه: "كل هؤلاء... ماذا يملكون لو سقط كل شيء؟"

وحين لامس قلبه صوتٌ خافتٌ داخلي يقول: "الحياة."

» تذكّر أن ما يملكه لا يُشترى.

عند منتصف الليل، عاد إلى بيته. استلقى على أريكته العريضة. راقب السقف طويلاً. بدا له السقف مثل صفحةٍ بيضاء لم يُكتب عليها شيء. لا أسهم، لا عقود، ولا أرباح. فقط فضاءٌ ينتظر أن يقول فيه شيئاً.

نهض. فتح خزائنه. فتح دفاتره القديمة. قلب الصور التي طمرها تحت شهادات ملكية الأراضي والعقارات. وجد صورةً له وهو فتىً يبتسم أمام منزلٍ صغيرٍ في بلدةٍ لم يعد يذكر تفاصيل شوارعها. تذكّر صوته حينها. صوتٌ كان يغنّي في داخله: أن يكبر، أن يملك، أن يعلو.

لكنّه لم يتذكّر أنه تمنى أن يكون وحده.

في الأيام التالية، صار يخرج كل صباحٍ إلى الحديقة. يجلس على المقعد نفسه. يطعم بعض القطط الضالة قطعاً من الخبز. في البدء، كانوا ينظرون إليه بريبةٍ، لكنهم ما لبثوا أن اعتادوه. صار يرى في عيونهم شيئاً لا يجده في شاشات أرقامه: انتظاراً صادقاً، لا يخاف ولا يراوغ.

مرّةً، اقتربت منه امرأةٌ عجوز. كانت تحمل في يدها كيساً بلاستيكياً. جلست قربه، تنهدت، قالت بصوتٍ غارقٍ في بحةٍ عتيقة:

- "الغني لا يجلس هنا عادةً."

ابتسم بدون أن ينظر إليها:

"ومن قال إنني غني؟"

أجابت وهي تنظر إلى يديه:

- "اليد تقول كل شيء. يداك لم تلمسا الطين. لم تحمل حطباً ولا خبزاً ساخناً من فرن الحارة."

ضحك فيصل، شعر أن ضحكته غريبةٌ عليه، كأنها خرجت من جوفٍ لم يستعمله منذ زمن. قالت المرأة:

- "لماذا تجلس هنا إذن؟"

أجاب بعد صمت:

"لأتعلم أن أسقط."

نظرت إليه طويلاً، ثم ضحكت. كان في ضحكتها ما يشبه العزاء، ثم قامت وغابت في الظلّ. لم يعرف اسمها، لكنها تركت أثراً خفيفاً في صدره، كطَرْقٍ خفيفٍ على جدارٍ مغلق.

تتالت الأيام. صار فيصل يرى المدينة من مكانٍ أقرب، يلمس وجهها بيده. جلس يوماً في مقهى شعبي. سمع نقاشاً عن كرة القدم. شابان يختلفان حول فريقٍ ما. دخلا في حماسةٍ كأنه ما من شيءٍ في العالم أغلى من تلك اللعبة. ضحك في سرّه. أيعقل أن يربط الناس حياتهم كلها بهدفٍ واحدٍ يدخل شباكاً في مكانٍ بعيدٍ وهم هنا ينتظرون لحظة هتاف؟

لكنه أحبّ الفكرة. أحبّ أن شيئاً بسيطاً يمكن أن يجمع غرباء تحت سقفٍ واحدٍ، أن يجعلهم يهتفون معاً دون أن يسألوا عن أصلٍ أو حسابٍ مصرفي.

في تلك الليالي، عاد فيصل إلى بيته ليسكنه لا ليُحصّنه. صار يشعل مصباحاً صغيراً قرب مقعده في الحديقة الخلفية، يجلس قرب "صديقي" ويقرأ في كتابٍ قديمٍ اشتراه من بائعٍ جوّال. لم يفهم كل ما قرأه، لكنه شعر أن القراءة وحدها تُمسّد قلبه الخائف.

ذات مساء، حمل دفتراً فارغاً. جلس يكتب لأول مرةٍ شيئاً ليس فيه أرقامٌ ولا تواريخ عقودٍ ولا نسب أرباح. كتب عن نفسه كأنه يكتب لشخصٍ آخر:

- "أنا فيصل الذي ظنّ أن الارتفاع يحميه من السقوط. الذي نسي أن الريح تعلو حيث يعلو. الذي اكتشف متأخراً أن من لا يلمس التراب بيديه، يسقط داخله وحده. أنا الذي علّمني سهمٌ أحمرُ على شاشةٍ باردةٍ أن القلب ليس رقماً."

مع الوقت، صار بيته يشبهه. نزع بعض الستائر الثقيلة. فتح النوافذ. سمح للهواء أن يدخل. صار يسمع أصوات الجيران من بعيد: بكاء طفلٍ، وضحكة امرأةٍ تُكلّم أمّها عبر الهاتف، مواء قططٍ تبحث عن فتاتٍ عند البوابة.

في ليلةٍ باردةٍ، حدّق في "صديقي" طويلاً، وهمس له:

- "لو لم أملكك، لما بقي لي شيء. لو لم أكن لك، ما تذكّرت أنّي بشرٌ يمكن أن يحبّه كلبٌ بلا اسم."

حين سُئل فيصل بعدها بأشهرٍ عن خسارته الكبرى، أجاب بهدوء:

- "ما سقط ليس المال. ما سقط كان حائطاً سميكاً كنتُ قد بنيته حول روحي. خسارتي كانت باباً."

ثم صمت. ابتسم كمن يربّت على قلبه الذي صار يعرف كيف يُصغي.

هكذا عاش فيصل بعد السقوط: رجلٌ لا يخشى الأرض. رجلٌ يتلمّس قلبه كل صباحٍ ليتأكد أن فيه بقايا دفءٍ تكفيه ليقول لصمته: صباح الخير.

وهكذا صار القصر الذي يشبه متحفاً متجمّداً حديقةً صغيرةً في صدر رجلٍ لم يعد يخاف من أن يُكسر، لأن التصدّع كان أوّل دروس النجاة.

ظل يجلس خلف مكتبه في برجه الزجاجي كأنه تمثالٌ نُسيَ في متحفٍ أغلق أبوابه منذ زمنٍ بعيد. الهواء من حوله باردٌ على نحوٍ يلسع أطراف أصابعه رغم الستائر السميكة والمكاتب المصفوفة بعنايةٍ تخدع الداخلين بوهْم الدفء. كان ينظر إلى الشاشات المعلقة في صمتٍ غليظ، الأرقام تتقافز كأرانب مذعورة، الأصوات الخافتة لموظفيه تنزلق على بلاطٍ لم يلمسه غبارٌ يوماً، يأتون إليه محمّلين بالأسئلة لكنهم لا يجرؤون على رفع أعينهم نحوه.

يشرب قهوته ببطءٍ مفتعل، يطيل في ارتشافها كأنها ذريعةٌ تؤجل مواجهة نفسه. كل رشفةٍ كانت مثل اعتذارٍ باردٍ يقدّمه لصمته كي يواصل التنفس. لم يكن يريد أن يصدق أن ما يحدث حقيقة. كان ذهنه يدور في حلقاتٍ صامتةٍ: منذ متى وأنا أجلس هنا؟ ومنذ متى وأنا أظنُّ أنني ثابتٌ فوق الريح؟

حين تجرّأ مساعده الشاب على الاقتراب أكثر من المسموح، ليضع أمامه ملفاً جديداً، رفّ الجفن المتعب في وجه فيصل كشرارةٍ من زمنٍ قديم. حدّق فيه طويلاً قبل أن يقول له بصوتٍ لم يخرج من حنجرته بل من مكانٍ أبعد: " اتركه هناك." أشار بيده بحركةٍ صغيرةٍ كانت كافيةً لتقول: "انسحب." انسحب الشاب مثل ظلٍ مذعور، وبقي فيصل وحده مع ورقةٍ لم يفتحها.

أدار كرسيه الكبير نحو الجدار الزجاجي. من هنا، من الطابق الذي يطلّ على المدينة كلها، بدا كل شيءٍ صغيراً هشاً. كانت السيارات تتحرّك في الشوارع

كألعابٍ تتحرك بإصبع خفيّ، والناس يسعون بلا أسماءٍ ولا ملامح. لطالما أحبّ هذه المسافة، أحبّ أن يكون أعلى من ضجيج الحياة، فوق الصخب الذي يضجّ بضحكٍ لم يصدّقه يوماً.

لكن اليوم، حين مدّ بصره إلى أبراجٍ تقف باردةً مثله، أحسّ أن الزجاج لا يحمي من شيءٍ سوى الحقيقة. والحقيقة كانت تنخره من الداخل مثل دودةٍ تأكل تفاحةً متخمةٍ بلمعانٍ زائف.

لم يكن قد أعدّ نفسه للسقوط. لم يصدّق، في كل ما كدّسه من أرصدةٍ وخططٍ وأختامٍ على أوراقٍ مطبوعةٍ بأسماءٍ طويلةٍ، أن يداً ما ستصفعه بيومٍ لا تشبه فيه الأرقام إلا ضحكتها الساخرة. حاول أن يفتّش عن خيطٍ يجرّه من هاويةِ الشك، فلم يجد سوى انعكاسٍ باهتٍ لوجهه في الزجاج: رجلٌ في منتصف العمر، شعره مُسرّحٌ بإفراط، بدلةٌ فاخرةٌ صارت فجأةً ثقيلةً على كتفيه.

هبّ واقفاً. شعر بظهره يئنّ من طول الجلوس، كأنه تذكّر فجأةً أن جسده قطعةٌ هشّةٌ وليست حصناً من فولاذٍ. خرج من مكتبه متجاهلاً نظراتٍ تسرق عينه من موظفيه الذين اصطفّوا على جوانب الممرات. خطا بينهم كأنه يطوفُ بينهم مودّعاً.

ركب المصعد وحده. في المرآة الصغيرة داخل الصندوق المعدنيّ، رأى وجهه بلا رتوش. وجهاً فقدَ تلك القسوة اللامعة التي كانت تسنده أمام المستثمرين والبنوك والموظفين. لم يرَ فيه إلا ابناً قديماً لأبٍ غاب باكراً، وأمٍ رحلت وهي تزرع في قلبه بذرة خوفٍ لم ينجُ منها قطّ: خوف الفقر، خوف أن يمدّ يده ولا

يجد كسرة خبز. كان يظنّ أن المال درعٌ ضدّ هذا الفزع. لكن الفزع اليوم خرج من أرقامه وهبط في صدره كعصفورٍ غاضبٍ لا يُروَّض.

حين خرج من البرج، استقبلته رائحة المدينة التي نسيها منذ صار يختبئ وراء الزجاج. رائحة العوادم، بخار المطاعم الشعبية، أصوات الباعة المتجولين الذين لا يعرفون ماذا يعني سهمٌ صاعدٌ أو هابط. مشى بين الناس كأنه يكتشفهم لأول مرة. دقّ قلبه بإيقاعٍ غريبٍ، كأنه منذ زمنٍ لم يختبر وزن جسده فوق إسفلتٍ رطبٍ من تعب البشر.

لم يدرِ كيف قادته قدماه إلى حيٍّ قديمٍ كان يفرّ منه. هناك حيث البيوت بلا شرفاتٍ متلألئة، وحيث الأرصفة تعرف أقدام المتعبين أكثر من أي أرشيفٍ بنكيّ. جلس على مقعدٍ حديديّ أمام بقالةٍ صغيرةٍ. بجواره جلس صبيٌّ يبيع الصحف. كان يمدّ أوراقه لأيدٍ لم تعد تقرأ كثيراً. التفت إليه وقال:

- "يا عمّ، بدّك جريدة؟"

- هزّ فيصل رأسه بلا كلمة، لكنه شعر أنّ سؤاله مثل يدٍ ناعمةٍ توكزه من الداخل: متى آخر مرةٍ قرأ شيئاً لا يحوي أرقاماً؟

أخرج من جيبه بعض النقود، دفعها للصبيّ وأخذ جريدةً لم يعرف عنوانها. فتح صفحاتها بصمت. كانت يده ترتعش قليلاً، ليس من البرد بل من طول القطيعة بينه وبين الورق الذي يُقرأ لا الورق الذي يُوقَّع عليه. تصفّح العناوين: موت، ولادة، وحادث سير، وصورةٌ لطفلٍ يبتسم بأسنانٍ ناقصة. خيّم عليه شعورٌ غامضٌ بأن هذا هو العالم الحقيقيّ الذي لم يعش فيه قطّ.

عاد إلى بيته تلك الليلة مشياً. رافقته خطواته كصدى داخليٍّ يردّد اسمه بصوتٍ لم يسمعه منذ زمن: "فيصل". مجرّد اسمٍ بلا ألقاب، بلا أرقام. اسمه كما نطقه أبوه ذات مساءٍ قديمٍ وهو يجلسه على كتفه ليشير له إلى سماءٍ لم يعد يرفع عينيه إليها.

حين دلف إلى بيته، لم يستقبله أحد سوى "صديقي" الكلب الذي صار يشبهه أكثر مما يشبه نفسه. رفع الكلب رأسه، هزّ ذيله في خفوتٍ كأنه يهمس له: "أنا هنا، أنا الوحيد الذي لم أسألك يوماً كم تملك."

جلس على الأرض قربه. مدّ يده إلى رأسه ومسح على فرائه الخشن. شعر بشيءٍ دافئٍ يتسرّب من باطن كفّه إلى قلبه الذي ظلّ بارداً عقوداً. تمتم:

- "اليوم سقط شيءٌ مني... ربما ما عاد لي، لكن لعلّ ما بقي فيّ هو الذي يليق بي."

في الصباح، استيقظ دون منبّهٍ ولا هاتفٍ يهدر بالأرقام. خرج إلى الشرفة، تطلّع إلى شجرةٍ وحيدةٍ في حديقته التي ظلّت مجرّد ديكورٍ لم تطأه قدماه. اقترب منها. مدّ أصابعه بين أوراقها كأنه يعتذر منها لأنها بقيت وحيدةً مثله. تذكّر أمه، كيف كانت تحبّ النباتات، كيف كان صوته صغيراً حين يطلب منها أن تترك النافذة مفتوحةً لتشمّ رائحة الياسمين.

مرّت أيّام. صار فيصل يذهب كل مساءٍ إلى الحيّ ذاته. يجلس قرب الصبيّ بائع الجرائد. صار الصبيّ يعرفه ويحتفظ له بنسخةٍ جديدةٍ كل يوم. أحياناً يتبادل معه بضع كلماتٍ لا تسمن ولا تغني من جوع، لكنها تكفي ليقنع نفسه أنه لا يزال واحداً من بشرٍ لهم أصوات.

في إحدى الليالي، جلس في مقهى شعبيّ قريب. كان العمّال ينثرون ضحكاتٍ بلا حذرٍ أمام أكواب الشاي. لم يلتفت إليه أحد. لم يسأله أحدٌ من يكون. لم ينتبه أحدٌ لبذلته التي نزع عنها ربطة العنق وترك أزرارها العليا مفتوحة. شعر بحريةٍ غريبةٍ في جلوسه بينهم. حرية أن يكون مجهولاً. أن يكون واحداً آخر لا يعرفه أحد ولا ينتظر منه أحد شيئاً.

حين عاد إلى بيته تلك الليلة، دخل غرفة المكتب. نظر إلى الشاشات التي كانت تبثّ صمتها في وجهه. أطفأها كلّها بلمسةٍ واحدة. ساد ظلامٌ خفيفٌ أراح عينيه. ذهب إلى أحد الأدراج وأخرج دفتراً قديماً. كان هديةً من صديقٍ نسيه. فتح الصفحة الأولى. جرّ قلمه على الورق كما لو كان يتعلّم الكتابة من جديد. كتب:

"لم أعد أخاف أن أسقط. ما أخافه هو أن أنهض دون قلب."

امتدّت الأيام. صار فيصل يخرج صباحاً ليشتري الخبز من فرنٍ شعبيّ، يجلس قرب بائع الجرائد، يسقي شجرته الصغيرة في الفناء الخلفيّ، يقرأ بصوتٍ منخفضٍ لصديقي الذي ينام مستسلماً تحت قدميه.

وفي يومٍ رماديّ، جلس في مقهاه المفضّل، سمع أغنيةً قديمةً كانت أمه تدندنها له في طفولته. سمع صوته الصغير في صدره يغنّي معها. أحسّ بدمعةٍ تلمع في عينه. لم يمسحها. تركها تنحدر على خدّه لتقول له: "ها أنتَ... حيٌّ بما يكفي لتبكي."

في ذلك المساء، لم يعد فيصل مجرّد تمثالٍ نُسيَ في متحفٍ أغلق أبوابه، بل صار شقّةً مفتوحةً للنور. صار رجلاً يعرف أن السقوط ليس فضيحةً بل طريقٌ

للتماس مع الأرض التي تحملك. صار رجلاً أدرك أن الأرقام وحدها لا تنقذ من الخواء، وأن كل حجرٍ في قلبه صار أخفّ حين تذكّر أنه بشر.

وفي ركنٍ من أركان البيت الكبير، واصل صديقي النوم مطمئناً قرب الباب، كأنه يحرس رجلاً أخيراً عرف أن لا برجاً زجاجياً يحمي من الريح، ولا سهماً أخضراً يضمن الأمان... ما يحميه الآن هو قلبٌ صار يشبه قلب كلبٍ لا يعرف لغةً غير الوفاء.

- لم يكن يعرف أن المال يمكن أن يذوب بهذه السرعة.

- كيف يختفي جبلٌ من أرقامٍ في ومضة شاشة؟ كيف يضمحلّ ظلّه الذي توسّع حوله مثل سورٍ صامتٍ يحميه من فكرة الفقد؟ كان يجلس قبالة الشاشة الكبيرة في مكتبه العالي، ينظر إلى الخط البيانيّ وهو يهبط في انكسارٍ حادّ يشبه خنجراً يُغرس في صدره ببطءٍ لا يتيح صراخاً.

مدّ يده إلى فنجان قهوته البارد. حاول أن يشربه ليصرف عن نفسه رجفةً طارئةً في أصابعه. لامس شفتيه طعمٌ مُرّ لم يعرفه من قبل: مزيجٌ من قهوةٍ سوداء وخيبةٍ لم يتعلم مفرداتها بعد.

حدّق حوله. مكتبٌ رخاميٌّ ثقيل، مقاعد جلدية ناعمة، أوراقٌ مصفوفة في أدراجٍ بترتيبٍ مبالغٍ فيه، ووراء النافذة الزجاجية برجٌ يطلّ على مدينةٍ لم يكن يراها إلا من الأعلى: سياراتٌ تتحرّك في خطوطٍ ملتوية، بيوتٌ متلاصقةٌ كأفكارٍ مزدحمةٍ في رأسٍ موجوع.

سأل نفسه بصوتٍ لم يسمعه غيره: "أين ذهبت كل هذه القلاع؟ متى صار المال ماءً ينسكب من بين أصابعي ولا يترك لي إلا بلّة الخسارة؟"

نهض عن كرسيّه. شعر بظهره يئنّ تحت بذلةٍ داكنةٍ خاطها قبل شهرٍ فقط، كأنه كان وقتها يُلبس نفسه درعاً ضدّ احتمالات العالم. سار نحو النافذة. وضع كفّه على الزجاج البارد. أحسّ بحرارةٍ خافتةٍ من جسده ترتدّ إليه كتحذيرٍ: "أنت لست زجاجاً. أنت لحمٌ يمكن أن ينكسر."

تذكّر أباه الذي مات في حانوتٍ صغيرٍ بين أكوام قماشٍ رخيصٍ وأحلامٍ كبيرةٍ صُودرت على عتبة الصباح. يومها أقسم لنعشٍ مكسوٍّ بزهورٍ ذابلةٍ أنه لن يموت فقيراً مثل أبيه. أقسم أن يجعل المال سياجاً يردّ عنه يد الحاجة وذلّ السؤال. لم يعرف أن المال يمكن أن يكون هو اليد التي تجرّه من ياقة عنقه حين يقرر أن يفرّ منه.

فتح درجاً جانبيّاً. سحب صورةً قديمةً في زاويةٍ نسيها عمداً. صورةٌ له وهو صبيٌّ لم يتجاوز العاشرة، يقف في سوقٍ شعبيٍّ يبيع مع أبيه بقايا أقمشةٍ بخيوطٍ فضيّةٍ رخيصة. كانت ابتسامته في الصورة شقيّةً لا تشبه هذا الرجل الذي يقف في نافذةٍ عاليةٍ يخاف فيها من الهبوط أكثر من خوفه من العلوّ.

أعاد الصورة إلى الدرج كأنه أعاد طفلاً إلى بيتٍ بلا نافذة. أغلق الدرج ببطء، ثم ارتدى معطفه وغادر المكتب تاركاً وراءه أوراقاً لا تحمل غير أرقامٍ مسلولةٍ من دمها.

حين نزل إلى الشارع، شعر بأن الأرض لم تتغير. السيارات لا تزال تنبح

بأصواتها المعدنية، والناس يجرّون أقدامهم في عجلةٍ تشبه دوران طواحينٍ لا تهدأ. مشى بينهم بظهرٍ مستقيمٍ يتظاهر بالثبات، بينما في صدره طنينٌ خافتٌ يخبره أن كل شيءٍ داخله يهتزّ.

وقف أمام عربة بائعٍ جوّالٍ يبيع حلوى الأطفال. تذكّر طعم السكّر الملوّن الذي كان يلتصق بأصابع طفولته. مدّ يده إلى جيبه، أخرج قطعة نقدية، اشتراها بدون أن يجرؤ أن يلعق منها قضمة. خاف أن تفسد مرارتها مذاق السقوط. دسّها في جيبه كعلامةٍ أنه لا يزال يقدر أن يشتري شيئاً، ولو كان تافهاً.

عاد إلى بيته مع الغروب. بيتٌ يشبهه: واسعٌ، وصامتٌ، ومُضاءٌ أكثر مما يلزم. فتح الباب، دخل، فلم يسمع سوى وقع خطوات "صديقي" الكلب الذي لم يتخلّ عنه يوماً، لا في الربح ولا في الخسارة. اقترب الكلب منه كأنه يعرف أن سيده عاد منهكاً من معركةٍ لم يرفع فيها سيفاً. جلس فيصل على الأرض. وضع رأس الكلب على ركبته. مسّد فروه الخشن. قال له في سرّه: "لو كنتَ بشراً، لتركتني أنت أيضاً."

صنع لنفسه قهوةً جديدة. جلس قرب نافذةٍ تطلّ على الحديقة. لم يكن يراها من قبل إلا قطعة ديكورٍ يليق بها أن تُسقى بيد بستانيّ. الآن رأى أوراقاً ذابلةً فوق العشب. سأل نفسه: "هل يمكن لشجرةٍ في باحة بيتٍ مسوّرٍ أن تموت عطشاً؟" ثم خاف من الإجابة.

مرّ الليل بطيئاً. قرّر أن ينام بلا منوّمٍ ولا شاشةٍ معلّقةٍ إلى جواره. لكن النوم لم يأتِ. ظلت أفكاره تمضغ رأسه كفئرانٍ تبحث عن كسرةٍ في مخزنٍ مهجور. في لحظةٍ ما، قام. ارتدى معطفه من جديدٍ وخرج إلى الشارع البارد.

سار طويلاً في حاراتٍ جانبيةٍ لم يزرها منذ صار "رجلاً ناجحاً". رأى أبواباً حديديةً نصف مخلعة، شباباً يضحكون بصوتٍ مبحوحٍ من ضيق الحارة وضيق جيوبهم. مرّ قرب مسجدٍ صغيرٍ انطفأت أضواؤه لكن ظلت رائحة السجاد فيه تهرب إلى الشارع مثل دعوةٍ مستترةٍ للطمأنينة.

جلس على رصيفٍ تحت عمود إنارةٍ باهت. وضع رأسه بين كفّيه. لم يفكّر بشيء. فقط سمع دويّ قلبه كأنه يطرق صدره من الداخل، يذكّره أن قلبه ليس سهماً صاعداً ولا عملةً ورقيةً، بل لحمٌ يتذكّر ويرتعد.

اقترب منه صبيٌّ صغيرٌ يحمل كيساً من الورود الذابلة. قال له بجرأةٍ طفلةٍ في الليل: "أستاذ... تشتري وردة؟"

رفع فيصل رأسه. تطلع في عينيه الواسعتين. رأى فيهما صورةً عنه حين كان يبيع الأقمشة في سوقٍ قديمٍ يصرخ فيه التجّار بأصواتٍ خشنةٍ لم تعرف الرخام يوماً.

مدّ يده إلى جيبه. لم يجد شيئاً سوى القطعة النقدية التي دفعها في الحلوى. أخرجها وأعطاها للصبيّ. أخذ الوردة ووضعها في حضنه. ابتسم له الصبيّ ومضى يجرّ رجليه بين العتمة والبرد.

عاد إلى البيت قبل الفجر. وضع الوردة الذابلة في كأس ماءٍ شفافٍ في مطبخه الفسيح. جلس يراقبها كأنها صديقٌ قديمٌ جاء ليذكره أن الحياة أقسى من كل أوراق الأسهم.

في الصباح، استيقظ قبل ضوء الشمس. خلع ثيابه الرسمية. ارتدى معطفاً بسيطاً. مشى إلى حديقته الصغيرة. بدأ يقصّ الأعشاب اليابسة بيديه العاريتين. شعر أن في أصابعه حروقاً صغيرةً لا تراه لكنها تحرّره من خدرٍ قديمٍ سكن جلده. تذكّر أباه وهو يطوي القماش بيديه الخشنتين، كيف كان يقول له في طفولته: "اليد التي لا تشقى، لا تعطي." وأدرك أن يديه نسيَتا معنى أن تُعطيا.

منذ ذلك اليوم، صار فيصل يخرج كل صباحٍ إلى شوارعٍ لم يكن يعرفها. يشتري قهوته من بائعٍ على الرصيف. يجلس قرب مقعدٍ خشبيٍّ أمام حديقةٍ عامّةٍ يراقب الناس الذين يركضون وراء أوهامٍ صغيرةٍ لكنها أقلّ قسوةً من أوهامه.

وذات مساء، عاد إلى بيته وفتح الدرج. أخرج صورة أبيه القديمة. ابتسم في عتمةٍ صارت أقلّ خوفاً. قبّل طرف الصورة. أغلق الدرج ببطءٍ كأنه يغلق باباً على ماضٍ صار له فيه الآن شريك: رجلٌ خسر أرقامه لكنه ربح نفسه.

ومع كل شروقٍ، صار المال أهون، وصار فيصل أخفّ: رجلٌ لم يعد يحرس جبله المزيّف من التفتت، بل صار يزرع شجرةً واحدةً في باحةٍ صغيرةٍ ويقول لصديقه الكلب:

"إن بقيتَ بجانبي، فهذا يكفيني كي لا أخاف من الغد."

مرّت أسابيعٌ بعد ذلك الصباح. صار فيصل يتقن لعبة الصمت مع نفسه. يُطفئ هاتفه لساعاتٍ طويلة، لا يفتح بريده الإلكتروني إلا حين يغلبه الفضول

ليعرف كم خسر بعد، ثم يبتسم بفتورٍ كأن الخسارة صارت جزءاً من جلده لا تؤلمه إلا بقدر ما تذكّره أنه حيّ.

صار الليل صديقه الحقيقي. لم يعد يخشى العتمة التي كانت ترعبه وهو صبيٌّ صغيرٌ ينام على حصيرةٍ خشنةٍ قرب والده. صار يمشي وحيداً في الأزقّة، يراقب الأبواب المغلقة، يسمع أصوات البيوت من خلف الجدران: رضيعٌ يبكي، وعجوزٌ تسعل، وشابٌ يغني بفرحٍ مكسورٍ يشبه شقوق الجدران العتيقة.

وذات ليلة، جلس على عتبة مسجدٍ أغلق بابه بعد صلاةٍ متأخرةٍ لم يدركها. لم يكن فيصل ممّن يطرقون أبواب السماء كثيراً. كان يظنّ أن الدعاء للضعفاء، وأن اللّه قد لا يلتفت كثيراً لرجلٍ صنع لنفسه عرشاً من أسهمٍ وأختام. لكن تلك الليلة، حين مسح بيده على البلاط البارد، شعر أن الأرض أقرب إليه من كل أسقفه العالية.

تذكّر يد أمّه على رأسه. يدٌ نحيلةٌ كان يهرب منها حين كان يريد أن يبدو قويّاً أمام رفاقه. تلك اليد التي ما زال يشعر بظلّها يحرسه من جنون العالم، رغم أن القبر ابتلعها ولم يترك له منها سوى عطرٍ قديمٍ وذكرى تسكن بين ضلوعه كندبةٍ خفيّة.

عاد إلى البيت مع الأذان الأوّل للفجر. لم يخلع معطفه. لم يشعل الأضواء. سار إلى المطبخ، فتح الثلاجة فلم يجد فيها غير بقايا طعامٍ جافٍ وأكوابٍ مرصوصةٍ ببرود. أدرك لحظتها أن بيته، مثل قلبه، ممتلئٌ بأشياءٍ لم يعد يعرف كيف يبتلعها.

في اليوم التالي، باع ساعته الثمينة. ثم باع ربطة عنقه الحريرية، تلك التي اشتراها من باريس في زيارةٍ لم يرَ فيها من باريس سوى المطار والفندق ويداً وقّعت معه عقداً لم يعش طويلاً. شعر بفراغٍ غريبٍ حين خرج من محلّ الرهونات بجيبٍ خفيفٍ لكن صدره أثقل من أن يحمله.

ذهب إلى الحديقة العامة التي صارت ملاذه الأخير. جلس على المقعد الخشبي الذي نحت عليه بعض الغرباء أسماءً لم يعرفهم. راح يقرأ الأسماء كأنه يبحث عن اسمه بين خطوطٍ مائلةٍ وحروفٍ نصف مطموسة. سأل نفسه: "كم منّا يُمحى اسمه حين يموت، حتى من مقعدٍ باردٍ في حديقةٍ لا يعرفه فيها أحد؟"

قربه، جلست امرأةٌ شابةٌ تحمل طفلةً صغيرة. كانت تهدهدها بأنشودةٍ لم يفهم كلماتها لكنه شعر بنغمتها تتسلل إلى صدره كبلسمٍ خفيف. نظرت إليه المرأة فجأةً، كأنها انتبهت لوجوده بعد غياب:

- "أراك هنا كثيراً هذه الأيام."

ابتسم لها بهدوءٍ اعتذاري:

- "ربما لأني أتعلم أن أكون بلا بيت."

هزّت رأسها كأنها تفهم، ثم أشارت إلى طفلتها:

- "هذه هي بيتي... إذا ذهبت، ذهبتُ أنا أيضاً."

سمع العبارة تطرق روحه بصوتٍ لم يكن يعرفه. تذكّر فجأةً أنه لم يكن له بيتٌ قطّ، حتى وهو يسكن في برجٍ يطلّ على نصف المدينة. بيته الوحيد كان

ذاكرةٌ مقفلةٌ تحت سقفٍ من قماشٍ قديم، رحل أصحابه وبقي وحده في غرفةٍ مليئةٍ بالأرقام.

بعد أسابيع، باع فيصل سيارته أيضاً. صار يتنقل سيراً أو في حافلةٍ يجلس فيها بين غرباء لا يعرفون أنه كان يوماً يملك من المال ما يكفي ليشتري نصف شوارعهم. صار يرى في عيون الركاب وجوهاً تشبهه: وجوهاً لا تحصي ما تملك، لكنها لا تخاف الفقد لأن خساراتها تُعدّ بالنوم والجوع والبرد، لا بالأرقام.

عاد إلى صديقه الكلب ذات ليلة. وجده مريضاً يئنّ قرب الباب. حمله بيديه كمن يحمل قلبه المصاب. أخذه إلى طبيبٍ بيطريٍّ كلّفه ما تبقّى في جيبه. جلس قربه طوال الليل على كرسيٍّ خشبيٍّ في عيادةٍ صغيرةٍ تشبه غرف الانتظار في المستشفيات الحكومية. حين فتح الكلب عينيه في الصباح، شعر فيصل أن شيئاً من العالم عاد إليه، وأن خسارة المال لا تساوي شيئاً أمام بقاء نظرةٍ وحيدةٍ تقول له: "أنا هنا لأني أعرفك بلا رصيد."

مرت شهور. صار فيصل يكتب كل ليلةٍ في دفترٍ عثر عليه بين أوراقٍ قديمةٍ في درجٍ مُهمَل. لم يكتب عقوداً ولا أرقاماً هذه المرة، بل كتب: "اليوم رأيت رجلاً عجوزاً يقشر برتقالةً لصبيٍّ مجهولٍ في حديقةٍ عامة." ثم كتب: "اليوم دفنت يدي في تراب الحديقة لأول مرةٍ منذ سنين."

ومساءً، جلس على درجٍ حجريٍّ أمام بوّابةٍ نصف متهالكة. رفع رأسه إلى سماءٍ مرقّطةٍ بنجومٍ بعيدة. لأول مرةٍ منذ صار اسمه يُذكر في الصفحات

المالية، شعر أن السماء له، وأنه ليس بحاجةٍ ليشتري منها نجمةً ليضمن مكانه فيها. أدرك أن النجاة ليست في القلاع العالية، بل في الأرض التي تبلّل ركبتيك كلما ركعت لتلمس جذورك.

في الصباح التالي، استيقظ مع خيط شمسٍ خفيفٍ زحف إلى غرفته. نهض، غسّل وجهه بماءٍ باردٍ من صنبورٍ قديم. أطعم "صديقي" بيده. جلس قربه وهمس:

- "علّمتني أكثر مما علّمتني الشاشات. الآن أعلم أن الغنى لا يُقاس بما في الجيب... بل بما تبقّى في القلب حين يفرغ الجيب."

وفي ورقةٍ أخيرةٍ كتب:

- "لم يعد السقوط يخيفني. صار صديقي الذي دلّني على الأرض... والأرض دلّتني عليك يا الله."

ثم أغلق الدفتر. أطفأ الضوء. وأسلم رأسه للوسادة بطمأنينةٍ لم يعرفها من قبل.

- لم يَعُد المال يُفزع قلبه. صار يعرف أن للفراغ جسداً رحيماً إن لم يملأه إلا بما يليق بالروح: سلامٌ خفيفٌ لا تشتريه البورصات.

- راح يراجع دفاتره، وكأنه يبحث فيها عن عظمٍ سليمٍ في جسدٍ محطم. كل صفحةٍ كانت تعيد عليه اللازمة ذاتها: انتهى كل شيء.

صفحاتٌ مخطوطةٌ بخطٍ مستقيمٍ كأنه سُلّمٌ تآكلت درجاته. أرقامٌ مرقومةٌ بعنايةٍ لم تعد تحميه من الخوف، توقيعاتٌ قديمةٌ صار لون حبرها باهتاً مثل وعدٍ نسيه أصحابه. كانت يده ترتعش فوق الورق، كأنه يربّت على جسدٍ ميتٍ كي يوقظه عبثاً. حاول أن يلتقط خيطاً واحداً يمكن أن يربطه بيومٍ قادم، فلم يجد. كل خيوطه تقطّعت في غفلةٍ منه، حين كان يظن أن ظهره مُحصَّنٌ بالأصفار الكثيرة.

أغلق الدفتر الأخير، أسنده إلى صدره لحظةً كأنه يستدفئ به، ثم ألقاه على طرف الطاولة. سمع صوت سقوطه كأن سقوط دفترٍ واحدٍ يحمل معه ما تبقى من هيبةٍ كان يغلّف بها خواءه.

نظر حوله: الغرفة واسعةٌ لكنها خاليةٌ من روحٍ تسند الجدران. مكتبٌ ثقيلٌ من خشبٍ داكنٍ، خزانةٌ مُحكمةٌ لا يعرف أحدٌ كلمة سرّها سواه، مقعدٌ جلديٌّ من فرط جلوسه عليه صار يحتفظ بانحناءة جسده. في الزاوية نافذةٌ تطلّ على المدينة، لكنه لم يكن يراها. كان الزجاج في نظره ستاراً يحجب عنه العتمة التي هربت إليه من الداخل.

فتح خزانته. أخرج منها ظرفاً بنيّاً سمّاه سرّه الكبير. أوراقٌ موثّقةٌ بختمٍ ذهبيٍّ يلمع تحت ضوء المكتب الخافت. حين قلب الأوراق بين يديه، شعر أنها أخفّ من قلبه الذي صار يئنّ تحت حملٍ لا تُخفّف عنه الأختام ولا التوقيعات. تذكّر يوماً حمل فيه ذات الأوراق إلى مكتبٍ باردٍ في مدينةٍ أخرى، تذكّر كيف خرج منها مرفوع الرأس، ظانّاً أن ختماً صغيراً كفيلٌ أن يسوّر مستقبله بأسلاكٍ شائكةٍ تمنع عنه الفقر.

جلس على حافة الكرسي. وضع الأوراق أمامه كأنها مائدةٌ لن يأكل منها. قرأ الأرقام للمرة الألف. لم يتغيّر شيء. الأرقام مثل الأبواب المغلقة: قد تُطرق ألف مرةٍ ولا تفتح إلا حين يشاء صاحب المفتاح. وهمس لنفسه: "يا لي من أحمقٍ ظننت الأرقام مفاتيحاً...".

أغلق الخزانة. عاد إلى النافذة. مدّ جبهته إلى الزجاج البارد. تحت عينيه، المدينة تلمع بالأضواء. أضواءٌ يعرف أنها ليست إلا مكياجاً يخفي شحوب البيوت من الداخل. تذكّر حين سكن أول شقةٍ له في حارةٍ ضيقةٍ منسيّة. كان يشعل مصباحاً صغيراً فوق مكتبه المتهالك، يكتب فيه أرقاماً متواضعةً فوق دفترٍ عاديٍّ اشتراه بالدَّيْن. لم يكن يملك يومها غير حلمٍ يرفرف كجناح حمامةٍ فوق سطحٍ من ترابٍ قديم.

كان وحيداً حينها. وظلّ وحيداً حين صار البرج باسمه، وصار حسابه البنكيّ يفيض بأرقامٍ لا يعرف كيف ينطقها دفعةً واحدة. لم يعرف كيف يُقسم وحدته بين جسدٍ صلبٍ وورقٍ هشّ. كلما زادت الأرقام، انكمش صوته في حلقه. صار صامتاً أكثر، ومتوجساً أكثر، وكأنّ رصيده يطالبه بضريبةٍ لم يكتبها عليه أحد.

جلس على الأرض هذه المرّة. لم يشأ الكرسي أن يحتمله. شعر أن الأرض أكثر عدلاً، وأكثر رفقاً بمن لم يعرف الرّفق إلا في طفولته، بين يدَي أمٍّ كانت تغطيه ببطانيةٍ رقيقةٍ وتهمس له: "لا تخف... كل شيءٍ سيكون بخير".

أين ذهبت تلك الجملة؟ من سرقها من صدره؟ هل سرقها يوم ترك بيت الطين إلى بيت الزجاج؟ هل انتزعها حين وقّع على أول شيكٍ دون رصيدٍ من الأمان؟

أغلق عينيه. تذكّر صورة أبيه. لم تكن صورةً مؤطّرةً فوق الجدار. بل كانت ذاكرةً تهبّ إليه مثل ريحٍ قديمةٍ كلما اشتدّت عزلته. تذكّره بيده الخشنة، وبقميصه الذي تفوح منه رائحة العرق. أبٌ لم يقرأ الأرقام إلا على الميزان القديم الذي يوزن به القمح والشعير، لكنه مات وهو أخفّ من ديون العالم.

عاد إلى دفاتره. قلبها كأنها حكايةٌ من ورقٍ أصفر. قرأ بعض الأسماء، بعضها لم يعد يعرف ملامح أصحابها. تذكّر توقيعاتهم على العقود. تذكّر ضحكاتهم في ليالٍ من صفقاتٍ مربحةٍ، وليالٍ أخرى من كؤوسٍ مليئةٍ بوهمٍ لا يسكر سوى الذين لا يشربونه أصلاً.

خرج من المكتب إلى الممرّ الطويل. لم يكن يسمع سوى صدى خطواته فوق الرخام البارد. فكر في أن صدى الخطى أصدق من كل شيءٍ تركه هنا: أصدق من العقود، ومن الأرباح، ومن الهزائم الصغيرة التي كان يخفيها بربطة عنقٍ داكنةٍ تلمع تحت أضواء المؤتمرات.

فتح باب الشرفة. الهواء باردٌ في صدره. مدّ ذراعيه كأنه يستقبل ريحاً يعرف أنها لن ترفعه. تذكّر بيتهم الطينيّ في القرية. تذكّر الليل حين كان يمتدّ طويلاً بلا كهرباء. تذكّر أمه وهي تشعل فانوساً صغيراً فوق عتبة الباب، تُبعد به شبح الوحدة. لم يكن يعرف يومها أن ظلال الوحدة يمكن أن تُقيم في صدرٍ مملوءٍ بالأموال.

عاد إلى الداخل. جرّ أقدامه فوق الرخام. فتح باب الغرفة الداخلية حيث يحتفظ ببدلاته مرتّبةً مثل جنودٍ واقفين بانتظار أمرٍ لا يأتي. نظر إلى صفّ

القمصان البيضاء. لمعت أزرارها الصغيرة تحت الضوء الخافت كعيني فأرٍ في عتمة حقلٍ قديم.

مدّ يده إلى جيبه. أخرج ساعةً ثمينةً أهداها له شريكٌ قديمٌ منذ خمس سنواتٍ حين بلغ رصيده ذروته. تأمّل عقاربها. تتحرك ببطءٍ ساخرٍ كأنها تقول له: "لا شيء يوقفنا... إلا موتك". أدارها بين أصابعه، ثم وضعها على طرف الطاولة كأنه يحرّر معصمه من ثقلٍ لم ينتبه له من قبل.

اقترب من المرآة المعلقة خلف الباب. نظر إلى وجهه. لامس تجاعيد خفيفةً على طرف عينيه. شعر أن المرآة تخونه، إذ لم تقل له من قبل إن الزمن يُسرِب في وجهه ملامح أبيه. مسح على ذقنه بإصبعٍ مرتعشٍ كأنه يتأكد أن ما يراه ليس شبحاً ولا خدعة.

خرج إلى الحديقة الخلفية للبيت. الليلة صافيةٌ والنجوم معلّقةٌ فوقه مثل ثقوبٍ صغيرةٍ تُسرّب الضوء إلى صدره المعتم. جلس على العشب الرطب. انتبه لأول مرةٍ أن تحت قدميه تراباً حيّاً. نزع حذاءه. دسّ أصابعه فيه. شعر ببردٍ منعشٍ يلسع جلده. تذكّر حقل أبيه الذي كان يركض فيه حافياً، يطارد صيصاناً صغيرةً تهرب من ظله ولا تخافه.

في تلك اللحظة، أحسّ أن الأرقام التي ظلّ يكتبها طوال عمره لا تساوي لمسة ترابٍ تحت أصابعٍ فقدت ملامستها للحياة. سمع همساً خافتاً في صدره: "انتهى كل شيء... بدأ كل شيء".

منذ تلك الليلة، صار يخرج كل صباحٍ قبل أن يصحو عمّاله والخدم. يسقي

شجرةً وحيدةً نبتت في ركنٍ مهملٍ من حديقته. يلمس أوراقها بلطفٍ. أحياناً يحدّثها كأنها تفهم. يخبرها عن دفاتره القديمة، عن الصفقات التي ذهبت، عن أسماءٍ باعته وباعها.

وحين يدخل مكتبه، لم يعد يفتح الدفاتر. صار يضعها في صندوقٍ قديمٍ أعدّه في الخزانة السفلى. يخبئه كأن فيه مرضاً معدياً لم يعد يريد أن يورثه لأحد.

وذات مساء، عاد إلى أوراقه الأخيرة. أمسك بقلمٍ قديمٍ، وكتب جملةً واحدةً في دفترٍ جديدٍ فارغ:

- "ما عاد لي من كل هذا سوى ترابٌ في كفّي."

ثم أغلق الدفتر. نفخ على غلافه كأنه يطرد عنه غبار الأوهام. مدّ يده إلى النافذة. فتحها كلها للريح. ترك الريح تدخل الغرفة وتحرّك أوراقه المكدّسة على الطاولة. لم يخفِها. لم يُرتّبها. تركها تتبعثر في الغرفة، كأنه يحرّر جسداً من ربطاتٍ ربطته عمراً كاملاً بسقفٍ هشّ من أرقامٍ بلا قلب.

في آخر الليل، حين أوى إلى سريره، أغلق عينيه. ولأول مرةٍ منذ أعوامٍ طويلةٍ، حلم بنفسه صبيّاً حافياً يجري في حقل أبيه، يضحك بلا ورقةٍ ولا دفترٍ ولا ختمٍ ذهبيٍّ يثقل جيبه. وحين فتح عينيه، كانت الجملة القديمة التي همستها أمه ذات زمنٍ بعيدٍ تدفأ صدره من جديد:

- "لا تخف... كل شيءٍ سيكون بخير".

خرج من برجه في تلك الليلة للمرة الأخيرة.

وقف أمام المصعد كمن ينتظر حكماً بالمؤبد. لم يكن يحمل حقيبةً ولا ملفاً ولا تلك الأوراق التي ظلّت تُثقِل جيوبه أكثر من العملات ذاتها. حمل فقط جسده الذي صار أثقل من أن يشبه جسداً بشريّاً. في يده المفتوحة، مفتاحٌ ذهبيٌّ صغير، لا يفتح شيئاً سوى وهمٍ كبيرٍ انتهت صلاحيته.

حين انفتح باب المصعد، تردّد خطوةً كأنه يتأكد أن الأرض ستظل تحمله إن وضع قدمه داخل هذا الصندوق المعدنيّ الهابط. شعر بقدميه تبردان، برداً ليس من رخام الممرّ ولا من الفولاذ اللامع، بل بردٌ خرج من صدره وتسرّب إلى أطرافه. دخل المصعد، التفت إلى المرآة الصغيرة في الزاوية. رأى نفسه واقفاً هناك، ربطة عنق مرتخية، ياقة قميصٍ بيضاء تحاصره حول العنق كطوقٍ وديعٍ يخنق بلا دمٍ ولا أثر.

هبط الطابق تلو الآخر ببطءٍ كأن البناية تسخر من استعجاله القديم. البناية التي صعد فيها آلاف المرّات لم يعرفها إلا من الأعلى: أبوابٌ تُفتح على صفقاتٍ تُغلق، اجتماعاتٌ تُحاك فيها خيوط الربح والخسارة، أوراقٌ تُسلَّم فتسلّم معها رقابٌ كثيرة. الآن، هاهو ينزل كأن كل صعودٍ مضى لم يكن سوى خدعةٍ ثقيلةٍ كي يشعر بوطأة النزول الأخير.

انفتح باب المصعد عند البهو الواسع. استقبلته رائحةٌ باردةٌ من جهاز تكييفٍ ظلّ يعمل حتى بعد أن ترك الموظفون مكاتبهم. مرّ بيده على حافة مكتب الاستقبال. لامس بأصابعه أوراقاً لم يقرأها أبداً. نظر إلى حارس الأمن

الواقف عند البوابة. لم يرفعه الأخير بعينيه. لم يعد أحدٌ يعرفه هنا، أو هكذا خُيِّل له.

دفع الباب الزجاجيّ براحته، خرج إلى الشارع المبلّل بمطرٍ خفيفٍ بدأ يسقط منذ ساعةٍ ولم يشعر به أحد. رفع وجهه قليلاً إلى السماء كمن يختبر هذا البلل على جلده للمرة الأولى. بللٌ باردٌ لكنه ناعم، يوقظ في صدره ذاكرةً بعيدةً عن مواسم المطر في قريته حين كان يركض حافياً في زواريب ترابيةٍ تنقع الطين بين أصابعه.

مشى خطواتٍ مترددةٍ على الرصيف. لا سيارات تنتظره هذه الليلة. السائق الذي اعتاد أن يفتح له الباب وينتظر أمره بالانطلاق لم يأتِ. تأخّر عمداً أم سقط من ذاكرته؟ لا فرق. شعر أن الطريق أمامه أطول مما يظن. أطول بكثيرٍ من المسافة التي تفصله عن بيته الكبير الذي لم يكن بيتاً يوماً. أطول من أرصدته التي نامت مجمّدةً في حساباتٍ لم يلمسها أحد سواه.

وقف تحت مصباحٍ خافتٍ في زاوية الشارع. راقب انعكاس ظله فوق الإسفلت المبلّل. ظلٌّ نحيلٌ متعبٌ كأنه ينزلق من تحته إلى بركٍ صغيرةٍ تتجمّع حول قدميه. تذكّر كيف كان يخاف الظلال وهو طفلٌ. كان أبوه يحذّره من السير وحده بعد المغيب. قال له ذات شتاءٍ: "إذا خانك من تستند إليه... لا يرحمك السقوط". الآن فهم تلك الجملة كأنها كُتِبَت لأجله وحده.

أدار جسده ناحية المقهى الوحيد الذي ظلّت أنواره مضاءةً عند ناصية الشارع. دفع الباب الخشبيّ الصغير. استقبله دفءٌ خفيفٌ ممزوجٌ برائحة قهوةٍ

محروقةٍ قليلاً وكراسي خشبيةٍ تصدر صريراً عتيقاً تحت أجسادٍ مرهقةٍ مثله. اختار طاولةً في الركن القصيّ، جلس قبالتها كأنها كرسيّ اعترافٍ متأخرٍ لا يسمع فيه أحد سوى نفسه.

طلب قهوةً بلا سكر. غرق في بخار الفنجان الذي صعد بطيئاً كدخانٍ خجولٍ فوق وجهه. تذكّر قهوته الأولى التي شربها عند أول صفقةٍ كبيرةٍ ختمها بختم ذهبيٍّ وابتسامةٍ من مدير بنكٍ وعده أن المال لا ينتهي أبداً لمن يفتح أبوابه مبكراً. أغمض عينيه. ارتشف رشفةً صغيرة. لم يذق القهوة. ذاق طعم الخسارة المرّة المستترة تحت لسانه.

رفع رأسه، تطلّع إلى الزبائن القلائل في المقهى. رجلٌ مسنٌّ يغفو نصف غفوةٍ على جريدةٍ رطبةٍ من حوافها، صبيٌّ ينقر شاشة هاتفه كأنه يطرق باباً لا يُفتح، نادلٌ شابٌ ينظّف طاولةً فارغةً بفتورٍ غائبٍ عن كل شيء. شعر أن هؤلاء الغرباء يشاركونه هزيمته من غير أن يدروا. في هدوئهم وجد مرآةً لما آل إليه: رجلٌ لم يعد يملك سوى أن يتذكّر.

حين أنهى قهوته، مدّ يده إلى جيبه يبحث عن ورقة نقدية. وجد أن محفظته لم تحضر معه. ضحك بمرارةٍ خافتة. وضع المفتاح الذهبيّ فوق الطاولة، أشار للنادل:

- "خذ هذا عربوناً لصاحب المقهى... سأعود غداً".

لم يسأله النادل شيئاً. اكتفى بهزّ كتفيه كأنه اعتاد على رهائن من هذا النوع. خرج من المقهى بلا التفاتةٍ للخلف، كأنه يخشى أن يرى المفتاح على الطاولة فيدرك أن ما تبقّى من قلاعه لم يعد يفتح قفلاً ولا يغلق باباً.

تابع سيره على الرصيف المبتلّ. كانت الشوارع تزداد فراغاً كلما تقدّم الليل. مرّ قرب حائطٍ إسمنتيٍّ طويلٍ كتبت عليه يدٌ مجهولة: "الحياة تبدأ حين تخسر كل شيء". توقف. قرأ العبارة مرّةً ثم ثانيةً. مرّر يده على الحروف كأنه يلمس جرحاً يشبهه. تراجع خطوةً للخلف. ابتسم ابتسامةً خافتةً لم يرها أحد.

لم يشعر كيف وصل إلى الحديقة العامّة الصغيرة. الحديقة التي لم يدخلها منذ سنواتٍ صار فيها العشب ديكوراً يُرى من نوافذ سيارته الفارهة. جلس على مقعدٍ خشبيٍّ باردٍ تحت شجرةٍ عاريةٍ من الأوراق. شعر بقطرات المطر تتسرّب من الأغصان إلى كتفيه. لم يرفع رأسه. تركها تنزلق فوق رقبته، تُذكّره أن جسده لم يعد محصّناً ضد البلل.

في المقعد المقابل، كان مشردٌ عجوزٌ يلفّ نفسه ببطانيةٍ رماديةٍ رثّةٍ وينظر إليه بعينين زجاجيّتين. تلاقت نظراتهما للحظة. لم يقُل العجوز شيئاً، ولم يقُل هو شيئاً. تبادلا صمتاً خافتاً لم يحتمل أكثر من بضع ثوانٍ. شعر أن تلك الثواني قالت كل شيء: قالها العجوز بعينيه "أهلاً بك في ضفة الذين ليس لهم ما يُخشى ضياعه".

نهض من المقعد. خلع سترته الأنيقة ببطء. تقدّم نحو العجوز. أسقطها عليه بلا كلمة. التقط العجوز السترة بأصابع ناحلةٍ، رفعها إلى صدره كأنه يختبر دفئها، ثم خفض رأسه بعرفانٍ لم ينطِق به لسانه.

عاد أدراجه إلى الرصيف. كانت المدينة خلفه تغلق نوافذها واحداً تلو

الآخر. فكّر أن هذه الليلة آخر مرةٍ يخاف فيها أن يغلق عليه بابٌ لا يملك مفتاحه. لم يعد يحتاج مفاتيح أصلاً. من لا يملك شيئاً لا يُغلق عليه شيء.

مشى طويلاً حتى تذكّر بيته البعيد. أو بيتاً كان يسمّيه بيته. هناك، خلف جدارٍ عالٍ، تقف غرفٌ واسعةٌ باردةٌ لا يعرف صدى صوته فيها إلا حين ينادي كلبه الوحيد. تذكّر "صديقي" ـ هكذا كان يسمّيه كلبه ـ الذي ظلّ في البيت ينتظره ليربت على رأسه كلما عاد مُثقلاً بسواد الشاشة وأرقامها. أسرع خطاه كأنه يهرب من حقلٍ مزروعٍ بالخسائر.

حين وصل إلى بيته، فتح الباب دون مفتاحٍ. كان الباب مواربا. "صديقي " انتظره عند العتبة، يهزّ ذيله بفرحٍ بريءٍ لم يعرف طعم الإفلاس ولا عناوين البنوك. جثا أمامه. غمره بذراعيه كأنه يعانق آخر حيٍّ تبقّى له في هذا العالم. همس في أذنه بكلماتٍ لم يفهمها الكلب لكنها ردّت عليه بولاءٍ مطلقٍ لم يعرفه من أحدٍ من قبل.

جلس إلى الأرض قرب المدفأة الخاوية. أخرج دفاتره القديمة. مزّق الصفحة الأولى، ثم الثانية. ألقى بها في المدفأة. راح يراقب رمادها يتكوّم ببطءٍ فوق جمرٍ تخيّله مشتعلاً وإن كان مطفأً منذ زمن. شعر أنه أخيراً بدأ يحرق سجنه بنفسه، ورقةً بورقة، خسارةً بخسارة، كأنه يخلع جلده من رقمٍ تلو آخر.

في الخارج، كان المطر يشتدّ. وفي صدره، كان المطر يغسل شيئاً لم يعرف اسمه بعد. شيئاً هشّاً نما في الظلال، بين رخام البرج وورق العقود وكؤوس القهوة الباردة. شيئاً اسمه هو، عارٍ من كل الأرقام.

↢ هبط وحده. لا أوراق يحملها ولا ملفات. لا صوت سكرتيرته يهمس له بالموعد القادم، لا مساعد يفتح له الباب بابتسامةٍ نصف مجاملةٍ ونصف ارتباك. هذه المرة، فتح الباب بيده. لمس مقبضه المعدني البارد كأنه يلمس باب تابوتٍ يخصّه وحده. دفعه برفقٍ لا يشبه كل عنفه السابق حين كان يغلق الأبواب في وجوهٍ كثيرةٍ بضحكةٍ متعاليةٍ من خلف مكتبه.

حين انغلق الباب خلفه، سمع صوت ارتطامه كأنه صدى سقوطه الداخلي. لم يكن ارتطام خشبٍ بمعدنٍ بل سقوطاً خفياً لأعمدةٍ شيدها داخل صدره من وهمٍ وإغواءٍ بالأرقام. صار الصوت يتردّد في أذنه حتى بعد أن ابتعد عن البناية. كأنه يتبع خطاه في الشارع الفارغ.

خرج إلى الشارع الذي بدا له أكبر من المعتاد، وأبرد من المعتاد، أكثر قسوةً من المعتاد. لم يكن الشارع غريباً عليه من قبل، لكنه الآن بدا كشارعٍ آخر. المباني التي حفظ مداخلها ونوافذها الزجاجية اللامعة بدت له هذه الليلة مقابر شاهقة، مضاءةٍ بمصابيح تفضح الحجارة ولا تدفئها.

أحسّ بكتفيه عاريين من أي درع. المظلة التي ظلّت تحميه من المطر لم تكن سوى كلمات مكتوبةٍ على أوراقٍ خضراءَ لم يعد لها مكانٌ سوى سلال الأرشيف. فكّر أن المطر لو هطل الآن، سينزل عليه كالغفران أو كالعقاب، لا فرق.

تلفّت حوله كأنه ينتظر أن يتعرف إليه أحد. لم يلتفت إليه عابرٌ ولا سيارةٌ مارة. الناس في سياراتهم أسرع من أن يلحظوا رجلاً فقد ظله. غاصت يداه

في جيبيه الفارغين إلا من ورقةٍ قديمةٍ فيها رقم هاتفٍ صار منسياً، ومفتاحٍ لم يعد يفتح شيئاً له فيه حق.

تابع سيره بخطى ثقيلة. كل خطوةٍ تعيد إليه جزءاً من صوته المفقود. صوته الذي كان يختبئ وراء عباراتٍ رسميةٍ في اجتماعات مغلقة، ووراء توقيعاتٍ أنيقةٍ تشرّع الأرباح وتُغلِق الأبواب على الهزائم الصغيرة. لم يكن يعرف أن الهزائم تأكل جسدها بصمتٍ داخل دفترٍ أنيق.

في آخر الشارع لمّح مقهى قديماً لم يكن يدخل إليه أبداً. كان يمرّ بجانبه ويشيح بوجهه عنه، كأنه يخاف أن يراه أحدٌ جالساً بين كراسيه الخشبية المهترئة. تلك الكراسي التي لا تعرف أرباحاً ولا أسهماً ولا تصفيقاً في المؤتمرات. تلك الكراسي التي تتسع لظهورٍ أنهكها العمل اليدوي وقلّة النوم.

دفع الباب الخشبي بكتفه هذه المرة. لم ينتظر أن يُفتح له بيدٍ أخرى. في الداخل، لفح وجهه دفءٌ غريبٌ. ليس دفء المدافئ الكهربائية ولا بخار القهوة. بل دفء عيونٍ بسيطةٍ اعتادت أن تنظر إلى بعضها بصمتٍ صادقٍ لا تسعفه الحروف.

اختار ركناً قصيّاً عند النافذة. جلس. لم يسأله أحدٌ عمّن يكون أو من أين جاء. لم يلتفت إليه أحدٌ ليهمس في أذنه شيئاً عن صفقةٍ تنتظره. شعر أن جلوسه هنا هو الصفقة الوحيدة التي يعقدها مع جسده ليعترف أنه لم يكن يوماً حرّاً كما ظنّ.

طلب قهوةً سوداء، دون سكر. تذكّر كيف كان يضيف سكراً كثيراً في مكاتبه

المغلقة ليُخفي مرارة الأرباح التي يعرف أنها ليست له وحده. الآن يريد أن يتذوّق المرّ كما هو. دون رتوش. دون ابتساماتٍ زائفةٍ من حوله.

أخرج سيجارةً نسيها في جيب سترته. أشعلها. راقب الدخان يتصاعد في خطٍ مائلٍ نحو سقفٍ متشقق. تشققات السقف ذكّرته بتشققاتٍ في صدره حاول أن يطمسها بالأوراق والصفقات وحفلات الاستقبال. لكن لا أحد يستطيع أن يسدّ الشقوق حين تنفتح من الداخل.

عبر زجاج النافذة رأى الشارع ممتدّاً أمامه كأنه طريقٌ بلا عودة. هناك، خلف هذا الزجاج، كانت حياته قبل قليلٍ فقط: حوائط عالية، ومصاعد صامتة، وسكرتاريةٌ تُتقن الإيماء أكثر من الكلام. تذكّرهم واحداً واحداً. أصواتهم حين يمدحونه في العلن ويشكونه في السرّ. ضحكته المعلّقة التي كان يرميها فوق رؤوسهم كجائزةٍ صغيرةٍ على صمتهم.

لم يشعر كم مضى من الوقت وهو يحدّق في الشارع. لم يرفع عينيه إلا على صوت النادل يضع الفنجان أمامه. شكرَه بصوتٍ خافتٍ لم يسمعه هو نفسه من قبل. شرب رشفةً، شعر بها تنزل دافئةً في جوفٍ برده الوهم لسنواتٍ طويلةٍ. فكّر أن هذه الرشفة أكثر صدقاً من كل كؤوس الاحتفال التي رُفِعَت باسمه يوماً.

حين نهض من مكانه، دفع ثمن القهوة بقطعةٍ نقديةٍ صغيرةٍ بقيت له في محفظةٍ صارت فارغةً إلا من بطاقة هويةٍ تتآكل حروف اسمه على حوافها. خرج إلى الشارع من جديد. هذه المرة لم يعد الشارع عدوّه. شعر أنه يشبهه: ممتدّ، وبارد، وغامض، وفي قلبه فجواتٌ يمكن أن تبتلعه أو تحميه.

سار بمحاذاة الرصيف. توقف عند حافة نهرٍ صغيرٍ يعبر المدينة من تحت جسرٍ حديديٍّ صاخبٍ في النهار صامتٍ في الليل. انحنى فوق الماء. رأى صورته ترتجف فوق السطح الأسود. لم يعرف وجهه للحظة. كأنه يرى رجلاً آخر. رجلاً لم يكنه من قبل.

تذكّر أباه الذي مات قبل أن يراه يرتدي ربطة عنق. أبٌ كان يربط وسطه بقطعة قماشٍ قديمةٍ ليكفّ عنها الريح حين يحرث الأرض. لم يعرف أبوه الأرقام التي مزّقته من الداخل. لم يعرف معنى كلمة "استثمار". كان استثماره الوحيد حفنة قمحٍ تُنبت لأهله خبزاً لا يبيت قديماً في أدراجٍ مغلقة.

جلس عند حافة الجسر. خلع حذاءه الجلديّ الذي ظنّ أنه يحميه من عراء الطريق. دسّ قدميه في عشبٍ مبتلٍ. شعر ببرودةٍ ناعمةٍ تصعد من أصابع قدميه إلى صدره. لم يرتعد. ابتسم. تذكّر أن طفولته كانت تبدأ من هنا: حافية،و باردة، لكنها حيّة.

مرّت سيارةٌ شرطةٍ ببطء. رمقه الشرطيّ بنظرةٍ خاطفةٍ ثم تركه. لم يكن مجرماً ولا مشرداً. لم يكن شيئاً يستحق السؤال. كان رجلاً وحيداً يضع قدميه في العشب كأنه يستعير الدفء من الأرض.

أحسّ بقطرات مطرٍ خفيفةٍ تبدأ بالهطول. رفع رأسه للسماء. لم يختبئ. لم يبحث عن مظلةٍ ولا سقفٍ زجاجيٍّ يحميه من الماء. ترك المطر ينزلق على خديه. شعر به يغسل شيئاً عالقاً قرب قلبه. شيئاً لم يعرف اسمه. شيئاً يشبه ندماً مالحاً أو توبةً بلا كاهن.

تذكّر صوت أمه وهي تدعو له قبل سفره البعيد: "اللّه يردّك سالم". كان يظن أنه عاد سالماً كل مرةٍ، وهو يعود محملاً بأرباحٍ جديدةٍ وحقائب ممتلئةٍ بالعطور وربطات العنق. الآن فقط فهم أن العودة السليمة لا تُقاس بجيوبٍ مملوءة، بل بيدين فارغتين إلا من قلبٍ ما زال يذكر كيف يخفق.

نهض من عند حافة الجسر. خطا خطواتٍ واسعةٍ نحو حيٍّ قديمٍ نسيه منذ صار اسمه يلمع في الصحف. دخل زقاقاً ضيقاً رطباً تفوح منه رائحة الخبز والخضروات الطازجة. فتح كفّه الفارغة أمام بائع خضارٍ يعرفه ولم يعرفه. ابتسم له البائع دون أن يسأله عن اسمه. ناوله تفاحةً خضراء، لوّح له كأنه يبارك غربته الجديدة.

أكل التفاحة واقفاً عند حافة الرصيف. تذكّر كيف كان يُلقي بقايا الطعام قديماً في سلالٍ فضيةٍ لم تلامسها يدٌ جائعة. الآن عرف طعم القشرة. عرف أن الثمرة لا تُقاس بحجمها بل بجوع القلب إليها.

في آخر الليل، عاد إلى بيته الذي صار غرفةً واحدةً في حيٍّ لا يطلّ على الأبراج. لم ينتظر خادماً يفتح له الباب. لم ينتظر كلباً ينبح مرحباً. وضع التفاحة المتبقية قرب النافذة. جلس أرضاً. أسند ظهره إلى الحائط البارد. ابتسم لصدى المطر وهو يطرق الزجاج. تذكّر نفسه كما لم يتذكّرها منذ سنواتٍ طويلةٍ غرق فيها في أرقامٍ لم تكن له أبداً.

وحين أغلق عينيه، تذكّر جملةً قديمةً قالها أبوه ذات شتاءٍ: "من نزل إلى الأرض بوجهه... لن يسقط أبداً.". ابتسم وهو يشعر أن سقوطه هذه الليلة لم

يكن سقوطاً من علوٍّ، بل هبوطاً في أحضان التراب الذي ظلّ يناديه وهو يختبئ في برجٍ زجاجيٍّ لا يعرف معنى الدفء.

- في البيت، صار القصر فقاعةً خاوية.

- الأبواب مفتوحةٌ على العدم، والجدران تحرس صمتاً ثقيلاً لا يشبه صمت الليل في الخارج. الثريات المعلقة على الأسقف العالية تلمع بلا ضوءٍ حقيقي، تلمع كأنها أسنانٌ زجاجيةٌ لحيوانٍ انقرض في غرفةٍ لا تشبه إلا قبراً فاخراً. جلس فيصل تحتها وأغمض عينيه. تخيل نفسه يقف تحت مطرٍ لا يتوقف، مطرٍ لا يبلل كتفيه بل يطفئ فيه شيئاً لم يعرف له اسماً، شيئاً ظلّ يحترق خافتاً طيلة سنوات الأرباح السريعة والمكاتب المغلقة والوجوه العابرة التي تصنع له أقفاله الذهبية.

استند بظهره إلى الجدار. أحسّ ببرودة الحجر تنزّ من قميصه الأبيض. فكّر أنه لم يلمس هذا الجدار منذ سنوات. كان يظنه زينةً فقط، خلفيةً لصوره التي تُعلق على المجلات وصفحات الجرائد الاقتصادية. الآن عرف أن الحجر يعرف أكثر منه. الحجر يرى من يجيء ومن يذهب، ولا يخدع نفسه بوعود الربح.

رفع عينيه إلى الثريا. تذكّر أنه اشتراها من بلدٍ بعيدٍ، حين قاده وهم الرفاهية إلى مزادٍ مغلقٍ حضره رجالٌ لم يرَ في وجوههم إلا انعكاسه. دُفع ثمن الثريا في ساعةٍ واحدةٍ. بينما كانت أمه - في قريته البعيدة - تحصي نقودها على أطراف أصابعها قبل أن تشتري كيس قمحٍ يكفيهم أسبوعاً.

قام من جلسته ببطءٍ، كأن ساقيه تعارضان أوامر قلبه. سار في الممرّ الطويل، يجرّ كفه على الجدار كأنه يتحسّس خرائط خفيةً لنفسه لم يقرأها من قبل. عند باب غرفة نومه الكبيرة توقّف. كانت الغرفة مرتبةً بدقةٍ مخيفة: سريرٌ واسعٌ مفروشٌ بغطاءٍ أبيض مشدودٍ ككفن، وسجادةٌ حريريةٌ لا تطأها قدم، وصورةٌ مؤطرةٌ له وهو يبتسم في مؤتمرٍ قديمٍ بدا له الآن صورةً لرجلٍ ميتٍ بابتسامةٍ محفوظةٍ للأبد.

جلس على حافة السرير. تذكّر كيف كان يعود منهكاً، يخلع ساعته ويضع هاتفه جانباً، ثم يستلقي بملابسه أحياناً لأن النوم كان يداهمه قبل أن يعرف متى نام. كان يظن أن النعاس يكفي كي يهزم صوته الداخلي الذي يصرخ فيه كل ليلة: "إلى أين تأخذك كل هذه الأرقام؟".

مدّ يده إلى درجٍ صغيرٍ عند رأس السرير. أخرج دفتراً جلدياً قديماً. لم يكن فيه أرقام ولا خطط ولا توقيعات. كان فيه رسائل قصيرة كتبها لنفسه في بداياته. صفحاتٌ سريعةٌ كأنها نفَسٌ مكتوم: "لا تنسَ من أين أتيت." "لا تنسَ وجه أبيك وهو يزرع بيديه." "لا تدعهم يشترون صمتك". قرأها الآن كمن يقرأ تعاويذ بلغةٍ قديمةٍ نسي كيف يفكّ حروفها.

أغلق الدفتر وأعاد رأسه إلى حافة الوسادة. أغلق عينيه ولم ينوِ النوم. كان يسمع صوت المطر الداخلي في صدره يطرق بابه من الداخل. طرقٌ خافتٌ لكنه عنيد، لا يهدأ ولا يسكت.

تذكّر أمه. تذكّر وجهها الذي لم يره منذ سنواتٍ طويلةٍ إلا عبر شاشة

هاتف. كانت تقول له: "ارجع ولو ليلةً. البيت يسأل عنك." كان يردّ: "القصر هنا بيتي." وهي تصمت، تعرف أن البيت الذي لا يُملأ بأحدٍ ليس بيتاً بل مقبرةٌ بأبوابٍ واسعة.

فتح عينيه على صدى الذاكرة. نهض فجأةً من السرير كمن يهرب من حلمٍ ثقيل. خرج من الغرفة، دخل المطبخ الواسع الذي تفوح فيه رائحة الأكل البارد. فتح الثلاجة. لا شيء فيها سوى زجاجات ماءٍ وصفائح معدنيةٍ لم يلمسها منذ مدة. تذكّر موائد بيته القديم: رائحة الخبز الساخن، وأصوات الملاعق البسيطة فوق الأطباق المعدنية، وضحكة إخوته الذين تفرّقوا في بلادٍ لا تشبه الأرض الأولى.

أخذ زجاجة ماء، فتحها وشرب منها جرعةً طويلةً كمن يشرب من نبعٍ لا يعرف متى يجفّ. شعر أن الماء الذي كان يمرّ عبر حلقه لا يروي عطشاً حقيقياً بل يغسل أثر شيءٍ ظلّ عالقاً فيه طيلة سنين: أثر كلمةٍ لم يقلها، اعتذارٍ لم يقدّمه، يدٍ لم يمدّها لأحدٍ حين كان يملك الكثير.

سمع في داخله صوتاً قديماً، صوت أبيه حين كان يكلّمه تحت شجرة التين خلف البيت الطينيّ: "لا تكن شجرةً مقطوعة الجذور يا فيصل. الشجرة المقطوعة لا تظلّ واقفةً مهما سقيتها ذهباً"؟ تذكّر كيف ضحك حينها وقال في سره: "أي شجرةٍ يا أبي؟ نحن الآن نصنع ظلالنا من الأسمنت والزجاج.". ضحكته تلك ماتت الآن على حافة لسانه.

أدار رأسه نحو النافذة الكبيرة. المطر الحقيقي بدأ يطرق الزجاج.

مطرٌ خفيفٌ لكنّه عنيد. مدّ كفّه اليمنى ولمس الزجاج البارد. شعر أن جسده من الجهة الأخرى من النافذة. أنه صار هناك، في العراء، بلا حائطٍ يحميه ولا سقفٍ يجمّله. شعر أنّه لو فتح النافذة وخرج، لن يجد شيئاً يسقط منه. السقوط انتهى منذ لحظةٍ اكتشف فيها أن القصر الذي بناه لم يكن إلا قفصاً أكبر من كل أقفاص الآخرين.

وقف فيصل فجأةً. اتّجه نحو غرفة المكتب. فتح الخزانة الصغيرة خلف المكتب الفاخر. أخرج منها أوراقاً ممهورةً بأختامه. عقود شراء. عقود بيع. اتفاقياتٌ مع شركاتٍ لم يعد لها وجود. فتحها واحدةً واحدةً وراح يقرأ الأسماء والتواريخ كمن يقرأ شواهد قبورٍ لعائلةٍ من الأوهام.

جلس القرفصاء على الأرض. أشعل المدفأة الصغيرة القديمة. أخذ يقرب الورق من اللهب. رأى الأوراق تأكلها النار بصبرٍ بطيءٍ، يلتهم سطور الأرقام والأختام ويمحو التواقيع التي ظنّ أنها ستحميه من العراء. راقب الرماد يتكوّم أمامه، دقيقاً رمادياً خفيفاً كأنه غبار عظامٍ بشريةٍ تعود إلى التراب.

في تلك اللحظة، شعر فيصل أن شيئاً ما في صدره انكسر بصمتٍ ناعمٍ يشبه انكسار الغصن الجافّ تحت قدمٍ عابرة. لم يخف من الانكسار. خاف أن لا ينكسر أبداً. لأن ما لا ينكسر لا يُعاد جمعه ولا يُرمم ولا يُولد من جديد.

ترك النار تأكل كل ورقةٍ حتى الأخيرة. لم يبق في خزانته سوى مفتاحٍ صغيرٍ ذهبيٍّ كان يعلّقه في سلسلةٍ حول عنقه كتميمةٍ ضد الفقد. أزاله من عنقه ووضعه قرب المدفأة. شعر أنه صار حرّاً من تميمته للمرة الأولى.

نهض من مكانه. سار نحو الباب الكبير. فتحه. استقبلته رائحة المطر الحقيقيّ، المطر الذي يغسل الأرصفة والحدائق والأشجار التي ظلّت تنتظره يعود إليها دون ربطة عنق. خرج فيصل إلى الباحة الأمامية، رفع وجهه إلى السماء. ترك قطرات الماء تنزلق على وجنتيه دون أن يمسحها.

تذكّر أمه من جديد. تخيّلها تفتح له الباب في البيت الطينيّ. لم يكن يحمل لها هذه المرة هديةً ثمينةً ولا عطراً مستورداً. كان يحمل لها جسده فقط، وجسد رجلٍ يعرف أنه بلا شيء إلا اسمه الذي لم يكتبه أحدٌ له إلا هي.

تقدّم خطواتٍ إلى منتصف الحديقة. خلع سترته، ألقاها على العشب. خلع حذاءه، داس التراب المبتلّ بقدميه. شعر أن قدميه صارتا جزءاً من الأرض. همس لنفسه: "من هنا أبدأ. من هنا أعود." ولم يكن يقصد القصر. لم يكن يقصد البيت الفاخر. بل كان يقصد تلك الجذور القديمة التي تركها هناك خلف حقل القمح، تحت شجرة التين.

ظل واقفاً تحت المطر حتى شعر أن الماء غمره كله. لم يهرب إلى الداخل. لم يغلق الباب. لم يحمل مفتاحه. ترك القصر مفتوحاً على الليل والمطر والريح. تركه يبرد كما برد قلبه طيلة تلك السنوات. ثم مشى إلى البوابة. عبرها دون أن ينظر خلفه. كان يعرف أن الخلف صار الآن جزءاً من شيءٍ لا يخصّه. أما الأمام، ففيه زرعٌ لم يزرعه بعد.

- يذكر جيداً تلك الليالي الأولى بعد الانهيار.

- نام على أرائك استدان ثمنها من قلبه الذي مات في بورصةٍ لم تعترف

يوماً بخسارته. كان جسده وحده الذي عاد من هناك، محمّلاً بفواتير لم يدفعها سوى بقطعٍ صغيرةٍ من ضلوعه. ضلوعٌ لم ينتبه لها حين كانت تحمي قلبه من صقيع الأرقام.

لم يكن البيت بيتاً وقتها. صار يشبه غرفة انتظارٍ واسعةٍ بلا بابٍ ولا نافذةٍ تُفضي إلى نجاة. أضواء الثريات لم تكن تضيء سوى خوفه من الغد، ورائحة السجاد الفاخر كانت تفوح برطوبةٍ كأنها جثّةٌ لترفٍ مات قبل أن يكمل حكاياته.

في تلك الليالي، استلقى فيصل على الأريكة القريبة من نافذةٍ عريضةٍ تُطل على شوارع لم يعرف كيف تبدو في الفجر. كان يحدّق في الزجاج ولا يرى فيه سوى وجهه يترنّح بين ظلٍ وضوءٍ خافتٍ تسكبه مصابيح الشارع. لم يعرف إن كان الليل طويلاً حقاً أم أن الوقت داخله صار دائرةً مفرغةً لا بداية لها ولا نهاية.

كان يسمع صرير خشب الأريكة كلما تحرّك. صوتٌ ضئيلٌ، لكنّه صار أحياناً الصوت الوحيد الذي يذكّره أن جسده لم يتبخّر بعد. حاول كثيراً أن يستدعي النوم، أن يغري عينيه بذكرياتٍ من زمنٍ كان فيه للنوم طعمٌ لا يشبه طعم الحبوب المرة التي صار يبتلعها قبل أن يطفئ الأنوار.

في اليوم الذي تلا الانهيار، ظلّ يكتب أرقاماً على دفترٍ صغيرٍ وضعه على ركبتيه. أرقامٌ لم يكن يعنيها سوى أن تبقى حيّةً في ذهنه لعلّها تشهد لصاحبها أنه حاول حتى النهاية. لكن الأرقام كانت تنزلق من بين أصابعه كالماء، لا شكل لها ولا وزن سوى تلك الندبة التي تتركها في صدره كلما حاول الإمساك بها.

أطفأ الأنوار مرةً بعد أخرى. كلما أطفأ مصباحاً شعر أن في صدره ضوءاً خافتاً لا يطاوعه. ضوءٌ يذكّره بما لم يفعل، بما فرّط فيه من صلواتٍ قديمةٍ لم يُكملها، من أيدٍ امتدت نحوه حين كان المال يحجب عنه صوت النداء.

في الليلة الثالثة بعد الانهيار، جرّ نفسه من الأريكة إلى الشرفة. فتح الباب بيدٍ كانت ترتعش كأنه يرى في الخارج فماً مفتوحاً يبتلعه. لم يكن الشارع نائماً تماماً، بعض السيارات تمرّ ببطءٍ، بعض المارة يجرّون حقائبهم الصغيرة عائدين إلى بيوتٍ دافئةٍ لم يدخلها القلق بعد.

أسند ذراعيه على سور الشرفة. تذكّر بيتهم القديم في القرية. الشرفة الضيّقة التي كانت أمّه تجلس فيها عند الفجر لتشرب شايها مع رائحة التراب المبلل. هناك كانت النوافذ تفتح على وجه الشمس دون حجابٍ زجاجيٍّ سميك. هنا، لا شيء يمرّ من الزجاج إلا ظلالٌ عابرةٌ لعمرٍ مضى دون أن يترك على جدرانه سوى الغبار.

عاد إلى الداخل. لم يشعل الضوء. جلس على الأرض الباردة، ظهره مستندٌ إلى الأريكة. مدّ يده يتحسّس الخشب كمن يتحسّس تابوتاً يُهيّأ له أن فيه بقاياه. أغلق عينيه. سمع نبضه يطرق صدره كأنه يستأذنه ليخرج ولا يعود.

تذكّر أبيه الذي لم يمتلك يوماً أريكةً فاخرةً ولا غرفةً بأبوابٍ مزدوجةٍ من خشب الزان. كان أبوه ينام على حصيرٍ مهترئٍ قرب موقدٍ من حجارةٍ سوداء. ومع ذلك، كان صوته صافياً كلما نادى عليه باسمه. صوته الذي لم يختلط بضجيج العملات ولا صفقاتٍ تُخفي شوائبها وراء مؤتمراتٍ مكيفة.

في تلك الليلة، مدّ يده نحو طاولةٍ صغيرةٍ بجانب الأريكة. سحب علبة دواءٍ فتحها مراراً وأغلقها مراراً دون أن يبتلع حبةً واحدةً منها. لم يكن يريد أن ينام بفعلِ حبةٍ صغيرةٍ، أراد أن ينام بفعلٍ قديمٍ يشبه الدعاء، يشبه برودة التراب حين يطبطب على جسدٍ متعبٍ بلا شروطٍ ولا أوراق.

أخذ هاتفه. فتحه. لم يجد رسالةً واحدةً ينتظرها. كل الأرقام التي كانت ترنّ عليه مثل جرسٍ مقدّسٍ صمتت فجأةً كأنها دفنت نفسها خوفاً من عدواه. لم يجرؤ على الاتصال بأحد. لم يجرؤ أن يقول بصوته الجافّ: "خسرتُ كل شيء." لأن كل شيءٍ لم يكن مالاً فقط، بل تلك الهيبة الهشّة التي ربّاها من صمت الآخرين وخوفهم من سقوطه.

في الليالي التي تلت، بدأ يتعلّم كيف يمشي في بيته كما لو أنّه غريبٌ فيه. صار ينصت إلى الأصوات الصغيرة: صوت الثلاجة وهي تتنفّس برتابةٍ، صوت الريح وهي تصفع النوافذ العالية، صوت نفسه حين يسعل ليكسر صمته. اكتشف أنه عاش في قصرٍ صامتٍ، ضاجٍّ فقط بخطى الخدم وصدى كؤوس القهوة على الصواني الفضية.

ذات مساءٍ متأخرٍ، فتح خزانة الملابس. مرّر أصابعه على قمصانٍ مرصوصةٍ بألوانٍ باهتةٍ وبدلاتٍ لم يلبسها إلا أمام كاميراتٍ تشتهي أن ترى ثراءه أكثر مما ترى وجهه. سحب بدلةً من طرف كتفها، علّقها أمامه، تأملها طويلاً. تساءل: "كم مقعداً في طائرةٍ خاصةٍ اشتريتُ بهذه البدلة؟ كم يتيماً كان يمكن أن يلبس معطفي هذا الشتاء بدلاً من أن أدفن قماشه في دولابٍ مغلق؟"

لم يجد جواباً. خلع البدلة عن شماعتها وأعادها مكانها. كأنّه يخاف أن يسمع خيطها يتفكك احتجاجاً عليه.

في الصباحات الأولى بعد تلك الليالي، صار فيصل ينهض قبل أن يطلّ ضوء الشمس من الستائر الثقيلة. يترك الأريكة متعبةً مثله، يجرّ جسده نحو المطبخ الذي صار بارداً أكثر من اللازم. يفتح صنبور الماء البارد، يتركه ينسكب في يديه طويلاً. كان الماء يعيد له ملمساً قديماً لليدين حين كان يغسلهما من طين الحقل، لا من حبر العقود ولا من دهون الولائم الفارهة.

وقف أمام المرآة الصغيرة فوق المغسلة. تأمل وجهه. مرّر كفّه على ذقنه التي نمت دون ترتيب. لمح خطوطاً لم يراها من قبل حول عينيه. أدرك أن المال كان مرهماً يغطي تجاعيده كي لا يراها أحد. وحين تبخر، انكشفت التجاعيد كأسرارٍ لا تعرف الكذب.

في ظهيرة يوم بارد، خرج إلى شرفةٍ أخرى تطلّ على حديقةٍ صغيرةٍ بقيت له من أملاكه المترامية التي ذهبت كلها. لم يكن في الحديقة إلا شجرة يابسةٍ رفضت أن تثمر هذا العام. اقترب منها، مرّر كفّه على جذعها. شعر بخشونةٍ حادةٍ تذكّره بخشونة الكلمات التي لم يقلها لأبيه حين مات دون أن يرى نجاحه المزعوم.

همس للشجرة: "ربما سأثمر أنا وأنت معاً حين يسقط عنّا كل هذا الغبار." لم ينتظر أن تجيبه. ترك يده على الجذع طويلاً كأنه يزرع فيها ندماً لن يثمر إلا في قلبه وحده.

في الليالي التالية، صار ينام متّكئاً على الجدار بدل الأريكة. صار الجدار صديقاً أصدق من كل الشركاء. يذكّره بصلابةٍ تحتاج إلى شقوقٍ كي تسمح للريح بالدخول. صار يكتب على الجدار بكفه عباراتٍ لا يجرؤ أن يقولها لأحد: "أنا أخطأت". "أنا خذلتهم". "أنا الآن أتعلم كيف أكون فقيراً بلا خجل".

- كان يصحو مذعوراً من نومٍ لم يكن نوماً بل غرقاً في ركامٍ من الهواجس.

- يتذكّر رنين الهواتف التي صمتت، العقود التي تبعثرت كأوراق شجرةٍ أصابها صقيعٌ مباغت، الشركاء الذين أداروا ظهورهم قبل أن يسلّموا عليه لآخر مرة، والغرف التي باتت تُغلق عليه وحده كقبرٍ فاخرٍ يُزيّنونه كل مساءٍ بصمتٍ أثقل من كل ديكور.

كان إذا فتح عينيه أول الفجر يظنّ أن الليل لم ينتهِ بعد، وأن بياض الستائر ليس سوى قناعٍ آخر للظلام الذي تمدّد داخله حتى صار يعرف كل شقٍّ في قلبه. يقوم من فراشه كمن ينتشل نفسه من حفرةٍ رطبةٍ باردةٍ لم يجد فيها جسده ملاذاً ولا هروباً.

يمشي إلى الحمام. يفتح الصنبور على آخره كأنه يريد أن يغرق ضجيجه في الماء. يغسل وجهه طويلاً، يرى في المرآة رجلاً يشبهه ولا يشبهه. عينان ذابلتان لا تعكسان شيئاً سوى تعبٍ قديمٍ لم يجد له منفساً. أصابعه تتحسّس ذقنه غير المحلوقة، خطوطٌ على الجبين لم تكن هنا قبل الانهيار. يرسمها بسبابته كما لو كان يريد أن يتأكد أن جلده لا يزال يلتصق بعظامه.

يخرج إلى صالةٍ واسعةٍ كانت يوماً مسرحاً للضجيج: أصوات الخدم،

خطوات الحراس، صدى صفقاتٍ تُبرم على حافة فناجين القهوة العربية المستوردة خصيصاً ليُقال إنه لا يشرب سوى الأجود. الآن، كل ذلك تلاشى، وبقي هو وحده يتبع خطواته، يسمع وقع حذائه على الأرض الرخامية كمن يسمع نبضاً ميّتاً لبيتٍ لم يكن بيتاً.

أحياناً يقف أمام باب الخروج. يضع يده على مقبضه. يتساءل: ماذا لو فتحه الآن؟ هل سيتسرّب منه؟ أم أن الباب سيبلعه مثلما بلعته دفاتره المفتوحة على ديونٍ لم يقرأها كاملةً؟ لم يجرؤ على فتح الباب إلا مراتٍ قليلةٍ، يعود بعدها فوراً كمن يكتشف أن الهواء في الخارج أثقل من الجدران.

في إحدى الليالي، عاد إلى غرفته القديمة في الطابق العلوي. الغرفة التي بناها ذات يومٍ لتكون مكتبه الخاص حين يتعب من ضجيج المدينة. لم يدخلها منذ شهورٍ طويلةٍ، كانت أبوابها موصدةً بأقفالٍ لا يعرف مفاتيحها إلا هو. فتح الباب ببطءٍ، دخل بخطواتٍ ثقيلة. رأى الأوراق كما تركها: قصاصاتٌ صفراء، وملفاتٌ موسومةٌ بشعاراتٍ لشركاتٍ ذهبت كرمادٍ في مهبّ ريحٍ لا تُرى.

جلس على الكرسي الجلديّ الذي كان يفخر به أمام ضيوفه. مسح الغبار عن مسنديه. وضع كفيه عليهما كأنه يجلس في كرسيّ اعترافٍ لا يوجد فيه من يسامحه. فتح درجاً قديماً. وجد صوراً صغيرةً له حين كان شاباً. عيناه تلمعان كمن يرى الطريق لأول مرة. أدار الصورة بين أصابعه. شعر أن وجهه فيها غريبٌ عنه. كأنه يرى ابناً فقده ولم يُنجبه أصلاً.

أعاد الصور إلى الدرج. أغلقه ببطءٍ كأنه يدفنها مرّةً أخرى. أدار كرسيه

نحو النافذة الطويلة التي تُطلّ على الحديقة الخلفية. كانت الحديقة خراباً. أشجارٌ ذابلةٌ لم يسقها أحدٌ منذ انكساره. أوراقٌ يابسةٌ متراكمةٌ على العشب، وصوت رياحٍ باردةٍ تحرّك بعض الأغصان كأصابعٍ مشلولةٍ تُلوّح له من بعيد.

لم يقوَ على النزول إلى الحديقة. لم يقوَ أن يلمس تراباً لا يعرفه. صار التراب بالنسبة له لغةً انقطعت عنه طويلاً. منذ ترك القرية البعيدة التي كان فيها يركض حافي القدمين خلف عنزاتٍ شاردةٍ وأبوه يناديه: "ارجع قبل أن يبلعك الوادي". الوادي ابتلعه أخيراً، لكنه لم يكن في القرية، كان في قلب المدينة، على ورقٍ مختومٍ بأختامٍ ذهبيةٍ.

في الليل، يسمع الريح تتسلل من شقوق النوافذ العالية. أصواتٌ لا تخيفه بقدر ما تجعله يتذكّر أنه صار خفيفاً كأوراقٍ مبعثرةٍ فوق سطحٍ بلا سقفٍ يحميه. لا أحد يطرق بابه الآن. لا أحد ينتظر إشارته ليوقّع شيكاً أو يُغلق صفقة. صار يعيش في قصرٍ لا أحد يعرف متى بني ومتى انهدّ من الداخل.

كانت هناك خادمةٌ عجوزٌ ظلّت معه رغم كل شيء. يراها أحياناً في المطبخ تعدّ لنفسها كوب شاي. تخفض عينيها حين تراه، تقول بصوتٍ خافتٍ: "تريد شيئاً يا سيدي؟" يهزّ رأسه بلا كلمة. يدري أنها مثله، تسكن البيت ولا تسكنه. تعرف أسراره لكنها لا تسأله عنها، كما لو أنها تعرف أن الكلمات لم تعد تنفع لإغلاق الجروح.

في إحدى الليالي، نزل إلى القبو الذي كان يخزّن فيه صناديق الوهم: هدايا ثمينةٍ لم يفتحها، لوحاتٍ اشتراها ليُثبت أنه يعرف الفنّ أكثر من غيره.

جلس بين الصناديق، أشعل مصباحاً صغيراً. راح يمرّر أصابعه على الغبار الذي يغطيها. فاحت منه رائحةٌ لم يعرف إن كانت رائحة الماضي أم رائحة جسده حين كان حيّاً وسط كل هذه الفخامة المعلّبة.

مدّ يده إلى صندوقٍ صغيرٍ في الزاوية. فتحه فوجد أوراقاً بُنّيةً ملفوفةً بحبلٍ رفيعٍ. فكّ الرباط. كانت رسائل أمّه. قصاصاتٌ كانت ترسلها له عبر يد عمّه حين كان يسافر. خطٌّ بسيطٌ رقيقٌ كتبت فيه: "لا تأكل وحدك يا فيصل"، "احذر من زينةٍ تأكلك قبل أن تأكل منها"، "تعال لو ليلةً، الأرض تسأل عنك".

قرأ الرسائل كلّها. شعر أن الدموع صارت قريبةً من فمه أكثر من عينيه. مسح عينيه بكمّه القديم. أدار رأسه إلى السقف القاتم للقبو. تخيّل أمّه فوق رأسه تدعو له: "اللّه يردّك سالم". ردّه اللّه سالماً من ماذا؟ من موتٍ صنعه بيديه؟ من ثروةٍ ذهبت وبقيت عظامه تئنّ تحتها؟

صعد من القبو. صعد ببطءٍ كمن يحمل على ظهره صندوقاً من تراب. دخل غرفته. جلس على طرف السرير. لم يشعل الضوء. فتح النافذة على الليل. رأى نجمةً وحيدةً فوق الحديقة المظلمة. همس: "هل كنتُ نجماً أم مجرّد شرارةٍ انطفأت قبل أن تلامس سماءها؟"

أغلق النافذة دون أن يسحب الستارة. نام على جنبه، ظهره للباب المفتوح. نام أخيراً دون حبوبٍ ولا كأس ماءٍ يبلع به حزنه. وحين فتح عينيه بعد ساعاتٍ لم يعرفها، شعر أن الليل أخفّ قليلاً، وأن صدره امتلأ بهواءٍ جديدٍ لا يعرف من أين أتى.

في الصباح التالي، ارتدى معطفاً قديماً. خرج إلى الحديقة. داس العشب اليابس بحذائه الثقيل. انحنى على جذع الشجرة الوحيدة. حرّك التراب حول جذورها بيديه العاريتين. شعر أن يديه صارتا أكثر دفئاً من معطفه. رفع رأسه إلى الفضاء الرماديّ. همس: "هكذا يعود المرء. حفنةُ ترابٍ على جذعٍ ميتٍ ليست موتاً. بل تذكيرٌ بأن الجذر باقٍ مهما ظنّ أنه يبس".

عاد إلى الداخل. نزع معطفه. غسّل يديه بالماء البارد. نظر إلى نفسه في المرآة. ابتسم. لم يعرف إن كانت ابتسامة ندمٍ أم نجاة. لكنه فهم أن الذي خسر كل شيءٍ لم يخسر كل شيءٍ حقّاً ما دام يعرف أين يضع يديه ليحرّك التراب من جديد.

حين ينهض في الصباح، كان يحدّق في مرآته الكبيرة – تلك التي اعتادت أن تعكس صورته مقيماً في علياءٍ ماليةٍ لا يطاوله فيها أحد.

- صار وجهه أكثر نحولاً، عيناه باهتتين كحبرٍ جفّ في قنينةٍ منسيةٍ على رفّ مكتبٍ لم يعُد أحدٌ يفتحه.

- كان يلمس ذقنه غير المحلوقة ويتساءل بصوتٍ خافتٍ كأنه يخشى أن يسمعه أحدٌ من جدرانه الواسعة:

- "ماذا تبقّى منك؟"

لم يكن يجد جواباً في وجهه. وحدها التجاعيدُ تُجيبه، كخطوطٍ على خريطةٍ نسي اسمَ المدن التي رسمتها.

↢ يمدّ الماء على وجهه علّه يستعيد ملامحه القديمة، تلك الملامح التي ظنّ طويلاً أنّها لا تهرم لأنّ المال يشتري لها كريماتٍ تخفي العمر، وابتساماتٍ مُستأجرةٍ تخفي الخوف.

حين يخرج من حمامه، يرى غرفته مترامية كصحراءٍ صقيلة.

↢ يراقب الستائر الثقيلة وهي ترفرف قليلاً أمام نافذةٍ مغلقةٍ بإحكام، كأنّها ستائر مسرحٍ عُرِضت عليه مسرحيته الأخيرة ثم أُسدلَت من دون تصفيقٍ ولا وداع.

يمشي بقدميه الحافيتين على رخامٍ باردٍ يشبه صقيع الورق الذي انهارت عليه توقيعاته ذات صباح.

↢ تصرخ أصوات الصمت في أذنيه:

↢ صمتُ سكرتيرته التي لم تعُد تسبق خطواته إلى المكتب، صمتُ خادمه الذي كان يفتح له الباب قبل أن تصل يدُه إلى المقبض، صمتُ رنين الهواتف الذي كان يرتفع مثل نشيدٍ حربيٍّ في ردهاته.

يجلس إلى المائدة. وحده.

↢ صحنٌ فارغٌ أمامه.

↢ كوبٌ باردٌ من قهوةٍ صارت مرّتها أكثر من حلاوتها.

↢ يضع الملعقةَ بين أصابعه، يقلبها ببطءٍ كما لو أنّه يبحث في قاعها عن رسائل خفيةٍ تهمس له أن الزمن قابلٌ للرجوع.

يتذكّر أياماً كان فيها الإفطار طقساً لا يخصّه وحده:

↢ الأصوات تملأ المائدة، شراكاتٌ تُعقد على الخبز المحمّص، عقودٌ تُوقّع فوق فناجينٍ يسكبها له ضيوفٌ من جنسياتٍ لم يحفظ أسماءهم لكنه كان يحفظ أرقامهم كالأدعية.

↢ الآن، يتأمّل الصحن الفارغ، ويبتسم ابتسامةً صغيرةً، كمن يعترف لنفسه أنّ العزلة لم تطرقه من الخارج بل نبتت فيه منذ البدء.

يقف. يحمل الكوب، يسكب ما بقي فيه من قهوةٍ في المغسلة. يسمعها تنزلق في الحوض مثل دمٍ أسودٍ يسيل من جرحٍ غير مرئيّ.

↢ يمسح يديه بمنشفةٍ معلّقةٍ قرب الفرن، ينظر إلى الفرن المغلق.

↢ يتذكّر كيف أوصى الطاهي القديم أن يملأ ثلاجته بأطباقٍ لا يأكلها كلّها، أطباقٍ كان يتباهى بأن رائحتها وحدها تكفي ليُقنع نفسه أن حياته مليئةٌ بما لذّ وطاب.

الآن، لا طاهي. ولا رائحة.

↢ يمشي إلى غرفة الجلوس. يجلس على الأريكة الواسعة التي صنعتها شركةٌ إيطاليةٌ خصيصاً بمقاساتٍ اختارها ليلائم جسده حين يتمدّد وحيداً.

↢ كان يظنّ يومها أن الوسائد الكثيرة يعصمه من الوقوع في فراغ الوحدة.

⤙ لكن الوحدة لا تحتاج أكثر من فتحةٍ صغيرةٍ لتتدسّ في صدرك كدودةٍ تأكلك من الداخل.

على الطاولة أمامه، رزمةُ أوراقٍ لم يفتحها بعد.

⤙ مكاتباتٌ رسميةٌ من البنوك. رسائلُ إنذارٍ بديونٍ متراكمةٍ لم يكن يوماً يتخيّل أن اسمه سيُكتب في أسفلها بصفة "مُدان".

⤙ يحاول أن يمدّ يده نحو الرزمة، يسحبها، يقلبها، يقرأ عنواناً أو اثنين، ثم يعيدها في مكانها كمن يدفن صندوقاً يحوي عظامه قبل أن يموت.

يُخرج هاتفه من جيبه.

⤙ يتصفّح أسماءً كانت تهتف له كلّ صباحٍ برسائل قصيرة: "مبروك الصفقة". "شكراً على العشاء". "أنت كبيرنا".

⤙ أسماءٌ تحوّلت إلى أرقامٍ صامتةٍ، لا تردّ ولا تسأل: "كيف حالك؟"

⤙ يضع الهاتف جانباً. يقرّب أصابعه من صدره. يتحسّس قلبه الذي صار يضرب بخفوتٍ كطبلةٍ قديمةٍ فقدت جلّدها.

يتذكّر أمّه.

⤙ يتذكّر كيف كانت تضع يدها على صدره وهو طفلٌ محمومٌ، تقول له: "قلبك طيب. لا تخف".

⤙ يتساءل الآن: "أين ذهبت تلك الطيبة؟ هل ضاعت تحت جبل الأوراق؟ أم أنّها هربت منّي حين دفنتُ وجهي في بحر العملات الصاخب؟"

يقوم. يسحب معطفاً داكناً من المشجب قرب الباب.

- يقرر أن يخرج.
- لأوّل مرةٍ منذ أسابيعٍ، يفتح الباب بنفسه، كما فتحه ليلة سقوطه.
- يمشي في الرواق الطويل الذي يؤدي إلى البوابة الحديدية.
- يتذكّر كيف كانت سياراته تصطفّ في الخارج كجنودٍ مدجّجين ينتظرون أوامره.
- اليوم، لا سيارة. لا سائق. لا أحد.

يخرج إلى الشارع.

- الريح تضرب وجهه كصفعةٍ باردةٍ.
- يتلفّت حوله، يرى الناس يمضون بخطىً سريعةٍ نحو أرزاقهم. لا أحد يعرفه. لا أحد يلتفت إليه.
- يبتسم لنفسه: "ما أرحم هذا المجهول. ما أدفأه من عزاء."

يمشي إلى المقهى الصغير عند زاوية الشارع.

- يجلس إلى طاولةٍ قريبةٍ من النافذة.
- يطلب شاياً من النادل الشاب الذي لا يعرف اسمه ولا يعرفه.
- ينتظر الشاي كمن ينتظر وعداً بسيطاً من الحياة: أن تمنحه كوباً دافئاً دون فاتورةٍ مرفقةٍ بتهديد.

من مقعده، يرى المارّة خلف الزجاج.

↢ وجوهٌ ملوّنةٌ تتداخل في انعكاس صورته على البلّور.

↢ يتساءل: "متى كانت آخر مرةٍ جلستُ فيها بين الناس؟ متى كانت آخر مرةٍ دفعت فيها ثمن كوبٍ من جيبي دون بطاقةٍ لامعةٍ يسمّونها بطاقة النخبة؟"

حين يصله الشاي، يضمّ الكوب بين يديه كمن يحتضن جمرةً أخيرةً في شتاءٍ داخليٍّ لا ينتهي.

↢ يرفع رأسه إلى النادل. يشكره بصوتٍ خفيضٍ يندهش منه النادل، إذ لم يسمع منه أحدٌ كلمة شكرٍ منذ زمن.

يمضي ساعةً كاملةً هناك. لا يقرأ صحيفةً، ولا يفتح هاتفه، ولا يكتب ملاحظاتٍ على منديلٍ أبيض.

↢ يجلس فقط. يتنفّس فقط. يراقب فقط.

↢ يكتشف أن المقهى الصغير أكثر دفئاً من قصوره.

↢ وأن الوجوه الغريبة التي لا تعرفه أخفُّ على صدره من وجوهٍ كانت تبتسم له خوفاً لا مودةً.

حين يعود، يجد الباب مفتوحاً كما تركه.

↢ يدخل. يغلقه خلفه بيده.

↢ لا ينادي أحداً.

↢ لا يفتقد أحداً.

↢ يتذكّر بيت الطفولة. كان الباب هناك لا يُغلق إلا مع مغيب الشمس، حين تتسلّل الأفاعي من حقول الذرة.

↢ هنا، الأفاعي كانت تدخل من النوافذ المفتوحة في صورة عقودٍ طويلةٍ، وجلسات عملٍ قصيرةٍ، وضحكاتٍ لا تصل إلى القلب.

يصعد درج البيت ببطء.

↢ يلمس الدرابزين البارد بيده كمن يتأكد أنه لم يفقد قدرته على الصعود وحده.

↢ يصل إلى غرفته.

↢ ينزع معطفه.

↢ يرميه على الكرسيّ.

↢ يقف أمام مرآته الكبيرة من جديد.

↢ يتأمّل وجهه.

↢ يمرّر سبابته على ذقنه غير المحلوقة.

↢ يهمس: "الآن فقط أراك كما أنت. بلا ربطات عنقٍ ولا أصفارٍ متراصةٍ في حساباتٍ ميتة."

يتقدّم نحو النافذة. يفتحها على آخرها.

↢ يدخل الهواء بارداً، طازجاً، قاسياً.

- يمدّ كفّه خارج الإطار الخشبيّ كمن يجسّ نبضَ ما بقي من الحياة.
- يتنفّس بعمق.
- يهمس لنفسه: "ربما لم يفت الأوان."
- ربما...
- حين يلتفت فيصل في آخر الممرّ، لا يجد في البيت كلّه أحداً يجيبه غير ذاك الكلب. ذاك الذي اشتراه ذات يوم من متجرٍ فاخرٍ في زاويةٍ من شارعٍ كان يقصده ليبتاع ما يلمّع به فراغه. كان كلباً صغيراً لا يجيد النباح كثيراً، أسموه له في الفاتورة "صديقي"، وتركوا له حرية أن يغيّر اسمه لاحقاً. لم يفعل. بقي اسمه "صديقي"، كأنه اعترافٌ خافتٌ منه أنّ الصداقة عنده لم تكن يوماً أكثر من حيلةٍ ناعمةٍ تملأ البيوت الواسعة.

الآن، صار الكلب يجلس عند قدميه كظلٍّ لصيقٍ، يشمّ رائحة الخوف التي تفوح من جسد صاحبه، فيزفر زفراتٍ طويلةٍ كأنه يحمّله عنها. كان فيصل يمدّ كفّه إلى رأس الكلب، يربّت عليه بخفّةٍ كمن يربّت على جرحٍ قديمٍ لا يلتئم. وفي كلّ مرةٍ يفعل، يشعر أنّ يده صارت أكثر هشاشةً، أكثر انكساراً، كأنه يعتذر للكلب عن أيامٍ سابقةٍ كان ينساه فيها واقفاً عند الباب، ينتظر لمسةً لم تأتِ.

يمشي فيصل إلى غرفة الجلوس، يتبعه الكلب دون ضوضاء. كأنّه يعرف أن وقع أظفاره على الرخام صار صوتاً ثقيلاً على صدر صاحبه. يجلس فيصل على طرف الأريكة الكبيرة، ينظر إلى الجدار المقابل، لا يرى سوى انعكاسه المشوّه في زجاج مكتبةٍ زجاجيةٍ تحرس كتباً لم تُفتح منذ اشترى البيت. لم يكن

قارئاً. كان يشتري الكتب بعلبها المزخرفة ليملأ الفراغ الذي لم تستطع الأرائك والثريات والستائر وحدها سترة.

يمدّ يده نحو كتابٍ عشوائيٍّ في الرفّ القريب. يسحب الغبار قبل أن يسحب الورق. يفتحه من المنتصف. لا يقرأ، بل يلمس الصفحات بين أصابعه. يمرّرها ببطءٍ كأنه يمرّر كفّه على جبهةٍ مريضةٍ تسكنه هو. يغلق الكتاب ويعيده مكانه دون أن يحفظ اسمه. يتنهّد. يرفع عينيه إلى الكلب الهادئ تحت قدميه. يبتسم له، ابتسامةً غريبةً تشبه رجاءً منسيّاً: "أنت الوحيد الذي بقيت."

حين ينهض، يخطو إلى المطبخ. يفتح الثلّاجة التي طالما امتلأت بأطعمةٍ فاخرةٍ لم يكن يعرف أسماءها كاملة. يجد فيها بقايا جبنٍ مستوردٍ صار رائحته تقترب من رائحة الشكّ. يتركه في مكانه. يسحب زجاجة ماءٍ واحدةٍ، يفتحها على مهلٍ كأنه يخشى أن يوقظ شيئاً نائماً في برودتها. يشرب نصفها دفعةً واحدة. يسمع صوت جرعاته يرتدّ في أرجاء المطبخ كصدى اعترافٍ أوّل بأنّ كل هذا الرخام الأبيض لم يكن درعاً ضدّ عطشٍ لم يسمّه يوماً.

في الليل، يمدّد جسده قرب الكلب. يفرش على البلاط سجادةً صغيرةً بسطها ذات شتاءٍ في غرفة الضيوف لزيارةٍ لم تتمّ. يضع رأسه على طرف الأريكة، يترك قدميه للعتمة، وظهره للبرودة التي تتسرّب من البلاط. الكلب يتمدّد بدوره، يضع رأسه قرب صدره كمن يطمئنّ إلى صوت قلبه الذي لا يزال ينبض رغم كلّ هذا السقوط.

يغمض فيصل عينيه. يعود به رأسه إلى الليالي الأولى حين كان لا يعرف

النوم إلا في أسرّةٍ مشدودةٍ بأغطيةٍ تُغسل يومياً وتُعطّر بما يُوهمه أنّه محصّنٌ ضدّ الكوابيس. الآن صار البلاط أقرب إليه من حرير المفارش. صار يفضّل طراوة زفرات الكلب على أصوات السماسرة التي كانت توقظه من أحلامه لتزجّ به في يقظةٍ لم تكن يقظةً أبداً.

يفتح عينيه على عتمةٍ لم يعتدها. يمدّ كفّه، يربّت على رأس صديقه. يهمس له: "أنت الوحيد الذي لم تسألني كم بقي في الحساب. الوحيد الذي لم يكتبني رقماً في هاتفٍ ثم ينساني حين يتغيّر الرصيد."

تغفو عيناه نصف غفوةٍ يلمح فيها أباه. يرى وجهاً صار غائماً في الذاكرة، لكنّه يتذكّر صوته كما يتذكّر عطر أمّه في الحقل. أبٌ كان يقول له صغيراً: "اجمع من الناس ظلّهم لا مالهم. المال يطيّرك، الظلّ يظلّل قبرك بعد غيابك." يضحك من داخله حين يتذكّر تلك الجملة. كم ضحك منها حين صار يعدّ ظلّه بأصفارٍ لا تنتهي. لم يفهم أنّه كان يزرع ظلالاً من ورقٍ فقط، يذوب أوّل ما تصطدم به شمس الخسارة.

يتحرّك الكلب قليلاً. يرفع رأسه إلى صدر فيصل، يزفر ثانيةً. يغمض فيصل عينيه مرّةً أخرى، يُسلم جسده لثقلٍ حلوٍ، يشبه الدفء الذي فقده منذ دخل أول برجه الزجاجيّ قبل سنواتٍ صارت أبعد من ذاكرته.

» حين يصحو، يسمع صوته في أرجاء البيت قبل أن يسمع زقزقة العصافير من الشباك الخلفيّ الذي بقي مفتوحاً منذ آخر زيارةٍ لشمسٍ لم يعد يراها كثيراً. ينهض ببطءٍ كمن ينهض من تحت ركامٍ من ورق. يخطو نحو

المغسلة. يغسل وجهه. يرى قطرات الماء تنزلق إلى عنقه كأنها تزيل عنه شيئاً من بقايا الليلة الطويلة.

يتقدّم إلى نافذته الكبيرة. يفتحها كلّها. يمدّ بصره إلى شارعٍ صار يعرفه أكثر من معرفة موظّفيه القدامى. يرى الناس يحملون حقائب صغيرةً، يضحكون، يصرخون، يبيعون ويشترون دون أن يعرفوا أن صاحب هذا البيت كان يملك يوماً ما يحلمون به كلّه. يبتسم. لا حسد في قلبه. وحده ندمٌ صغيرٌ يتسرّب مثل قطرة ماءٍ تترك ندبةً على جدارٍ قديم.

يمدّ كفّه خارج النافذة. الريح تلامس جلده كأنّها تربّت عليه. الريح التي طالما سدّ عليها النوافذ كي لا تعبث بستائره الثقيلة. الآن يتركها تعبث بشعره، بملابسه الرثّة، برائحته التي صار يشمّ فيها شيئاً من أبٍ كان يحمل رائحة حقولٍ لم يعرفها جيّداً.

يتحرّك صديقه من جديد. يقف عند باب الغرفة كمن يقول له: "هيّا بنا." يبتسم فيصل. يردّ على الكلب: "إلى أين نذهب اليوم؟" سؤالٌ لا يحتاج جواباً. لا أحد ينتظرهم. لا ورقة تنتظر توقيعه. لا هاتف يرتعد قرب سريره. فقط شارعٌ طويلٌ صار حبلاً يربطه من جديد بترابٍ لم يلمسه طويلاً.

يمشي معه في الرواق. يفتح الباب بيده، يلمح نفسه في زجاجه قبل أن يغادر. يرى فيها وجهاً صار يعرفه أكثر. بلا رتوش، بلا بريقٍ من ذهبٍ مزيّفٍ. يرى فيه الولد الذي كان يضحك وهو يركض خلف كلبٍ آخر كان عندهم في الحقل. كلبٌ مات منذ زمن، وبقي في قلبه علامةً لا يراها غيره.

يخرج. يغلق الباب خلفه. يتركه موارباً قليلاً. كأنه يقول للهواء: "ادخلي. لا مانع هذه المرّة." يسير إلى الشارع. الكلب يتقدّمه بخطوةٍ ثم يعود ليتأكّد أنّ صاحبه لم يتأخّر. فيصل لا يتأخّر. لم يعد هناك ما يستحقّ العجلة.

يمرّ أمام مقهًى صغيرٍ. يختار طاولةً عند الرصيف. يجلس. يطلب كأس شايٍ بسيط. النادل لا يعرفه. هذا يريحه. الناس حوله لا يرونه إلّا رجلاً يلاطف كلباً متقدّماً في السنّ. لا أحد يرى في ظهره أثقالاً من العقود، ولا في قلبه أصفاراً تساقطت مثل أوراق خريفٍ لم يزره أحد.

يتنفّس. يحسّ أن أنفاسه هذه المرّة أخفّ. الكلب تحت قدميه. الناس حوله يضحكون دون أن يقصدوا إليه بكلمةٍ واحدة. هذا الصمت من الغرباء صار ألين من كلماتٍ كانت تُكتب له في رسائل إلكترونيةٍ صاخبةٍ مثل مطارق.

يمرّ شابٌ في طريقه إلى عملٍ لا يعرف عنه فيصل شيئاً. يضحك الشاب بصوتٍ عالٍ في خطف من فيصل ابتسامةً صغيرةً خرجت من صدره قبل أن يأذن لها. يربّت على ظهر الكلب: "انظر. هذه ضحكةٌ نظيفة. لم أسمع مثلها حين كانت القصور تعجّ بالتصفيق."

يمضي وقتٌ طويلٌ في المقهى. لا أوراق. لا هاتف. لا قائمة أسعار تلسعه من الداخل. فقط شايٌ صار يبرد بين أصابعه ببطء. حين يفرغ الكوب، يدفع ثمنه من ورقةٍ صغيرةٍ منسيةٍ في جيبه. يقف. يشكر النادل بصدق. يمضي.

يعود إلى البيت والكلب يمشي خلفه كظلٍّ وفيٍّ لا يُطالَب بكلمة شكرٍ ولا توقيع عقد. يفتح الباب. يدخل. لا يسأل نفسه من سيأتي بعده. لا أحد سيأتي.

يكفيه أنّ صديقه في أثره. يكفيه أنّ في صدره قلباً صار يسمع دقّاته من جديد كطبلةٍ صغيرةٍ لا تحتاج إلى ضجيج المال كي تعزف.

يقف عند نافذته الكبيرة مرّةً أخرى. يمدّ كفّه إلى الهواء. يغمض عينيه. يسمع صدى أمّه تهمس له من حقلٍ بعيد: "ابقَ طيّباً. إن بقيت طيّباً ستجد ظلّك ولو ضاع منك كلّ شيء".

حين يفتح عينيه، يبتسم لصديقه. يقول له: "أنت ظلّي الأخير. و أنت كفايتي."

ثم يربّت عليه طويلاً... ولا يقول شيئاً آخر.

لم يعد فيصل حينها يرى أمواله أموالاً. كانت تبدو له، كلما أغمض عينيه، كحديقةٍ كانت يوماً تسكن أحلامه، ثم ذبلت، ثم سُرقت منها المياه، فقُطِعت أشجارها بيدٍ باردةٍ لا ترتعش. كان يسمع في الليل أصواتاً غريبة – وقع أقدامٍ تقتحمُ ترابَ تلك الحديقة وتمزّق جذور الورد والليمون معاً.

كان يعرف – وإن تظاهر بالنسيان أمام المرآة – أن تلك الحديقة لم يُهملها غيره. كان يسقيها ذات يومٍ بأرقامٍ متدفقةٍ كجدولٍ لا ينقطع. يحصي أرقام الفوائد في صحوه ومنامه. يودعها في دفاترَ سميكةٍ ووجوهٍ تبتسم له بقدر ما تحسب له.

كان إذا جلس إلى موائدهم المزخرفة بالمعلبات المستوردة والشراب البارد يضحك، وتضحك ضحكته فيه قبل أن تضحك خارجَه. اليوم، يسمع تلك

الضحكات نفسها، مجرّدةً من الصخب، وعاريةً إلا من رنينها الأجوف وهي ترتدُّ في تجويف صدره كصدى حجرٍ وقع في بئرٍ جافةٍ بلا دلوٍ ولا حبل.

لم ينهَرْ ذهبُه وحده. هذا ما أدركه، مرةً عند الفجر، حين سمع قلبه ينبض في الظلمة كطبلةٍ مثقوبةٍ تفقدُ وقعها شيئاً فشيئاً. لم ينهَرْ الحساب الجاري فقط، ولا الأسهم وحدها، ولا توقيعاته التي كان يخافها الجميع. الذي انهار هو التمثال. التمثال الذي نحته العمر له. قطعةً قطعةً، لامعةً ومصقولةً بالمديح وحوافّ الأكاذيب.

صار التمثال الآن جثةً من ذهبٍ صَدِئ، لا يلمع إلا إذا أدار رأسه في مراياه الكثيرة. مرايا بيته الكثيرة... من صالةٍ رخاميّةٍ إلى غرفة نوم خرساءَ إلى حمامٍ رخاميٍّ آخر. كل زاويةٍ فيه كانت تحتفظ بقطعةٍ منه، بظلٍّ من ظلاله السابقة.

لم يعد يجرؤ على لمس دفاتره القديمة. تلك السجلات ذات الأوراق الثقيلة، الأرقام السوداء الممتدة كأنهارٍ وهميّةٍ تجري تحت أرضٍ مشقّقة. صار يراها مثل مقابر صامتةٍ لضحكاته، لموائدَ أقيمت وانفضّت وبقيت شحومها عالقةً في أحلامه.

عندما يسقط الرجل، هذا ما علّمته له خسائره، لا يسقط بقدميه فحسب. يسقط بظلّه أيضاً. يسقط بالمسافة بينه وبين الأيدي التي كانت تتسابق إلى مصافحته قبل أن يمدّ يده. يسقط بصوته، وبصورته في عيون الآخرين. يسقط حتى بذكر اسمه في النشرات المالية التي كانت، قبل أشهرٍ فقط، تحتفي به كحجر زاويةٍ لا يهتز.

يتذكّر تلك الطاولة المستديرة. كان يجلس إليها في صالةٍ عالية السقف، تتدلّى منها نجفةٌ كريستاليةٌ تعكسُ خُيلاءه ألف مرةٍ على جدرانٍ مطليةٍ بلونِ العاج. حول الطاولة، رجالٌ بربطات عنقٍ مختلفةٍ ولغةٍ واحدةٍ: لغة الأرقام التي لا تعرف رحمةً ولا ذاكرة.

يتذكّر كيف كانت ضحكاته تطغى على ضحكاتهم. كيف كان يأمرهم بأقل من إيماءةٍ فيتدافعون لجمع الأكواب وتنظيف الطاولة وحمل الخبر إلى الخارج: "فيصل وقّع الصفقة. انتهى الأمر". لم يكن شيءٌ ينتهي. كانت البداية دائماً معلّقةً على خيطٍ مشدودٍ بين بنكين وصبرٍ رقيقٍ مثل زجاجٍ رطبٍ في خريفٍ ماطر.

اليوم صار الصمت رفيقه. صار الليل أصدق جلسائه. في ظلمة بيته، يسمع همساً لا يعرف مصدره. يظنّه الريح حيناً. يظنّه بقايا صدى ضحكاته حيناً آخر. يتذكّر أصدقاءه، أولئك الذين شربوا من كؤوسه وأكلوا من صحنه وضحكوا من نكاته الباهتة، ثم اختفوا كحشراتٍ تفرّ من حديقةٍ احترقت.

في الليل، يضع يده على صدره. يتحسّس دقّاتٍ لا تهدأ، كأنها آخر تذكيرٍ له بأن داخله لم يسقط كلّه بعد. يحاول أن ينادي اسمه بصوتٍ خافتٍ كي يتذكّر من كان. فلا يسمع إلا رجع الأثاث. الكرسيّ الكبير الذي اشتراه بمالٍ كان يظنّه لا ينفد. الطاولة التي تحمل عليه ملفّاته التي صارت الآن بلا جدوى. الستائر الثقيلة التي تخنق الضوء وتذكّره أن الشمس تأتي كل يومٍ ولا تلتفت لحساباته الفارغة.

في النهار، لا يخرج كثيراً. إذا خرج، خرج إلى شارعٍ لم يعد يعرفه. يقف أمام واجهةِ بنكٍ قديمٍ كان يُدخل إليه الأرقام ويخرج منه بنظراتٍ منحنيةٍ وشهاداتٍ معلّقةٍ في صدره. الآن يمرّ به الناس ولا يعرفه أحد. ينظر إلى واجهة الزجاج، يرى انعكاسه: بدلةٌ لم تعد مكيّسةً كما كانت. ربطة عنقٍ مهملةٍ كذكرى. عينان غائرتان تبحثان عن بقايا فيصل الذي كان.

تذكّره الريح في الشارع أن كلّ شيءٍ يزول. تذكّره أرصفةٌ لم يدُسْها من سنواتٍ طويلةٍ وهو ينتعلُ حذاءً عاديّاً بلا بريق. تذكّره وجوه الباعة الذين لا يعرفونه إلا زبوناً عابراً، لا أحد يهمس له باسمِ صفقةٍ جديدة، ولا أحد يشيح بوجهه خشيةً من هيبته التي كانت.

وفي المساء، يعود فيصل إلى بيته الكبير. يخلع حذاءه عند العتبة كما كان يفعل في طفولته حين يعود إلى بيت أبيه الطينيّ. يخلع كلّ ضجيجٍ من ضجيجه القديم، ويجلس. يجلس طويلاً أمام شجرةٍ صغيرةٍ في الحديقة الخلفيّة، نبتةٌ تركها بستانيٌّ راحل، ما زالت تكبر رغم شحّ الماء ورغم أنه نسيها. يرى فيها بقايا حديقته القديمة. يرى فيها وجهه الآخر الذي لم يكتمل.

تلك الليلة، في ركنٍ بعيدٍ من قلبه، همس فيصل لنفسه للمرة الأولى: ربّما كان المال غطاءً هشّاً لجوعٍ لم أسمّه من قبل. ربّما كان الجوعُ أعمق من الأرقام. جوعٌ للمعنى، ولصوتٍ لا يصدأ، ولضوءٍ لا ينطفئ عند أوّل عاصفةٍ.

يومها، استيقظ قبل الفجر. فتح نافذةً ظلّت مغلقةً طيلة أشهر. دخل هواءٌ باردٌ شقّ صدره وأيقظه من نومٍ ثقيلٍ بلا حلم. على الرخام، خطا بقدميه

الحافيتين كمن يمشي على حافة هاويةٍ بلا سياج. فتح دفاتره القديمة. لم يقرأ الأرقام. لم يحسبها. اكتفى أن يمرّر يده على حروف اسمه مطبوعةً في رأس الصفحة. لمعت أصابعه لحظةً كأنها تلتقط خيطاً من ضوءٍ غادرٍ.

ترك الدفتر مفتوحاً على الطاولة. سار نحو الحديقة الصغيرة. اقترب من النبتة الوحيدة التي ظلت حيّة. مدّ يده إلى جذعها الهزيل. لامس التراب بأصابعه. شعر بشيءٍ حيٍّ يتسلّل إلى دمه. في تلك اللحظة، تذكّر جدّه الفلّاح الذي كان يقول: "الأرض لا تخون من يغرسها بصدق". شعر أنه يسمع العبارة لأول مرة.

وقف فيصل طويلاً تحت نسمةٍ باردةٍ تشقّ حديقة بيته. مدّ عينيه إلى الأفق الرماديّ. لم يفكّر في الذهب الذي ذاب، ولا في التمثال الذي تحوّل إلى غبار. فكّر فقط في حديقةٍ جديدةٍ ربما تولدُ من هذه النبتة الوحيدة – حديقةٍ بلا أسوارٍ ولا موائد باذخةٍ ولا أقدام غريبةٍ.

حديقةٌ يعرف جذورها، يسقيها بصبره، ولا يضع فيها أرقاماً، بل أسماءً يعرفها ويحبّها... كأنه يكتب نفسه من جديد، شجرةً شجرةً، ورقةً ورقةً، وصوتاً واحداً لا يسمعه أحدٌ سواه.

القسم الثالث

لم يكن فيصل يتقن البكاء.

منذ أن بدأ وعيه يتشكّل في بيتٍ ضيّقٍ على أطراف البلدة، لقّنته أمّه أن الدمع نهرٌ إذا جرى علناً جرف معه رجولة صاحبه. أبٌ غائبٌ أغلب الوقت، وجدّةٌ لا تعرف كيف تواسي حفيداً تُرى فيه صورةٌ ناقصةٌ عن ذكرٍ مكتملٍ لم يكتمل يوماً.

كبر فيصل وفي قلبه حجرٌ ثقيلٌ يستقر تحت عينه مباشرةً. يرى رفاقه يبكون في الفصول الدراسية، يشكون صفعةً من معلمٍ متعجرف أو قسوةً من أبٍ يفيض خوفاً من الفقر على هيئة عصا. أمّا هو، فكان يشدّ أنفاسه للداخل، يعضّ شفته السفلى حتى يسيل الدم فلا يسيل الدمع.

مرت السنوات، كبرت الأحجار الصغيرة في صدره حتى صارت سوراً لا تسقطه ريح. تعلّم أن يرمّم ضعفَه بالنجاح. وضع على أكتافه بذلاتٍ داكنةٍ ليخفي هشاشته، وتعلّم أن يلمّع حذاءه كل صباحٍ كما لو كان يمسح غبار الذاكرة عنه.

ثم فتح باب المال. المال الذي ظنّه في البداية مفاتيح كثيرةٌ لأبوابٍ كان

يخاف طرقها. صار يشتري بكلمةٍ كل شيءٍ: احترامٌ مُستعار، رفاقٌ متحفّزون حول موائده، أصواتٌ تسبقه أينما حلّ وتلاحقه بالثناء كظلٍّ لا شمس له.

لم يكن يضحك من قلبه، لكنه كان يتقن توزيع ضحكته كهديةٍ يُرضي بها متردّداً في الصفقة أو شريكاً غاضباً من تأخّر العمولات. كانت ضحكته شيفرةً للهيبة لا أكثر.

وحين سقط، لم يعرف كيف يمدّ يده ليطلب عوناً. ظلّ واقفاً في مكانه، يراقب تفتت العمارات التي شيدها في الخيال قبل الواقع. سمع صرير الأبواب تغلق، باباً باباً، كأنها تنأى بنفسها عن جثةٍ لم يُرِد أحدٌ أن يرى نزيفها.

جاءته رسائلُ مطبوعة بخطٍّ رسميٍّ بارد: إنذارات بنوك، واستحقاقاتٌ متأخرة، وإشعارات بالحجز، كلّها تُقَدَّم إليه بعباراتٍ كان يرددها على غيره ذات زمن. صار يرى توقيعه الذي كان يُرجف قلوب موظفين ويدفع سكرتيراتٍ لمخاطبته بتهذيبٍ مبالغٍ فيه، صار يرى توقيعه نفسه يردّ عليه في ذيل الأوراق كطعنةٍ معترفٍ بها.

لم يكن في داخله مكانٌ للدموع. ما اعتاد أن يسكب من عينيه صار ينسكب الآن بين أضلعه، يتسرّب كسائلٍ مالحٍ إلى خلاياه، يحفر مساراتٍ خفيّةً في شرايينه، فلا يراه أحد.

في الليل، كانت أضواء غرفته تشبه مقابر مفتوحة. يشعل الأباجورة الصغيرة قرب سريره ثم يطفئها. يجرّ ستائر النافذة ثم يفتحها كأن شيئاً ما في الخارج قادرٌ على انتشاله من كهفه الخاص.

يسمع صوته يهمس باسمه. فيصل... من يكون فيصل إذا نزعت عنه عمامته المالية وربطات عنقه الحريرية وأختام شركاته؟ من يكون إن بقي وحده أمام مرآةٍ لا تعطيه أكثر من ظلٍّ مجعّدٍ تحت عينيه وذقنٍ لم يعد يملك الوقت ولا الشجاعة لحلاقته.

حين أفلس، أفلست معه المدن التي كان يتباهى بأنه يملك شوارعها المخفية: مطاعمٌ تحفظ اسمه في دفتر الحجوزات، نوادل يعرفون كيف يُسقونه دون أن يحرّك كأسه، سائقون ينتظرونه بلا أوامر، وشركاءٌ يسهرون على راحته خوفاً من تقطّع ودّه.

اليوم، لم يتبقّ من تلك المدن سوى مقعدٍ خلفيٍّ في مقهًى صغيرٍ على ناصية حيٍّ قديم، مقهى يدخل إليه فيصل متخفياً تحت قبّعةٍ رماديةٍ رخيصةٍ اشتراها من محلٍّ لا يبيع للمتوّجين ولا يُصمّم لأثرياء الصدفة.

يجلس فيصل هناك. يطلب شاياً رخيصاً يسكب له في كأسٍ زجاجيٍّ خفيفٍ يرى من خلاله ارتعاش أصابعه. يمرّ حوله شبّانٌ بقمصانٍ مفتوحةٍ عند الياقات يضحكون بصوتٍ عالٍ، يذكّرونه بنفسه قبل عقود، حين كان الشارع أكبر حلبةٍ لاستعراض قوّته الأولى.

يسمعهم يخططون لصِفقاتٍ صغيرةٍ بالكاد تكفي شراء سيارةٍ مستعملة، فيبتسم كمن يعيد نفسه إلى عتبةٍ ظنّها ذات يوم لن يخطوها ثانيةً. في الشاي المرّ يجد طعم الحقيقة. لا كريستال هنا ولا سكرتيرةٌ تدسّ الدفتر تحت أنفه ليوقّع بطرّةِ مزاجه. لا حارسٌ ولا بوّابٌ ولا كاميرا أمنٍ توثّق خطواته. هنا فقط صوته الداخلي:

"أين كنتَ يا فيصل؟ وأين أنت الآن؟"

يرجع فيصل من المقهى إلى بيته كمن يسير في جنازته. خطواته بطيئةٌ لكنها ثابتة، كأنه يجرّ بقاياه حثيثاً نحو غُرفٍ تعرفه أكثر من الناس. على باب الشقة، ينزع حذاءه بعنايةٍ لم يتعلّمها في بيوت البذخ، بل استعادها من طفولته. يخطو بحذرٍ على رخامٍ صار بارداً منذ انطفأت فيه الخطوات القادمة والذاهبة.

على مكتبه القديم، تترصّد أوراقٌ لم يوقّعها بعد. إنذارات جديدة، وبيانات أرصدةٍ مكشوفةٍ لم يعد في مقدوره أن يغلقها بحركةٍ من سبّابته. يمرّر عينيه على الأرقام، يحصيها لا ليُسدّدها بل ليعتاد صوتها الموحش وهي تعلن عن هزيمته دون أن تنطق.

يتذكّر وجه أمّه. كان في كل مرّةٍ يعود فيها من سفرٍ طويلٍ إلى تلك البلدة النائية يجدها تنتظره بعباءةٍ قديمةٍ وعينين رطبتين. كانت تراه أغنى رجال القرية، لكنها كانت تخشى عليه من وحشة الذهب. قالت له مرةً: "يا بني، النقود مثل الرمل، خُذ منها قبضةً تشربك ظمأك، لكن إن غرقت فيها بلعتك دون أن ترى الشاطئ".

ضحك يومها من حكمتها. قبّل جبينها لكنه لم يسمعها إلا كتحيةٍ مسائيةٍ تُردّد قبل النوم.

الآن صار يسمع صوتها كل ليلةٍ. يرى تجاعيد يديها في كفّه التي صار يمدّها مرتعشةً ليشرب الشاي وحده. يتذكّر كيف كان يتحدّث معها عن مشروعٍ جديدٍ وهي تردّد خلفه دعاءً قصيراً.

يمسك قلماً بيده. يجرب أن يكتب اسمه بخطٍّ بسيطٍ بلا ألقابٍ ولا تواقيع. فيصل. فقط فيصل. يجرّ الحروف بحذرٍ كأنه يوقظ في نفسه طفلاً نسي أن يبكي. يجرّ الحروف ثم يرفع رأسه إلى سقفٍ صار بلا أصدقاءٍ ولا خدمٍ يحرصون على بريقه.

في الغد، يعرف أن أحداً لن يطرق بابه ليقدّم له قهوةً مزيّنةً ببخارٍ مسرحيٍّ أو تقريراً عن أرباح الأسهم. في الغد، سيخرج إلى المقهى ذاته، يجلس في الركن ذاته، يحصي الأرصفة في الطريق. وربما - وهذا ما يرتجفه - يجد في نفسه قطرةً واحدةً من تلك الدموع التي ظلت حجراً في صدره منذ كان طفلاً يحلم أن يبكي ولم يُسمح له.

وفي تلك القطرة، ربّما يبدأ فيصل في تعلّم خسارةٍ أخرى: أن الخسارة وحدها تفتحُ قلبك ليبكي... وحين يبكي القلب، فقط عندها يتنفّس حقاً، ويتذكّر أنه ليس تمثالاً من ذهبٍ، بل رجلٌ كان يحتاج حضناً لا خزينةً، ودمعةً لا دفترَ شيكات.

» في الليالي الأخيرة، صار الليل يمدّ له حبلاً خفياً، يلفّه حول عنقه كوشاحٍ ثقيلٍ يُدفِئ برده ويخنق أنفاسه معاً. كان فيصل كلما انتبه إلى وطأة ذاك الخيط السرّي، مسح رقبته بكفّه المتعرّق كأنه يختبر وجوده، ثم يضحك ضحكةً قصيرةً تخونه وتتكسر على شفتيه.

يقف أمام المرآة طويلاً. ليس لأنّه يتأمّل هندامه - فما عاد للقمصان المكويّة معنى - بل لأنّه يبحث عن نفسه في انعكاسٍ يشبهه ولا يشبهه. يُميل

رأسه قليلاً، يحدّق في وجهٍ يعرفه ولا يثق به. يتراجع خطوةً إلى الوراء، يرى ظهره المنحني كأنه يتلصّص على غريبٍ يستعدّ للرحيل بلا حقيبة، وبلا تذاكر، وبلا وداعٍ يليق بسنواتٍ كان يظنّها ستُحيطه بالتصفيق ساعة انسحابه.

كان الليل يمتدّ طويلاً في بيته الواسع. الغرف مُطفأة الأنوار إلا من أباجورةٍ واحدةٍ قرب الأريكة، تبقى مضاءةً كما لو أنّها تذكّره أنّ ثمة نوراً يُقاوم العتمة، حتى لو تضاءل إلى بصيصٍ هشّ.

تحت ذاك الضوء، يمدّ ساقيه ويقلب بين يديه أوراقاً صفراء. بعضها أوراق مديونية، وبعضها قصاصاتٌ كان يسجّل فيها رقماً هاتفياً أو موعداً لعشاءٍ نسيه الجميع إلا مطعماً حزيناً فقد زبونه الدائم. يقرأ الأرقام لا ليحفظها بل ليطمئن أنّها ما زالت تُوجعه، أنّ النزيف لم يجفّ بعد، وأن القلب ما زال يحفظ صرير الألم في شرايينه.

يستيقظ في قلب الليل أحياناً. لا على حلمٍ جميلٍ ولا كابوسٍ صارخ، بل على فراغٍ يضجّ بهدوئه. يصحو فيحدّق في السقف. يمرّر يده على صدره كمن يفتّش عن نبضٍ مفقود. لا يسمع سوى طقطقة عقارب ساعةٍ أهملها طويلاً فوق رفّ الكتب. كان زمنه يمضي بلا ساعات، كان يشتري الوقت بماله، ويُرجئه،و يؤجّله، ويمدّ نهاره بليلِ الآخرين... الآن صار الزمن يجلس معه على الكنبة، يشرب معه قهوته المرّة ويذكّره كل رشفةٍ أنّ الكؤوس التي ارتفعت له مرةً لن ترفعه من سقطته.

يرتدي معطفه الداكن في الفجر أحياناً. يفتح بابه كما لو أنّه يفرّ من

حصارٍ داخليّ. يهبط الدرج ببطءٍ. يسمع وقع خطاه يتردّد في الدرج الحجريّ، كأنه يترك صدىً ليُثبت للعالم أنّه مرّ من هنا.

يخرج إلى الشارع الفارغ. الريح الباردة تصفع وجنتيه. يلمح صاحب المخبز يفتح باب محله، ينفض الكيس القماشي عن الأرغفة التي ستتكوّم بعد قليلٍ في حضن نساءٍ لم تتم جيوبهنّ ولم يختزن مثله أرصدةً تنهار ببطءٍ في ردهات البنوك.

يعبر الحيّ القديم. هناك، بين الأزقّة الضيّقة التي تشبه شرايين البلدة الأولى، يتذكّر أمّه.

- كانت تقول له: "إن أردت أن تعرف نفسك، انزع عنك البذلات والعطور وخُذ قلبك إلى الحارة التي عرفت صراخك الأول".

- يهمس لنفسه الآن: "لو أنّكِ معي، يا أمّاه، هل كنتِ ستضعين كفّك على رأسي وتهمسين لي: لا عليك... المال يذهب ليعود، لكنك حيٌّ ما دمتَ تنظر في المرآة وتعرف اسمك؟"

لكن فيصل لم يعُد يعرف اسمه كما كان. صار اسمه مديونيةً تُكتب في هامش صحيفةٍ أو يُهمَس به في مقاهي الأثرياء الذين صاروا يشيحون بوجوههم حين يمرّ اسمه كغيمةٍ سوداء.

في المقهى الشعبيّ القريب من ناصية المسجد العتيق، يجلس في الصباح كمن ينتظر حُكماً لا يعرف موعد صدوره. فنجان الشاي أمامه يبرد. يحملق

في دخان السجائر التي يلفّها العمّال بشفاهٍ خشنةٍ وأصابعَ ملوّنةٍ بغبار الحديد والإسمنت. يراقبهم يتبادلون القهقهات بصوتٍ عالٍ، ينادي أحدهم الآخر باسمه بلا ألقاب. هناك، في ذاك الركن المتآكل من المدينة، يدرك فيصل أنّ الاسم وحده أصدق ثروةٍ احتفظ بها هؤلاء. لم يساوموه على لقبٍ ولا احتاجوا توقيعه كي يرفعوا رؤوسهم إذا ذكر اسمه.

يعود أدراجه إلى البيت كمن يجرّ خلفه ظلّه المبلّل بحزنٍ قديمٍ لم يُبلّل وجهه يوماً بدمعٍ ظاهر. يفتح بابه. البيت باردٌ كصندوقٍ منسيٍّ في سرداب. لا ضحكة أطفالٍ ولا همس امرأةٍ ولا صدى خادمةٍ تفتح الباب وتقول: "مرحباً بك، سيدي."

يمرّر أصابعه على الجدران كأنّه يبحث عن حرارةٍ علِقت في حجارةٍ باردةٍ. يتذكّر كيف كان يجلس هنا، عند المدفأة الكبيرة، يُحصي ضيوفه مثل سبائك ذهبٍ متراصّةٍ في خزائنه. كان يحدّثهم بنبرةٍ لا تهتزّ، يمسك كفّه كما لو أنّها ميزانٌ يُرجّح كفّة من يريد ويُسقط من لا يريد.

الآن، صار وحيداً. وحده المدفأة موصدةٌ مثل قبرٍ حجريٍّ بارد. وحدها أوراقه تعرف كم مرّةً حاول أن يكتب رسالةً إلى رفيقٍ قديمٍ أو شريكٍ قديمٍ فلم يجد الكلمات. أيعتذر عمّن؟ وعن ماذا؟ عن أنه كان يظنّ أنّ العالم كلّه يطوف حوله ولا يدري أن الطواف الحقيقيّ كان حول فخٍ نَصَبه لنفسه؟

حين يدخل غرفته، ينزع معطفه كما لو كان ينزع جلده. يرميه على الكرسيّ. يتأمّل السرير المفروش بعنايةٍ لم يعبأ بها يوماً حين كانت الخادمة تغيّر الأغطية وتنسّق الوسائد كما لو كانت تبني له معبداً صغيراً للنوم.

ينحني فيصل فوق المخدة. يشمّ رائحة جسده فيها. رائحةٌ متعبةٌ، ملحٌ قديمٌ علق بجلده حين كان يهرول بين المطارات والاجتماعات. يتساءل في نفسه: "هل هذه المخدة تعرفني أكثر من أوراقي؟ هل تعرف خوفي؟"

أحياناً، يهمس في الليل: "يا ربّ، هل يسمعني أحدٌ إن بكيت؟"

↢ لكنه لا يبكي. عيناه جافتان مثل أرضٍ بورٍ لم تسقها سحابةٌ واحدةٌ منذ سنين. يبكي من الداخل فقط. بكاءٌ حارقٌ ينساب تحت أضلاعه ويتركه متيبّساً كجذع شجرةٍ مقطوعةٍ لا يعرف أحدٌ متى سقطت ولا مَن قطعها.

يتذكّر أصوات الأصدقاء. يتذكّرهم في صخب الحفلات، في قهقهات منتصف الليل، في همسات الصفقات التي كان يظنّها رُقِيّاً وحصناً يحميه من السقوط. أين هم الآن؟ يبحث في هاتفه القديم عن أسمائهم. يمرّر إصبعه على أرقامٍ صامتةٍ. يتردّد أن يتصل بأحدهم. يضع الهاتف جانباً. لا يريد صوتاً يردّ عليه بجملةٍ مهذّبةٍ باردة: "للأسف مشغول الآن... سنتواصل لاحقاً".

في الليل الأخير من الأسبوع الأخير من شهرٍ لم يَعُد يعرف تاريخه، جلس فيصل أمام نافذته المفتوحة. رأى أضواء المدينة تلمع كعيونٍ بعيدةٍ لا تراه. مدّ يده إلى الخارج، لامس هواءً بارداً كأنّه يختبر نبضه.

في تلك اللحظة، خطر له أن يكتب رسالةً لم يكتبها يوماً. رسالةً إلى نفسه. تناول ورقةً قديمةً من درج مكتبه المهجور، خطّ فيها بخطٍ مُرتَجف:

↢ "فيصل، يا أنت... إن بقي منك شيءٌ بعد هذا الليل، احمله خفيفاً

مثل حقيبةٍ صغيرةٍ في يد مسافرٍ لن يعود. لا تنتظر تصفيقاً. لا تنتظر اعتذاراً من الذين تركوك. ولا تنتظر من قلبك أن يقسو عليك أكثر. ابكِ إن استطعت. وإن لم تستطع، فاجلس قرب نافذتك حتى يسمعك الليل. الليل وحده لا يغلق بابه في وجه من أفلس من كل شيءٍ إلا من اسمه".

ترك الورقة على الطاولة. لم يطوها. لم يُعنونها. لم يُوقّعها بتوقيعٍ أنيقٍ من تواقيعه القديمة. تركها مفتوحةً كنافذةٍ لم تُغلق في وجه ريحٍ قد تحمل في صباحٍ قريبٍ دمعةً لم يعرف كيف يسكبها، دمعةً وحيدةً، إن ولدت، ستكون غفرانه الأخير.

- حين تسرّب الليل إلى صدره تلك الليلة، كان فيصل جالساً قرب النافذة التي لم تغلقها يدٌ منذ صار البيت بيتاً بلا نفس. يحدّق في سوادٍ لا يحجبه ستارٌ ولا يعكّره صوت. لم يكن للريح أن تطرق زجاجه، فالريح نفسها صار يخشاها. كأنّ في هبوبها خيانةً لساعة سكونه الأخيرة.

منذ زمنٍ بعيدٍ - أو هكذا ظنّ - لم يفكّر فيصل في شيءٍ يشبه النهاية. كان يحتقر النهايات كما يحتقر العابرين الضعفاء الذين يهربون من المعارك حين تشتدّ. لكن الليلة، كانت الفكرة تقترب منه على مهلٍ، تجلس على حافة سريره كضيفٍ ثقيلٍ لا يدري كيف يطلب منه الانصراف ولا يجرؤ أن يسلّيه.

قال لنفسه:

- "ما الذي سأخسره أكثر؟"

كان يحاول أن يلتقط خيطاً واهياً من شجاعةٍ قديمةٍ تبعثرت بين صفحات

دفاتره البنكية. يفكّر في طرق الموت كما يفكّر رجلٌ منهكٌ في طرق النوم: يختبرها في خياله، يُغمض عينيه عليها، يفتحها فيجدها أشدّ يقظةً من قلبه المُرهق.

مرّر يده على رقبته كما لو أنه يتحسّس موضع ذاك الحبل الخفيّ الذي صار الليل يلفّه به كلما أرخى ستائره. حاول أن يتذكّر: متى كانت المرة الأخيرة التي نام فيها دون أن يهتزّ من نومه على خفقة قلبٍ يطارده من حلمٍ مظلمٍ إلى يقظةٍ أشدّ عتمةً؟

فتح خزانته الصغيرة. كانت مرتبةً كأنّ خادمةً لا تزال تتسلل خفيةً كل صباحٍ لتطوي قمصانه وترتّب ربطات عنقه حتى لو لم يعد يلبسها. مرّر أصابعه على رفوفها. كم ربطة عنقٍ بقيت شاهدةً على مؤتمراتٍ أُلقيت فيها كلماتٌ منمّقةٌ عن القوة والحظّ والحياة المُصاغة بذهبٍ كاذب؟

سحب ربطةً داكنةً. لفّها حول عنقه بخفةٍ مترددةٍ كأنه يُجرّب على نفسه مشنقةً ناعمةً. نظر إلى المرآة. كان وجهه شاحباً كقماشٍ مبلّلٍ تُرك طويلاً في عتمةٍ رطبة. حرك فمه. جرب أن يبتسم. لم يجد سبباً ليبتسم. جرب أن يبكي. لم يجد ماءً في عينيه يكفي دمعةً يتيمة.

"عتبةٌ صغيرةٌ" – هكذا سمّى الموت تلك الليلة. عتبةٌ يعبرها فلا يضطر أن يطلّ من خلفها على الخسارات. لا أحد سيذكّره كم كان كبيراً حين سقط، ولا كم تضاءل حين وقف على رُكامه ليقيس ما بقي من جسده وروحه.

أغمض عينيه. في ظلال جفنيه تراءت له غرفة والده القديمة. الأب الذي

مات مبكّراً قبل أن يرى فيصل يعتلي المنصّات ويوقّع العقود ويرتدي بدلته المخملية الباهظة التي حاكها له خياطٌ إيطاليّ في سفرٍ لم يعد يجرؤ أن يتذكّره.

لو كان أبوه هنا، هل كان سيقول له: "تعبتَ يا بني؟" فقط هكذا، بلا عتابٍ ولا مؤاخذةٍ ولا خيبة؟ أم كان سيربت على كتفه ويقول له: "الرجل الذي يسقط مرةً لا يموت. يموت حين ييأس من الوقوف"؟

لكن فيصل لم يكن يشتهي الوقوف. ما عاد فيه عظمٌ يحتمل الارتكاز، ولا جلدٌ يقوى على مواجهة العيون التي تراقبه من خلف أبوابٍ مواربةٍ.

تذكّر أمّه. كم مرّةً بكت بصمتٍ حتى لا يرى دمعها؟ كم مرّةً رفعت كفّها إلى السماء تسأل الله له الستر والنجاة من السوء؟ ولو كانت الآن قربه، هل كانت ستمسك بيده وتقول له: "ما زال في العمر متسعٌ يا فيصل، لا تخُن نفسك"؟

لكن الأم ماتت أيضاً. ماتت بصمتٍ يليق بامرأةٍ خبأت ألمها تحت قماش الثوب وطيّات الوشاح، وظلّت حتى أنفاسها الأخيرة تنتظر عودته إلى حجرها ليغفر لنفسه قبل أن يغفر له الناس.

يتقدّم من النافذة. يفتحها على آخرها. الهواء البارد يهجم عليه ككفّ غريبةٍ تصفع وجهه ليصحو. الشوارع خاليةٌ إلا من ضوءٍ شاحبٍ يتسرّب من مصباحٍ مكسورٍ عند رأس الزقاق. يسمع مواء قطةٍ وحيدةٍ. ضحك بصوتٍ خافتٍ:

- "حتى القطة لها شجنها الخاص. وأنا... لي بئرٌ لا يملأه إلا موتي."

أغلق النافذة ببطء. التفت إلى غرفته. كأنّه يراها للمرة الأولى. الأثاث الفخم، الستائر المخملية، السجاد الذي جاء به من بلادٍ بعيدةٍ. كلّ ذلك صار حطاماً فاخراً. ما قيمة المخمل إن لم يجد عليه جسداً يستلقي مطمئناً؟ ما جدوى الزخرفة إن كانت تخفي في عمقها شقوقاً تأكل الجدار من الداخل؟

جلس على طرف سريره. أخرج من درج صغيرٍ ورقةً فارغةً وقلماً فضياً كان قد تلقّاه هديةً في مؤتمرٍ لم يعد يتذكّر تاريخه. كتب كلمةً واحدةً في المنتصف: "آسف". تردّد أن يكتب تحتها شيئاً آخر. لمن؟ مَن بقي له ليعتذر؟ أصدقاؤه تركوه في صمتٍ باردٍ. شُركاؤه طوَوا أوراقهم واختفوا خلف ستائرهم. المرأة الوحيدة التي أحبّها – أو ظنّ أنّه أحبّها – تزوجت بآخر حين لم يجد ما يقدّمه لها سوى ذكرياته الملوّثة برائحة الإفلاس.

وضع الورقة جانباً. مدّد جسده على السرير كأنه يستعدّ لاستقبال يدٍ خفيّةٍ ستسحبه إلى العتبة الأخيرة. أغمض عينيه من جديد.

سرت في رأسه صورٌ متقطّعةٌ كأشرطةٍ قديمةٍ فقدت ألوانها. ضحكته في عيد ميلاده الخامس حين أهداه أبوه درّاجةً صغيرةً. وجهه المرهق ليلة نجح في أوّل صفقةٍ كبيرةٍ، وكيف مسح عرقه في الحمّام كي لا يرى أحدٌ كم تكسّرت روحه وهو يساوم ويبيع ويشتري كرامةً مغلّفةً بآلاف الدولارات.

قال في سره: "الموت وحده لا يفاوضني. لا يسألني كم أملك، لا يشترط كم بقي لي من أرصدةٍ أو أصدقاء." الموت عادلٌ بطريقته القاسية. يأخذ ولا يترك لك خياراً سوى أن تسلّم جسدك مثل مفتاحٍ فقد أبوابه.

فتح عينيه فجأةً. الضوء الخافت للغرفة ارتعش حين نظر إلى السقف. كانت هناك عنكبوتٌ صغيرةٌ نسجت خيطها عند الزاوية. تابعها بعينيه. كيف تمسك بخيطٍ رقيقٍ كهذا وتبني عليه بيتاً؟ بيتٌ أضعف من نسمةٍ، أقوى من رياحه كلّها.

ابتسم بمرارةٍ. "لو كنتِ هنا يا أمّي، لكنتِ قلتِ لي: انظر إلى العنكبوت. لا تخف من هشاشتها. ما زالت تعرف أن تُعيد خيطها إن انقطع."

جلس ثانيةً. فكّ ربطة عنقه. نظر إلى الخزانة المفتوحة. همس لنفسه: "ربّما ليس الآن... ربّما ليس الليلة." ثم سحب ورقته من على الطاولة. مزّقها نصفين. ترك قصاصاتها تتبعثر قرب السرير كحروفٍ ميتةٍ فقدت جملتها الأخيرة.

عاد إلى النافذة. فتحها من جديد. استنشق برد الليل حتى شعر أن صدره امتلأ بملحٍ باردٍ. ثم أغلقها ببطءٍ. أطفأ الضوء. تمدّد على سريره دون أن يلفّ جسده بغطاءٍ. كانت البرودة تليق به أكثر من دفءٍ لم يعُد يليق.

في قلبه، كانت يدٌ خفيّةٌ تحفر فجوةً صغيرةً، فجوةً تشبه الحياة نفسها: حفرةٌ في صدرٍ يظنّه عامراً، ثم يكتشف متأخراً أنه لا شيء فيه إلا صدى خطواتٍ بعيدةٍ تركت البيت بلا رجعة.

أغمض عينيه. لم ينم. لكنّه – للمرّة الأولى منذ وقتٍ طويلٍ – لم يفكّر في طرق الموت.

راح فيصل يجمع أوراقه كما يجمع مهاجرٌ بقايا ذكرياته قبل أن يشدّ رحيله الأخير. كلّ ورقةٍ هي إصبعٌ مبتورٌ من جسدٍ ظنّه يوماً كاملاً لا ينقصه شيء. مدّ يده إلى درجٍ عتيقٍ في خزانةٍ أهملها طويلاً، خزانةٍ لم تُفتح منذ سكنت رائحتها عتمةَ البيت وغبارَ القطيعة. أخرج أوراقاً صفراء، عقوداً، فواتير قديمة، صكوكاً وقّعها ذات يومٍ وهو يرفع رأسه إلى كاميراتٍ توثّق انتصاراته الورقية.

جلس على الأرض كصبيٍ تائهٍ في مخزنٍ عتيق. أمامه كومة أوراقٍ بلا ترتيبٍ إلا ما رتّبته الخسارات في صدره. قلبها واحدةً تلو أخرى، كأنه يقلّب صفحات أيامٍ لم يعد له فيها نصيب. حاول أن يقرأ الأرقام المطبوعة في أسفل العقود: أرقامٌ لم يعد لها وجودٌ إلا في ذاكرة موظفٍ باردٍ قال له آخر مرة: "الحساب أُغلق يا سيّد فيصل... أُغلق إلى الأبد."

أخذ نفساً طويلاً. مدّ يده إلى ظرفٍ بنيٍ ثقيل. أخرج منه شهاداتٍ كان يعلّقها ذات يومٍ على جدران مكتبه، تحت إضاءةٍ خافتةٍ تُبرز اسمه منقوشاً بخطٍ ذهبيٍ يلمع كذهبٍ مستعارٍ. الآن يمرر أصابعه على الأحرف الباردة، يقرؤها همساً كأنه يستعيد صوت تصفيقٍ تلاشى في قاعةٍ صمتت فور أن انهار فيها اسمه.

راح فيصل يضع كل ورقةٍ على جنبٍ، يفرزها كمن يفرز تركةً ثقيلةً لم يعد يعرف لمن ستؤول بعد أن يغادر. لم يكن في الغرفة غيره. وحده يتحدّث إلى صمتها الكثيف، وحده يسمع حفيف الأوراق كأنه نحيبٌ متقطّعٌ من صدرٍ لا يريد أن يئنّ.

تذكّر لحظةً غريبةً مرّت به منذ أسابيع. حينها، دخل غرفته بعد منتصف الليل، أطفأ الضوء كي لا يرى شروخ الحائط التي لم يرمّمها منذ غادرته أصوات ضيوفه. جلس في زاويةٍ بعيداً عن السرير، وراح يراقب ظلّ صورته في زجاج الخزانة. بدا له جسده غريباً كجسد رجلٍ آخر جاء يستعير اسمه وأوراقه.

حينها خطر له سؤالٌ بسيطٌ مربك: "لمن سأترك كل هذا؟"

↢ كان يعرف أنه لن يتركه لوارثٍ ينتظر اسمه مكتوباً على دفترٍ أخضر في دائرة أيتام. ليس له ولدٌ يحمل عنه إرثاً لم يتركه إلا بقايا من أرقام ميتةٍ وذكرياتٍ مثقوبةٍ من طرفها بأحاديث الناس. لم يكن له أخٌ يشدّ أزره أو صديقٌ يربّت على كتفه حين يثقل الحمل.

راح فيصل يكتب وصيته. لا أحد يعلّمه كيف تُكتب وصيةٌ لرجلٍ أفلس إلا من وحدته. كتب بخطٍّ مرتعشٍ، كأنه يعتذر فيها من مجهولين لن يأتوا، من عابري سبيلٍ لن يعرفوه إلا رقماً في زاوية صحيفةٍ محليّةٍ تتحدّث عن رجلٍ كان، ثم مضى.

كتب فيها أنه يريد أن يُدفن بلا مظاهر. أن يغلقوا عليه التراب بلا خطبةٍ ولا بكاءٍ مُستعار. أن تُكسر الأختام التي تحمل اسمه فلا تظلّ معلّقةً في رقاب الآخرين كوصمةٍ يخافون أن تلوّثهم.

لم يكن فيصل يعرف إن كان يخاف الموت حقّاً، أم يخاف أن يظلّ حيّاً أكثر ممّا يجب. صوته الداخلي يقول له: "أنت تموت كل ليلةٍ حين تفتح دفترك

القديم لتعدّ الخسائر. الموت الذي تخشاه قد يكون أرحم من تلك الليالي التي تنهش فيها ذاكرتك بأظافرِ الوحدة".

جمع الأوراق في صندوقٍ خشبيٍ قديم. الصندوق الذي احتفظ فيه بآخر هداياه لنفسه: ساعةٌ ثمينةٌ لم يعد يحملها، خاتمٌ صغيرٌ حُفر عليه اسمه واسم امرأةٍ هربت من اسمه قبل أن يكتمل النقش. وضع الأوراق فوق الساعة. أطبق غطاء الصندوق ببطءٍ كما يطوي صفحةً من كتابٍ لم يعد يرغب في قراءته.

على الطاولة، بقعةُ ضوءٍ خافتٍ تتسلل من مصباحٍ صدئ. حمل دفتراً آخر. دفترٌ أسود بجلدٍ خشنٍ كان يدوّن فيه ملاحظاته السرية: أفكار مشاريعه، وأسماء شركائه، وأسرار الممرات الخلفية التي ظلّت لسنواتٍ لا يجرؤ أن يُخبر بها أحداً.

فتح الدفتر. قلب صفحاته. أحسّ كأنه يقرأ اعترافاته بصوتٍ خافتٍ لنفسه وحدها. كل صفحةٍ سطرٌ من عمرٍ ظنّه مُلكه ثم اكتشف أنه كان مُستعاراً من خيبةٍ أكبر من أن تُقال.

على الطاولة بقية قهوةٍ باردةٍ مرّ عليها الليل مراراً. رشفةٌ أخيرةٌ أعادت إلى فمه طعم المرارة التي صارت مذاقه الوحيد. نهض فيصل ببطءٍ كأنه يحمل في كتفيه بيتاً مهجوراً. سار نحو المرآة المعلقة قرب الباب. تأمل ملامحه: من هذا الذي ينظر إليّ هكذا؟ هل هو أنا الذي لوّح ذات يومٍ للصحافة بيده المرفوعة كحاكمٍ يوزّع ابتسامةً مزيّفةً على الحشود؟

مدّ يده إلى خده. تحسّس تجاعيد لم يكن يراها من قبل. وضع راحته على

صدره. هل ينبض القلب أم يئنّ؟ في صدره حجرٌ ثقيلٌ اسمه الخوف. خوفٌ ليس من الغد ولا من الناس، بل من ذاته التي لا يعرف إن كان سيظلّ يحتملها حين تُغلق عليه الأبواب كلها.

في الخارج، خُيّل إليه أن الفجر اقترب. ضوءٌ رماديٌّ هشّ يتسرّب من شقوق الستارة. تذكّر أمّه وهي توقظه في صغره قبل الفجر، تحمله إلى المطبخ، تضع أمامه كوب حليبٍ دافئٍ وقطعة خبزٍ مشبّعةٍ بحنانٍ خامٍ لا تلوثه الحاجة. أين ذهب كل هذا؟

همس: "هل أستطيع أن أبدأ من هناك؟ من المطبخ، من رغيفٍ ساخنٍ وكوب حليبٍ صامت؟" ضحك. لم يكن في الضحكة سوى نشيجٍ مقنّعٍ كي لا يعترف أنه يبكي دون دموع.

عاد إلى الطاولة. فتح دفتره الأخير. كتب بخطٍ أكبر: "فيصل الذي رحل عن اسمه."

↢ أعاد القلم إلى مكانه. دفع الكرسي بقدمه برفقٍ كأنه يخشى أن يوقظ أحداً في بيتٍ فارغٍ إلا من صدى تنفسه.

مدّد جسده على الأريكة قرب الأوراق. أطفأ المصباح. راح يراقب الظلال وهي تبتلع آخر ملامحه في مرايا الغرفة. أغلق عينيه كأنه يريد أن يحفظ المشهد الأخير: صندوقٌ ممتلئٌ بالأوراق، وصيةٌ مكتوبةٌ بيدٍ مرتعشة، وجهٌ غاب عنه الفرح من زمنٍ طويلٍ ولم يتقن البكاء.

في قلب الليل، شعر أن جسده يبرد ببطءٍ، كأنه يذوب من أطرافه ويترك لروحه فرصةً صغيرةً لتقول: "أنا هنا، أنا التي حملتك من قاعٍ إلى قمةٍ ثم أسقطتك لأُذكّرك أنك لم تكن يوماً سوى ورقةٍ تُطوى وتُنسى."

نام فيصل... أو ظنّ أنه ينام. في نومه سمع خطواتٍ خفيفةٍ تمشي فوق الورق. سمع حفيفاً يشبه صرير أبوابٍ تُغلق برفقٍ حتى لا توقظ الذاكرة. في ظله حلمٌ يتسرّب من شقوق روحه: بيتٌ صغيرٌ بلا أوراق، أمٌّ تغسل عن كتفيه تعب الخسائر، وسماءٌ بعيدةٌ لا تطلب منه أن يكتب فيها أرقاماً ولا يوقّع تحتها شيئاً.

وحين تنفّس أول خيط فجرٍ، لم يكن في البيت صوتٌ إلا ورقٌ مطويٌّ في صندوقٍ قديم... ينتظر صاحباً لن يعود.

« طوى كلّ ذلك في ملفٍ قديمٍ وضعه قرب سريره، كأنه أراد أن يعتذر للعالم عن فوضاه الأخيرة. ملفٌّ يحوي أوراقاً شاخت قبله، رسائلَ لم يكتبها لأحد، مسودّات خطاباتٍ لم يرسلها، وأسماءً لأصدقاءٍ صاروا غباراً في دفاتر الآخرين. كان يعيد ترتيبها كلّ ليلة، يحرّكها من كومةٍ إلى كومة، كأنّه ينجز بترتيبها ما لم ينجزه في حياته.

الأفكار السوداء تنقر جمجمته كغربانٍ جائعة، تحفر في عظامه ولا تكتفي. يحاول أن يصرفها بفتات ذكرياتٍ يختلقها أحياناً ليمنح وحدته مسرحاً جديداً. يقف طويلاً عند نافذةٍ عاليةٍ في الطابق العلوي من قصره الكبير–قصرٌ كان حلْم أبيه الذي أورثه إياه كعلبةٍ ضخمةٍ من الفراغ. صار القصر أكبر من روحه، أوسع من رئتيه، أعمق من عزلته.

حين كان شاباً، حلم أن يملأ هذا القصر بالأصوات: مكتبةٌ واسعةٌ مفتوحةٌ للأصدقاء، صالةٌ للقراءة، حدائقُ يُقيم فيها أمسياتٍ شعريةٍ يجيء إليها العابرون من كلّ مدينةٍ صديقة. لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث. لم يطرق أحدٌ بابَه إلّا حين كانت مكاتبه مفتوحةً على مصالح الناس، وحين طوى يده عن الدنيا، انفضّوا عنه واحداً تلو الآخر.

في الحديقة المهملة، كانت الأشجار تحتضر واقفةً، بلا يدٍ تشذبها ولا عينٍ ترويها. حاول أكثر من مرةٍ أن يستأجر بستانياً جديداً، لكنه كان يطردهم جميعاً قبل أن يبدأوا. كان يريد أن تبقى الحديقة ذابلةً مثله، شاهدةً على ما تبقّى فيه من أوراقٍ يابسةٍ لم يسعفه أحدٌ على سقوطها.

لم يتزوّج يوماً. لم يحبّ أحداً بصدقٍ كاملٍ إلّا في خياله. كلّما أوشك قلبه أن يخطو نحو آخر، ارتعد من فكرة الاقتراب. كان يفرُّ إلى كتبه وأوراقه وأفكاره. يقنع نفسه بأنّ الكلمات أوفى من الأجساد. وحين كبر، لم يجد حتى الكلمات إلى جواره.

في الليل، يجرّ كرسيّاً خشبياً قرب سريره. يضع الملفَّ فوق ركبتيه. يفكّ رباطه المهترئ، يخرج الأوراق واحدةً تلو الأخرى. يقرأ بعض الجُمل، يتوقّف عند بعضها، يمزّق بعضها ثم يندم فيعيد لصقها. يشعر أن حياته كانت مسوّدةً طويلةً لم تتحوّل يوماً إلى نصٍ نهائي.

كلّ صباحٍ، يوقظه ضوءٌ خافتٌ يتسلّل من شقوق النافذة العتيقة. يظلّ ممدّداً، يحدّق في سقفٍ يعرف كلّ شقٍ فيه، كلّ بقعة رطوبةٍ نبتت مع السنوات.

يُحدّث نفسه: "هذا سقفي وهذا قبري." يضحك بصمتٍ ثمّ ينهض متثاقلاً، يجرّ قدميه كمن لا ينتظر سوى زلّةٍ أخيرةٍ تخلّصه من عناء التردّد.

كان له أخٌ صغيرٌ مات في حادثٍ قديم. بقيت صورته وحيدةً على الطاولة، طفلٌ يبتسم بأسنانٍ ناقصةٍ كأنّه يمدُّ لسانه للحياة التي لم تهبه سوى سبع سنواتٍ من الأرجوحة والضحك. ظلّت تلك الصورة رفيقته الأصدق. كلّ ليلةٍ يمسح الغبار عنها. أحياناً يهمس لها: "أنتَ من سبق، وأنا من علق هنا مثل مسمارٍ صدئ."

في فجر أحد الأيام، جرّ جسده إلى المكتبة الكبيرة. الغرفة الوحيدة التي بقيت تنبض بدفءٍ خفيٍّ بين جدران القصر. رفوفٌ مكدّسةٌ بكتبٍ لم يقرأ نصفها. كان كلّما مرّت عليه فكرة شراء كتابٍ جديد، اشتراه ثم وضعه في الرفّ الأبعد كي لا يقرأه. كأنّه يكدّس المؤجّل ليظلّ مؤجّلاً، خشية أن يفرغ العالم من جديدٍ يسلّيه.

فتح كتاباً قديماً، ووجد بين صفحاته ورقةً خطّ عليها ملاحظةً لنفسه قبل عشرين سنة: "غداً أبدأ من جديد." قرأها مليّاً. ابتسم بأسى. تمتم: "لم يأتِ الغد قط."

جلس ساعاتٍ يحدّق في الورقة. شعر أنّه لو مزّقها ربما يحرّر شيئاً من صدره. وحين همّ بتمزيقها، خاف أن يختفي الأمل الوحيد الذي عاش معه كلّ تلك السنوات، الأمل المؤجّل كقهوةٍ باردةٍ لم يشربها أحد.

خرج من المكتبة. سار في الرواق الحجريّ الطويل المؤدّي إلى الباب

الخارجي. توقّف عند الباب. وضع يده على المقبض كما يفعل كلّ مرةٍ، ثم سحبها سريعاً. لا أحد في الخارج ينتظره. لا أحد في الداخل يردعه عن الخروج. ومع ذلك، بقي الداخل سجنَه الوحيد.

في المساء، جلس قرب المدفأة الباردة. لم يشعلها منذ شتاءٍ مضى. صار يفضّل البرد. صار يشعر أنّه يذكّره بجسده، بعظامه التي تهشّمت من فرط ما لم يستند إلى كتفٍ أو ذراعٍ غير ذراعيه. استلقى على الأريكة العريضة، أغمض عينيه. رأى نفسه يقطع طرقاً طينيةً لا بيوت فيها ولا أقدام تترك أثراً. طرقٌ تبتلّ من مطرٍ لا يسقي شيئاً، سوى وحدته.

استيقظ على صوت قطرة ماءٍ تسقط من صنبورٍ معطوبٍ في المطبخ البعيد. ظلّ ينصت إلى رنينها. قال في سره: "هذه القطرة وحدها تؤنسني. لو توقّفت، لانكسر في قلبي شيءٌ نهائي."

في الصباح، وجد رسالةً قديمةً كان قد بعثها إلى نفسه من مدينةٍ زارها وحيداً ذات شتاءٍ طويل. كانت بطاقة بريديةً ملوّنةً بصورة مقهى صغيرٍ في زقاقٍ أوروبيّ. كتب فيها بخطٍ مائل: "حين تعود، لا تنسَ أن تعود بكاملك." أغلق البطاقة. أدرك أنّه لم يعد بكامله قط. ترك أجزاءه هناك، على أرصفةٍ لم تعرف اسمه.

حين دهمه المساء من جديد، شعر بفراغٍ كثيفٍ يملأ صدره، كأنه حقلٌ من ضبابٍ لا يرى خلاله حتى أصابعه. قام إلى النافذة. فتحها. ترك الهواء البارد يلسعه. همس: "لعلّي أتسرّب إلى الخارج من شقوقي."

مدّ يده نحو الظلام. تخيّل أن يده تلمس يداً أخرى. لم يجد غير الريح تلفح جلده. قال للريح: "أريد أن أصير خفيفاً مثلك. خذني حيث لا بيت ولا ملفّات ولا أوراق."

عاد إلى سريره. وضع الملفّ القديم تحت وسادته، كأنه يطمئن أنّه لم ينسَ أن يحمل موتَه معه حين ينام. أغمض عينيه. تذكّر أنّه لم يكتب وصيّة. تذكّر أنّه لا يملك أحداً يقرأ وصيّته. ضحك في داخله. قال: "ما حاجتي لوصيّةٍ لا يقرؤها أحد؟"

في حلمه تلك الليلة، رأى القصر مغموراً بالأضواء. طرقاتٌ من نورٍ بين الغرف. ضحكاتٌ لا يعرف أصحابها. موائد عامرةٌ بكؤوسٍ مملوءةٍ ونقاشاتٍ لا تنتهي. وقف في وسط القاعة الكبرى. رفع يده ليصافح أحداً. لكنّ الضيوف جميعاً عبروا من خلاله كهواءٍ ثقيلٍ، لم يرَه أحد، ولم يلمسه أحد. صحا على ارتعاشٍ في صدره. همس لنفسه: "كلّ هذه الحيوات كانت حلماً عابراً."

حين أشرقت شمس يومه الأخير، خرج إلى الحديقة. غرس أصابعه في التراب البارد. شعر بحرارته تخترق جلده. حدّق في جذع شجرةٍ يابسة. قال: "لعلّكِ تعودين خضراء من بعدي." ثم قام ببطء. عاد إلى الداخل. لم يغلق الباب هذه المرّة. تركه مواربا، كأنّه يفسح للريح طريقاً كي تدخل وتفتّش عنه بعد غيابه.

جلس على كرسيّه الخشبيّ. وضع الملفّ القديم في حجره. فكّ رباطه للمرة الأخيرة. جمع أوراقه بيديه كمن يجمع رماداً. حملها إلى المدفأة. ألقاها

هناك. راقبها تحترق ورقةً ورقةً، لم يهتزّ رمشه. كأنّه يشيّع جنازةً لا تخصّ سواه.

حين انطفأت آخر شرارةٍ في الموقد، استلقى على أريكته. أغمض عينيه. لم يعد ينتظر أحداً. لم يعد يودّع أحداً. صار أخيراً يشبه نفسه: خفيفاً، بلا أوراق، بلا ملفّات، بلا بيتٍ يقيّد وحدته.

وفي الصباح الذي يليه، مرّت خادمةٌ عجوزٌ على باب غرفته. طرقت طرقةً خفيفةً، انتظرت، لم يردّ. دفعت الباب ببطء. رأته هناك، مسنداً رأسه إلى الأريكة، كأنّه استراح أخيراً في نصٍّ لا يحتاج إلى إعادة كتابة.

↢ يُفتح زجاج النافذة قليلاً، ينساب البرد إلى رئتيه كهمسٍ بارد، كوصيّةٍ غامضةٍ تطرق صدره كلّما ضاق به هذا الصندوق الحجريّ الكبير الذي يسمّيه بيتاً.

↢ "اقفز..."

↢ لم يكن الصوت صريحاً، بل تسرّب إليه من ظلمةٍ داخليّةٍ لم يعرف لها صاحباً. وضع يده على الزجاج البارد، شعر برجفةٍ تسري من راحته إلى قلبه. تخيّل لحظة ارتطامه بالأرض: هل سيشعر بالألم؟ أم سيُولد في اللحظة الأخيرة من حياةٍ صار صدره أضيق من أن يتّسع لها؟

حين كان صغيراً، لم يعرف للنوافذ معنى. كانت مجرد فتحاتٍ يدخل منها الضوء. كان يرى أمّه تُغلقها كلّ مساءٍ وتسدّ شقوقها بقطع قماشٍ رطبةٍ كي لا يتسلّل البرد إلى عظامه النحيلة. بعد موتها، بقيت النوافذ كما هي، لكنّه صار

يفتحها عن قصدٍ في ليالي الشتاء، كأنه يريد للبرد أن ينخر صدره، أن ينظّف رئتيه من تراكم الغبار الذي أورثه له بيتٌ بلا أصوات.

أغلق الزجاج بيده المرتجفة. ابتعد بضع خطوات. سحب كرسيّاً خشبياً عتيقاً من زاوية الغرفة، جلس أمام النافذة دون أن يجرؤ على النظر ثانيةً إلى الشارع الذي يغفو تحته، شارعٌ يجهل اسمه رغم أنّه حفظ عدد بلاطاته المكسورة.

ورث هذا البيت عن أبيه الذي ورثه بدوره عن جدٍّ رحل في ليلةٍ عاصفةٍ بلا شاهدٍ سوى الريح. ثلاث طبقاتٍ من الحجارة القديمة، ممرّاتٌ ضيّقةٌ تعجّ بالعتمة حتى في عزّ النهار، وسلالم متهالكةٌ لم تطأها قدمٌ غريبةٌ منذ سنين. حين مات أبوه، وجد نفسه فجأةً سيّداً لجدرانٍ لا تعرف اسمه. لم يكن له أخٌ ولا أختٌ يشاركه هذا الصمت. بكى ليلتها كثيراً، ليس حزناً على أبيه، بل خوفاً من ثقل المفاتيح التي صارت في جيبه.

تسلّل ضوءٌ خافتٌ من مصباحٍ يتدلّى من السقف. بدا له الضوء شاحباً كأنّه يحتضر هو الآخر. نهض، دار بين الغرف الفارغة. لم يلمس شيئاً، لم يشعل نوراً آخر. كان يخشى أن يوقظ ذاكرةَ البيت. في غرفةٍ جانبيةٍ، سحب صندوقاً قديماً. جلس على الأرض. فتحه ببطء. داخل الصندوق، أوراقٌ صفراء، دفاتر ملاحظاتٍ مهترئةٌ، صُوَرٌ أبيضُها بهت من طول ما التهمته الرطوبة.

في إحدى الصُوَر، رأى نفسه واقفاً قرب حائطٍ متهالكٍ في ساحة المدرسة، قميصٌ واسعٌ على جسدٍ هزيل، وابتسامةٌ كاذبةٌ يُحاول بها إرضاء الكاميرا.

تذكّر الفتى الذي كانه. سأل نفسه: أيّ لعنةٍ تربصت بي لأصير هذا الذي أراه الآن؟

مدّ يده إلى دفترٍ صغيرٍ، فتحه بيدٍ مرتعشةٍ. في الصفحة الأولى، سطرٌ واحدٌ كتبه يوماً ولم ينسه: "حين يكبر ظلك عليك، صِرْ ظلّاً له." لم يفهم العبارة يوم خطّها، لكنه يعرف اليوم أنّه صار ظلّاً فعلاً: ظلّاً لبيتٍ خاوٍ، لشارعٍ صامتٍ، لاسمٍ بلا إرثٍ سوى صمتٍ ثقيل.

أعاد الأوراق إلى الصندوق. أغلقه كمن يوصد تابوتاً. سحب جسده إلى المطبخ. أوقد موقداً صغيراً بالكاد يعمل. وضع إبريق ماءٍ للشاي. راقب الفقاعات الصغيرة وهي تتصاعد كسربٍ من الأرواح المتعبة. سمع في داخله ذلك النداء القديم يعود: "اقفز..." تجاهله. سكب الشاي في كوبٍ مكسور الحافة. رشفةٌ مُرّةٌ تلسع حلقه، لكنها تذكّره أنه لا يزال هنا، جسداً من لحمٍ وعظمٍ لم يتسرّب بعد إلى الفراغ.

في المساء، طرق أحدهم بابه. لم يطرق بابه منذ سنين. تجمّد قرب الباب الخشبيّ، وضع أذنه عليه. سمع همهمةً غامضةً ثمّ صمتاً. فتحه ببطءٍ شديدٍ فلم يجد أحداً. نظر إلى الدرج الحجريّ الذي ينزل إلى الشارع، رآه خالياً إلّا من قطةٍ سوداء تحدّق فيه كأنّها تحفظ أسراره كلّها.

أغلق الباب، عاد إلى الداخل. فكّر أن يكلّم نفسه بصوتٍ عالٍ، لكنّه خاف أن يسمعه أحد. ضحك من خوفه: "من يسمعني في بيتٍ لا يسمع حتى وقع خطاي؟" مضى إلى غرفته. وضع الكرسي أمام النافذة مجدّداً. فتح الزجاج قليلاً، تسلّل البرد إلى صدره مثل وخز إبرةٍ تفتّش عن قلبه.

تخيّل نفسه يقفز. يفتح ذراعيه كطائرٍ لم يجرّبه التحليق من قبل. يرى جسده يلامس الهواء الثقيل ثمّ يهوي كحجرٍ بلا صوت. تذكّر أنّه قرأ مرّةً عن رجلٍ انتحر من نافذةٍ تشبه نوافذه. كتب ذلك الرجل في ورقته الأخيرة: "لم يعد في الغرفة مكانٌ يتّسع لأنفاسي."

ردّد العبارة همساً كأنّها تخصّه هو الآخر. أغلق النافذة. قال لنفسه: "ليس بعد. ليس الآن."

في الصباح، صحى على نقراتِ مطرٍ خفيفٍ على زجاج النافذة. بدا له المطر نعمةً صغيرةً تتذكّره بين حينٍ وآخر. ارتدى معطفه البالي، نزل الدرج ببطءٍ كأنه ينزل في قلبه. فتح الباب الخشبيّ الثقيل. خرج إلى الرصيف.

كان الشارع خالياً إلّا من رائحةٍ عتيقةٍ لوحوشٍ غادرت ولم تترك غير آثار أقدامٍ في الوحل. مشى بخطواتٍ ثقيلةٍ. مرّ أمام مقهىً صغيرٍ أغلق منذ سنين. زجاجه معتمٌ مكسور. تذكّر أنه جلس فيه ذات ظهيرةٍ مع زميلٍ قديمٍ لم يسأل عنه أحد منذ عقود. فكر أن يفتح بابه ويدخل، يجلس وحده على الطاولة ذاتها، يشرب قهوةً لم يعد أحدٌ يقدّمها، ويحدّث كرسياً فارغاً عن الأيام التي لم تأتِ.

لكنّه واصل السير. وصل إلى حديقةٍ مهملةٍ على طرف الحيّ. الأشجار يابسةٌ، مقاعد الحديد مائلةٌ كظهورٍ انحنت من كثرة الانتظار. جلس على أحدها. حدّق في التراب الموحل. رأى نبتةً صغيرةً تنمو بشجاعةٍ بين الحصى. ابتسم. قال في سرّه: "حتّى هنا، شيءٌ ما يصرٌّ أن يعيش."

عاد إلى بيته قبل الغروب. خلع معطفه قرب الباب. صعد إلى غرفته

ببطء. جلس أمام النافذة. فتح الزجاج قليلاً. همس البرد في صدره ثانيةً: "اقفز..."

- أجاب هذه المرة بصوتٍ مسموعٍ: "ليس بعد." ثم أضاف: "لماذا العجلة؟"

في الليل، مدّد جسده على الأريكة. استدار إلى الحائط، وضع يده تحت رأسه كطفلٍ يتعلّم كيف ينام بلا حارسٍ يحرص حلمه. رأى نفسه في منامه يمشي في شارعٍ أبيض، لا بيت فيه ولا نوافذ ولا أرقام ولا حيطان. فقط طريقٌ يمتدُّ بلا نهاية. حاول أن يلتفت وراءه، فلم يجد أثراً لخطاه.

حين استفاق، أحسّ بالدم يدقّ في صدغيه. تمدّد طويلاً يستمع لصمتٍ ثقيلٍ يحيط صدره كغطاءٍ رطب. قال: "ما زلت هنا. ما زال للريح بابٌ يدخلني."

قام. أضاء مصباحاً خافتاً في الممرّ. فتح درجاً صغيراً في خزانةٍ خشبيّةٍ متهالكة. أخرج دفتراً آخر. هذه المرّة كتب فيه:

- "إلى الذي لم يأتِ قط:
- أنتظرك من نافذتي المفتوحة قليلاً. إن لم تأتِ، سأقفل الزجاج وأفتح صدري. لن أقفز. سأذوب كالبخار. لا حاجةَ للأرض كي تستقبلني. سأترك لك المفتاح تحت الحصاة القديمة أمام الباب."

أغلق الدفتر، أرجعه إلى الدرج. عاد إلى النافذة. لمس الزجاج. شعر ببرودته تنفذ إلى عظامه. لم يسمع النداء هذه المرة. كانت النافذة صامتةً كقبرٍ جديد. ابتسم. تمتم: "حتى الهمس يملّ في النهاية."

توالت الأيام ثقيلةً كأقدامِ مسنٍّ يجرّ ظلاله في ممرٍّ فارغ. صار الليل أطول من ليله. صار صوته مع نفسه رفيقاً لا يخونه. لم يعد ينتظر طرقاً على الباب. لم يعد يتخيّل قفزةً من النافذة. صار يرى كلّ ليلةٍ صورةً واحدةً: جسده يذوب ببطءٍ في سريره، يتسرّب من جلده إلى الملاءات الباردة، من الملاءات إلى خشب الأرض، من الخشب إلى رطوبة الحجارة.

لم يكن موتاً، بل خفوتاً يشبه انطفاء شمعةٍ في غرفةٍ لم يدخلها أحدٌ منذ زمن.

وفي الليلة الأخيرة، جلس على كرسيّه أمام النافذة. فتح الزجاج قليلاً. دخل البرد إلى صدره. لم يقل له أحد: "اقفز..." فقط استمع لصوت المطر يطرق الزجاج من الخارج كتحيّةٍ أخيرةٍ للعابر الذي لم يعبر يوماً.

استند بظهره إلى الجدار. أغمض عينيه. حين وجد قلبه ينبض رغم كلّ شيء، ابتسم في الظلمة وقال: "نجوتُ هذه الليلة أيضاً." لم يعرف أنّها كانت نجاته الأخيرة.

حين عثروا عليه بعد أيام، كان الزجاج مفتوحاً قليلاً، كما تركه. كان صدره بارداً، لكنّ ملامحه ارتاحت كأنّه أدرك أخيراً أنّ النافذة ليست للطيران، بل للتنفس فقط.

» وفي عمق ليله، حين يعجز ضوءُ المصباح عن تبديد ظلمةٍ تسكن صدره قبل غرفته، كان يعود إلى سريره، يضع رأسه على وسادةٍ صارت أثقل من روحه برائحة الخيبة. تلك الوسادة، وحدها التي حملت دموعه الأولى حين مات أبوه،

واحتفظت بحرارة جبينه في ليالٍ كان فيها على حافة حمى أو حافة جنون، ولا أحد يدري أيّهما سبق الآخر.

يقلب جسده في ظلام لا يرحمه. يمدّ يده إلى الجدار بحثاً عن وهمٍ باردٍ يشدّه إلى يقظةٍ لا يريدها. كلّ زاويةٍ في الغرفة تحفظ تنهيداته التي ابتلعها مراراً. حين يغفو أخيراً، يغفو كما يسقط حجرٌ في قاع بئرٍ لا ماء فيه. وفي قاع نومه، كان يرى كوابيس موتٍ بطيءٍ لا يفارقه: يرى وجهه بلا ملامح، جسده ممدّداً على إسفلتٍ بارد، الغرباء يلتفون حوله بوجوهٍ غريبةٍ، بلا كلمةٍ ولا دعاء. يحدّقون فيه كأنّهم يشهدون على نزع اسمه من جسده. وفي لحظةٍ غائمةٍ، يسمع وقع أقدامٍ تبتعد، لا أحد ينحني ليغلق عينيه، لا أحد يسأل: "من هذا؟"

يصحو فجأةً، يبلل صدره عرقٌ باردٌ. يفتح عينيه على ظلامٍ أكثر كثافةً من حلمه. يصغي إلى قلبه وهو يدقّ في صدرٍ ضاق به. يسمع من طرف الغرفة نباحاً خافتاً يأتيه من مكانٍ لا يراه. لا كلب هناك، ولا باباً مفتوحاً. وحده خياله صار يتربّى على أصواتٍ موحشةٍ تذكّره أن الليل لا يترك أحداً في حاله.

ينهض ببطءٍ. يمشي في الغرفة حافي القدمين. يلمس أطراف الطاولة القديمة، يربّت على ظهر الكرسي الخشبي كأنه يطمئن إلى أنّها ما زالت هنا. يفتح النافذة قليلاً. يدخل هواءٌ باردٌ، يلامس جبهته، يذكّره أن المدينة خارج هذا الجدار ما زالت تتنفّس. لكنه لا يسمع منها شيئاً سوى طنينٍ خافتٍ للريح بين الأبنية العالية.

حين نزل هذا البيت أول مرّةٍ، كانت له روحٌ لم يعرف كيف يرويها. ورثه

عن عمٍّ عجوزٍ مات وحيداً في ليلة شتاءٍ، دفنوه عارياً من الكلام ومن الأهل. كان البيت مليئاً برائحة رطوبةٍ عالقةٍ في الأثاث، وذكرياتٍ لا يعرفها أحد. تركها كما هي، لم يبدّل شيئاً. ظلت الستائر نفسها، ظلت الشقوق نفسها على الجدران. كأنه خاف لو غيّرها أن تطرده الأرواح التي ألفته بعد طول عزلته.

يعود إلى سريره ثانيةً، يمدّد جسده كأنه يختبر صلابة الفراش الذي لم يغيّره منذ سنين. يحدّق في السقف. هناك بقعةٌ داكنةٌ من أثر ماءٍ قديمٍ تسرّب من سقف الجار. بقعةٌ اتسعت عاماً بعد عام، صارت خريطةً جديدةً لحياته: بقعةٌ تكبر مثل ندبةٍ لا تندمل.

حين يشرق الصباح، لا يشرق معه شيءٌ في داخله. يبقى في سريره حتى يزحف الضوءُ على عينيه فيرغمه أن ينتشل جسده من الفراش. يجرّ قدميه إلى المطبخ، يُشعل إبريق القهوة الذي صار صدأُه جزءاً من مذاقها. يصبّ القهوة في فنجانٍ مكسور الحافة. يشربها على ثلاث رشفاتٍ مرتعشة. يمسح شاربه بظهر كفه، يحدّق في بقع القهوة على أصابعه كأنه يقرأ كفَّه فلا يجد فيها قدراً غير هذا الفنجان.

ينظر من النافذة. يرى شجرةً يابسةً في باحة البيت. لم يجرؤ يوماً على قطعها رغم أنها تميل كل شتاءٍ أكثر نحو الأرض. يهمس لها أحياناً: "قومي، إن لم تقفي ستسقطين فوقي." تردّ عليه بصمتٍ عنيدٍ، تظلّ تميل ولا تقع. كأنها تأبى أن تريحه من ذنبٍ لم يرتكبه لكنه يحمله معها.

في ظهرٍ خريفيّ، يرتدي معطفه البالي، ينزل الدرج الذي يئنّ تحت

خطواته. يفتح الباب الخشبيّ الثقيل. يخرج إلى الرصيف. الشارع أمامه مثل صفحةٍ رماديةٍ لم يكتب فوقها حرفاً. يقف لحظةً يتفرّس وجوه المارّة. لا أحد يعرفه، لا أحد يراه أصلاً. يبتسم لنفسه: "ما أصغرني في هذه الزحمة. ما أسعد من لا يرى".

يعبر الشارع ببطء. يصل إلى مقهًى في الزاوية لم يغلق أبوابه بعد رغم أنّ زبائنه نادرون. يجلس في ركنٍ قصيٍّ، يطلب قهوةً أخرى لا يذوقها أصلاً. يراقب انعكاس وجهه على زجاج النافذة. يرى تجاعيدَ نبتت تحت عينيه كشقوقٍ صغيرةٍ في جدارٍ رطب. يسأل نفسه: "متى صار وجهي حجراً؟"

يمرّ شابّان قرب طاولته، يضحكان بصوتٍ عالٍ. يرمقانه لحظةً ثم يمضيان بلا اكتراث. يبتسم مرّةً أخرى: "أصغر مني بسنينٍ كثيرةٍ، وأخفّ مني بسنينٍ أثقل."

حين يعود إلى بيته، يخلع حذاءه قرب الباب. يمشي على أطراف أصابعه كأنّ البيت نائمٌ لا يريد إيقاظه. يدخل غرفته، يفتح الدرج القديم قرب سريره. يجد فيه دفتراً صغيراً. دفترٌ كتب فيه في ليالٍ قديمةٍ كلماتٍ لم يكملها. يقرأ:

- "إلى الذي لم يجيء أبداً:

- أترك لك الليل، أترك لك صمتي، أترك لك رائحتي العالقة في كلّ شيء. إن وجدتها ثقيلةً عليك، انفضها عنك كما تنفض الغبار عن معطفٍ قديم".

يقلب الصفحة. يجد بياضاً واسعاً يحدّق فيه مثل عينٍ فارغة. يعيد الدفتر إلى مكانه. يغلق الدرج. يسحب كرسيّه قرب النافذة. يفتح الزجاج قليلاً. يدخل البردُ من جديد، يلسعه في عمق صدره. يسمع ذلك النداء الذي صار لا يفارقه: "اقفز..."

يضحك هذه المرّة، يردّ على الصوت: "أنا أقفز كلّ ليلةٍ ولا أصل إلى الأرض." ثم يغلق الزجاج. يطفئ المصباح. يعود إلى فراشه. يضع رأسه على وسادةٍ أثقل من الخيبة ذاتها. يغفو نصف غفوةٍ، يرى فيها جسده ممدّداً على إسفلتٍ بارد، الغرباء يلتفون حوله، بلا كلمةٍ ولا دعاء.

يمرّ عليه الليل بطيئاً كدودةٍ تأكل حوافّ عمره. يسمع صوت الريح تنقر النوافذ، وخياله ينبح في ركنٍ بعيدٍ من غرفته. لا يملك إلا أن يغلق عينيه أكثر. يهمس لنفسه: "غداً سأرتّب هذه الفوضى. غداً أكنس بقاياي من هذه الغرفة. غداً..." لكنّ الغد لا يجيء. كلّ ما يجيء كابوسٌ آخر، وجسدٌ ممدّدٌ على الرصيف.

حين يستيقظ عند الفجر، لا يسمع نباحاً ولا ريحاً. يسمع دقّات قلبه وحسب، مثل طبلٍ وحيدٍ في جنازةٍ لا يعرفها أحد. ينهض، يفتح نافذته على اتّساعها. يمدّ رأسه إلى الخارج. يستنشق البرد كأنه آخر نفسٍ في صدره. يقول: "لماذا لا أختفي الآن؟" لكنّه يسحب رأسه قبل أن يفكّر أكثر.

يغلق النافذة. يعود إلى سريره. يمدّد جسده كأنّه يجرّبه للمرّة الأخيرة. يضع يده على صدره. يعدّ دقّات قلبٍ يقاومه رغم كلّ شيء. يقول: "أنا لم أُخلق لأقفز. خُلقتُ لأقع ببطءٍ في داخلي".

حين يبلغه الصباح، يكون مستغرقاً في غفوةٍ ثقيلةٍ بلا كوابيس. لا يرى جسده على الإسفلت. لا يرى غرباء ولا نباحاً. فقط نومٌ أبيضٌ بلا رائحةٍ ولا ظلّ. وحين يطرق أحدهم بابه بعد أيام، لن يسمع طرقهم. سيظلّ رأسه مطروحاً على وسادةٍ لم تعد ثقيلةً برائحةِ الخيبة، بل خفيفةً كنسمةٍ عابرةٍ تركها خلفه حين تسرّب من حلمٍ أخيرٍ لم يُكملْه.

» يُدير رأسه ببطءٍ ثقيلٍ، كمن يزيح عن عنقه حملاً تراكم فوقه لسنواتٍ دون أن يراه أحد. يرى كلبه الصغير جالساً عند باب الغرفة، يحدّق فيه بعينين لا تنامان. تلك العينان كانتا الوحيدتين في هذا البيت اللتين لا تُشيحان عنه، لا تغمضان إذا اقتربت منه كوابيسه، ولا تتوارى حين تضيق غرفته بأنفاسه. كان الكلب يعرف. بحدسه الغريزيّ، كان يشمّ رائحة موتٍ تتسلّل كلّ ليلةٍ لتندسّ في قلب سيّده، يلحسها من مسامات جلده، يلتقطها في ارتعاش يده حين يضعها على صدره ليتفقّد خفقاتٍ خافتةٍ توشك أن تفلت من قبضته.

يتقدّم الكلب نحوه بخطواتٍ متمهّلةٍ كأنّ الأرض تخونه تحت مخالبه. يتمدّد عند قدميه، يلصق جسده ببرودة البلاط ليؤكّد له أنّه هنا، أنّه حارسه في هذا الليل الأسود. يمدّ رأسه على حافة السرير، يرفع عينيه إليه: "لا تخف، إن جاءك الموت الليلة سأكون أوّل من ينبح في وجهه."

يبتسم صاحب الجسد المنهك ابتسامةً لا يراها الكلب، ولا يرى غير ظلّها على وجنةٍ غارت تحت عظامٍ تعبت من حمل الرأس. يمدّ يده المرتعشة ليمسح على فروة، يشعر بخشونة الشعر تحت أصابعه فيطمئن. وحده هذا المخلوق ظلّ

وفيّاً لكلّ خيبته، لم يغادر حين غادره الناس، لم يغلق أذنيه حين أدار الآخرون ظهورهم لوجعه.

كان وحده دائماً. منذ لحظةٍ بعيدةٍ، لحظةٍ لا يتذكّرها على وجه الدقة، صار منسيّاً، أو نسي نفسه، لا فرق. صار بيته يضيق عليه كلّما انتبه لصمت الجدران الذي يكبر بين ضلوعه. حتى صوته صار يخافه. صار إذا كلّم نفسه خاف أن يردّ عليه صدى بعيد.

وحده هذا الكلب الصغير كان يقيم معه معاهدةً سريّةً: لا صوت، ولا كلام، مجرّد أنفاسٍ مشتركةٍ في ليلٍ طويلٍ لا يتبدّد.

حين يغمض عينيه، يراوده طيف أمّه. لم يترك صورةً لها غير واحدةٍ وحيدةٍ على خزانةٍ في الصالة، امرأةٌ نحيلةٌ تلفّ رأسها بمنديلٍ فاتحٍ، تبتسم بقدرٍ من الصبر يكفي لتبرير كلّ شيءٍ بعد رحيلها. كان يحدّق في تلك الصورة طويلاً حتى ظنّ يوماً أنّ المنديل الأبيض يتموّج إذا تحرّكت الريح الخفيّة في الممرّ. حدّق فيها ذات مساءٍ حتى بكى. خاطبها كطفلٍ غريرٍ فقد يده في ظلام الغرفة: "لو كنتِ هنا، هل كان الكلب وحده سيحرُسُني؟"

يزيح الغطاء عن جسده، ينزل قدميه إلى الأرض. يطأ البلاط البارد. يمرّر يده على شعر الكلب الذي رفع رأسه يراقب خطاه. يمشي إلى المطبخ كأنه يمشي في دهليزٍ رطبٍ من ذاكرته. يفتح صنبور الماء، يتركه ينزّ على راحتيه. الماء باردٌ كقلبه الآن. يشرب مباشرةً من كفّه. يرتجف صدره من لسعة الماء البارد. يقول في سره: "ما زلتُ هنا، هذا القلب الذي في صدري ما زال يصرُّ على طرق جدراني."

يعود إلى سريره. يزحف الكلب خلفه بكسلٍ حزينٍ، يراقبه كظلٍّ حيٍّ لعمرٍ يتهدّل ببطء. يتمدّد على الفراش الذي صار غريباً عليه رغم السنوات. يقلب رأسه إلى الجدار. هناك على الحائط تصدّعاتٌ صغيرةٌ تتسلّق من أسفلٍ إلى أعلى كجذورٍ تبحث عن مخرج. يحدّق فيها. يرى فيها حياته: شروخٌ لم يعرف كيف يرقّعها.

قبل أعوامٍ طويلةٍ كان له أصدقاءٌ، أو هكذا ظنّ. وجوهٌ اعتادها، مقاعد مقهىً صدئةٌ يجلسون إليها، كلماتٌ ثقيلةٌ يرمونها في الهواء ثمّ ينسونها. واحدٌ تزوّج وهاجر، آخر باع دكّانه الصغير ليلتحق بشقيقه في بلادٍ بعيدةٍ، والثالث مات مبكّراً فلم يجد من يمشي خلف نعشه سواه. وبعدهم، انفرطت الأيام من بين أصابعه. صار إذا عاد إلى المقهى القديم ليلاً وجده مغلقاً. وقف أمام بابه الحديديّ الصدئ أكثر من مرّةٍ كمن ينتظر باباً يفتح له ذاكرته.

عاد إلى البيت ليلتها، دخل غرفته، وجد الكلب ينتظره عند الباب بذات النظرة: "لا تقلق. لم يجيئوا؟ أنا هنا."

حين يتذكّر وجه أبيه، لا يتذكّر منه سوى صوته الأجشّ يأمره أن يكون رجلاً. رجلاً بمقاسٍ لم يفهمه. ترك له بيتاً متعباً وسريراً مهترئاً ونافذةً تفتح على شارعٍ رماديٍّ لا يقدّم له غير أخبارٍ بائسةٍ يقرأها من عيون المارّة. لم يورّثه سوى صبرٍ ثقيلٍ لا يصلح لشيءٍ إلا ليطيل عمر الوحدة.

في الليل، حين يثقُل الجسد أكثر، يتسلّل بردٌ خفيفٌ من شقٍّ صغيرٍ في النافذة. يمدّ يده إليه. يُدخل أصابعه في نسيج الريح الباردة. يتخيّل أنّه لو مدّ ذراعه أكثر، قد يسحب ليلاً آخر، ليلاً بلا كوابيس ولا نباحٍ ولا شبح موتٍ يتمدّد

في صدره. يترك الريح تمرّ على عظامه. يسمع خشخشةً في صدره كأنّ صدره غرفةٌ تتآكل من الداخل.

يرفع جسده بصعوبةٍ إلى حافة السرير. يجلس. الكلب يرفع رأسه نحوه. يداعب أذنه بحنوٍّ مفاجئٍ لم يتعلّمه من أحد. يهمس له: "أتعرف يا رفيقي، لو مُتّ قبلك، من سيبكي منّا على من؟"

ينبح الكلب نباحاً خافتاً، كأنّه يردّ: "لن تموت إلا وأنا واقفٌ فوق صدرك. لن يقترب منك الغياب وأنت وحدك."

يمدّ يده إلى طاولةٍ صغيرةٍ قرب السرير. يفتح دُرجاً خاوياً إلّا من بعض الأوراق القديمة: رسائل لم يُرسلها قطّ. مسودّاتٌ من كلماتٍ لم يجد لها متلقٍّ أبداً. بعضها كتبها لنفسه. واحدةٌ كُتب فيها بخطّ مرتعشٍ منذ سنواتٍ بعيدة: " إذا متُّ ولم يجدني أحد، أترك للكلب باباً موارباً يخرج منه كي لا يأكله الجوع في عزلته." يقرأها فيضحك نصف ضحكةٍ مكتومةٍ. يمسح بيدٍ واهنةٍ على رأس الكلب: "سمعت؟ لن أجعلك ترث عزلتي كلّها. هذا البيت لا يصلح إلا لشبحٍ مثلي."

يستلقي ثانيةً. يغمض عينيه. يُطلّ عليه وجه أمّه مجدّداً من عتمةٍ رطبةٍ تفوح منها رائحة ترابٍ رطبٍ وحديدٍ قديم. يسمع صوتها: "أوصيك به. لا تتركه بعدك." يحاول أن يردّ: "لا تخافي. الكلب أوفى منّي ومنهم جميعاً." لكنّ صوته لا يخرج. تبقى الكلمات حبيسة صدرٍ لا يقوى على بثّها في هواءٍ صار أثقل من الرصاص.

تمتدّ يد الكلب الصغيرة على قدمه كمن يختبر دفء جسده الأخير. يستسلم لهذا اللمس الصامت. يسمع دقّات قلبه تتباطأ تحت صدرٍ لم يعد يحرسه أحدٌ سوى هذا المخلوق الذي لم يعرف سواه رائحة حزنه. يحاول أن يغفو مرّةً أخرى. الكابوس هذه الليلة لا يأتي. كأنّه ملّ زيارته. يحسّ أنّ صدره صار أخفّ من المعتاد. لا وجع. لا طرقٌ ثقيلٌ في شرايينه. لا صدى يردّد: "اقفز..."

كلّ ما يسمعه هو شهقةٌ صغيرةٌ تصدر من حلقه، مثل آخر علامةٍ على أنّه كان هنا ذات مساءٍ، يشرب الماء من كفّه، ويعدّ موتَه على مهلٍ.

يُسدل الكلب رأسه على صدره. ينصت، ينتظر أن يسمع شيئاً. حين لا يسمع شيئاً، يرفع رأسه ثانيةً، يحدّق فيه طويلاً. ينبح نباحاً واحداً خافتاً، يجرّ جسده إلى باب الغرفة. ينظر إليه مرّةً أخيرةً كمن يودّع جثّةً لن تفتح عينيها ثانيةً.

عند الفجر، حين ستدخل عجوزٌ تنظّف البيت مرّةً في الأسبوع، ستراه هناك، مُستسلماً لوضعيةٍ لم تتغيّر، رأسٌ مائلٌ إلى النافذة كأنه يُطلّ على ليلٍ أبديٍّ لم يقوَ على مغادرته حيّاً.

» وسترى الكلب جالساً عند قدميه، يحرسه كما كان يعده كلّ ليلةٍ: "أنا هنا. لا تخف. لن تدخل يد الغياب إلا فوق جسدي..".

» وفي لحظةٍ واحدةٍ، كان فيصل يسمع صوته الداخلي، ذاك الصوت الذي عاش طويلاً مختبئاً بين تجاويف صدره، يلوّن أنفاسه بنبرةٍ لم يستطع يوماً أن يُسمّيها خوفاً ولا شجاعةً كاملةً. سمعه يقول بوضوحٍ مرٍّ:

↢ "ما الذي تفعله بنفسك؟"

↢ لكنّه أغلق أذنيه عن ذلك الصوت، كما لو أنّ في قدرته أن يُسكت رعداً يُقيم في عروقه. حجب ضوءه الهزيل بغطاءٍ من ظلامٍ ثقيل، ظلامٍ صار جزءاً من جلده، من مسامات وجهه التي حفرتها سهراتٌ طَويلةٌ بلا قهوةٍ ولا حكايةٍ تُعين على احتمالها.

جلس على طرف سريره كأنّ جسده يقاوم ثقله نفسه. مدّ كفّه إلى جدارٍ باردٍ بجواره، حرّكه ببطءٍ فوق الطلاء المتشقق، شعر بخشونةٍ تشبه صرير داخله. كان الليل ينساب في أذنيه كورقةٍ قديمةٍ تُطوى ولا تنتهي. في زاوية الغرفة، ساعةٌ خشبيةٌ لا يعرف مَن تركها له، تدقّ كل ساعةٍ بلا رحمة، تقطّع صمته إلى مقاطع صغيرةٍ، فلا يملك إلا أن يجمعها كلّها ليصنع منها عمراً لم يحدث أصلاً.

هو فيصل، الوحيد الذي لم ينتبه إليه أحدٌ حين غادر مقاعد الدراسة قبل أعوامٍ طويلةٍ. كان يجلس آخر الصف، يحفر اسمه على الطاولة بسكّينٍ صغيرةٍ خبّأها في جوربه، وكأنّه يعلم أنّ لا شيء سيخلّد اسمه بعد ذلك. صار اسمه شقّاً خشبيّاً في طاولةٍ رُميت لاحقاً إلى مخزن المدرسة حين تغيّر شكل الصفوف وبقي شكله هو كما هو.

عند الفجر، ينسلّ فيصل إلى المطبخ بخطىً ميتةٍ. يغسل وجهه بماءٍ باردٍ لا ينعشه بقدر ما يزيد ارتجافه. يتأمّل صورته في زجاج نافذة المطبخ. يرى انعكاساً نصفه شبح، ونصفه آخر يُقاوم أن يصير شبحاً بالكامل. يمسح بخاراً

خفيفاً تراكم على الزجاج. خلفه، يرى الكرسي الخشبيّ المائل الذي يضع عليه ثيابه الرطبة كلّ ليلةٍ، وكأنّه يخلع عنه بقايا يومٍ لم يستطع العيش فيه كما يريد.

يشعل غلاية الماء. يستمع لصوت فقاعاتها وهي تتصاعد كأنّها أصواتٌ لأفكارٍ لم يقوَ يوماً على قولها. حين يسكب الشاي في الكوب، يراقب الدخان يتسلّل إلى أنفه ثمّ يتلاشى في سقفٍ أصفر من أثر الدخان القديم. يقول همساً للكوب:

- "وأنت أيضاً، ستهرب؟"

كان فيصل قد علّق مرآةً صغيرةً قرب النافذة. في أيامه الأولى في هذا البيت، كان يحدّق في وجهه صباحاً، يتفقّد بقايا طفولةٍ هربت مبكراً من تحت جفنيه. مرّت الأعوام، صار يعبر أمامها دون أن ينظر. صار يخاف أن يلتقي بعينيه، أن يسألهما: "من هذا؟" فيجيبان بالصمت الذي أرهقه أكثر من أيّ كلمةٍ قاسيةٍ قيلت له يوماً.

يخرج فيصل أحياناً إلى الشارع، يمرّ أمام بوّاباتٍ مقفلةٍ، محالٍ صغيرةٍ طُليت واجهاتها بملصقات إعلاناتٍ لم يقرأها أحد. يرى وجوهاً متعبةً تشبه وجهه، لكنّه لا يجرؤ أن يُلقي التحية. صار غريباً بينهم، رغم أنّه أحدهم. كان يسمع في صمته من يقول: "ما الذي تفعله بنفسك؟" لكنّه يدفن الصوت في جيبه، يخبّئه بين مفاتيح صدئةٍ لا تفتح غير بابٍ واحدٍ يعود إليه مع الغروب.

في تلك الليلة، حين عاد من شارعٍ رطبٍ برائحة مطرٍ قديم، فتح بابه وأدرك أنّ للبيوت أرواحاً تنكمش إذا لم تُربّت عليها يدٌ دافئةٌ من حينٍ إلى آخر. دخل غرفته الصغيرة. خلع حذاءه قرب الباب كمن يُخفي آثار قدميه عن عينٍ

تتربّص به. جلس على الأرض، أسند ظهره إلى الجدار، استرق السمع إلى خياله الذي لا ينام:

- "ما الذي تفعله بنفسك؟"

- لم يجب. أغلق أذنيه كما اعتاد. أراح رأسه على ركبتيه، استسلم لجسدٍ صار أثقل من وسادته القديمة.

- فيصل، الذي لم يتزوّج، لم يكن يجرؤ أن يحلم ببيتٍ مليءٍ بالضحكات. يخشى الضحك الذي يوقظ في صدره ندماً على أشياءٍ لم يفعلها. لم يكن يكره الأطفال، بل كان يتحاشى النظر في وجوههم. خاف أن يرى في عيونهم وجهاً يشبهه: وحيداً في زحامٍ بلا يدٍ تنتشله.

في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، زحف إلى مكتبٍ صغيرٍ قرب النافذة. أخرج ورقةً صفراءَ من درجٍ مهترئ. كتب بخطٍّ متقطّع:

- "لو أنني استيقظ غداً فأجد أحداً ينتظرني عند الباب، يربّت على كتفي، يقول لي: لا بأس، سنخرج معاً. سنشتري خبزاً ساخناً من المخبز القريب. سنشرب الشاي معاً. وسأترك لك نصف رغيفٍ إضافيّاً حتى إن متُّ، تتذكّر أن أحداً ما اقتسم معك كسرة حياة".

قرأ كلماته. ضحك. أدار رأسه، حدّق في سقف الغرفة. جدرانٌ صفراءُ تكاد تسقط عليه، لكنه بقي واقفاً تحته، كأنّه يُسدّد فاتورة حياةٍ استدانها من صبرٍ لم يعد يملكه.

أطفأ المصباح الصغير. زحف إلى سريره. دفن وجهه في وسادته. سمع الصوت ذاته ينبثق من قلبه المكدود:

- "ما الذي تفعله بنفسك؟"

- هذه المرة، لم يُغلق أذنيه. ترك الصوت يخترق جمجمته. تركه يتمدّد داخله كريحٍ تحرّك ستائر الروح. لم يقاومه. قال في سرّه: "ما أفعله؟ أعلّق نفسي بين الحياة والموت. أخبّئني من نفسي."

تسلّل النعاس إلى عينيه أخيراً. رأى في حلمٍ غريبٍ أنّه واقفٌ عند بابٍ من خشبٍ داكنٍ، خلفه حديقةٌ خضراءُ لم يرَ مثلها من قبل. كان هناك رجلٌ يلوّح له من بعيدٍ، يدعوه للدخول، يبتسم له كمن يعرفه من زمنٍ سحيق. حاول أن يخطو نحوه، لكنّ قدميه كانتا مغروستين في الأرض. حاول أن يصرخ، لكن صوته خرج همساً مبحوحاً:

- "انتظرني..."

استفاق مذعوراً. كانت العتمة قد ازدادت ثقلاً. الوقت يمضغ دقّات قلبه ببطءٍ لئيم. استدار على جنبه، نظر إلى نافذته الموصدة، تمنّى لو تسلّلت منها نسمةٌ حانيةٌ تربّت على جبينه، تمسح عنه عرقه البارد.

قبيل الفجر، نهض فيصل من سريره كمن ينتفض من قبرٍ مفتوحٍ. غسل وجهه. وضع يده على قلبه كأنه يتفقّد بقيّة دقّاته:

- "ما الذي تفعله بنفسك؟"

ردّ عليه صدى صوته من جدران الحمّام الرطبة:

- "أقنِع نفسي أنّي أعيش."

خرج إلى شرفته الضيقة. نظر إلى الشارع الفارغ. رأى قطةً تموء أسفل العمود، تمسح جسدها ببرودةٍ تعبّر الليل وحدها. ابتسم لها. فكّر لو أنّه قطةٌ، يمشي تحت المطر دون أن يسأل نفسه ألف سؤالٍ عن معنى سقفٍ يظلّه ولا يُؤويه.

عاد فيصل إلى غرفته. جلس إلى مكتبه الصغير. سحب ورقةً جديدةً، كتب عليها:

- "إن جاء الغد ولم أكن هنا، ابحثوا عنّي في آخر ظلٍ تركته على الجدار. اسألوا عنّي المقعد الفارغ في المقهى القديم. أمّا هذه الغرفة، فلا تدخلوا إليها كثيراً، دعوها كما هي: قبراً صغيراً بحجم رجلٍ لم يعش بما يكفي."

حين صارت الشمسُ شاحبةً على الحافة، تمدّد على سريره، أسند رأسه إلى وسادته الثقيلة برائحة ليالٍ طويلةٍ. أغمض عينيه. قال في سرّه: "ما الذي أفعله بنفسي؟ اتركها تنام..."

نام.

- هذه المرّة، لم يسمع الصوت.

- لم يقف أحدٌ عند بابه، لم يربّت عليه أحدٌ كتفاً، لم يقاسمه أحدٌ الرغيف. لكنّه نام كمن أدرك أنّه، أخيراً، لا يفعل بنفسه شيئاً سوى ما كانت تفعله به الحياة: تخبّئه بين حلمٍ لم يكتمل، ونورٍ لم يُولد.

وكلما مدّ فيصل يده نحو الموت، كان يجد أنفاس كلبه تحرسه عند الباب.

↢ كلما دار في رأسه ذلك السؤال العتيق: "أين الباب الذي يُفضي إلى اللاشيء؟"، كان يلمح في عتمة الغرفة عيني كلبه – عينيه اللامعتين كحارسين قديمين لكل فزعٍ نام في صدره ولم يستطع أن يقتله.

الكلب لا ينبح كثيراً، لكنه كان يحرّك ذيله أحياناً حين يلمح فيصل يتسلل ليلاً إلى شرفته الضيقة. يقف هناك، عاري الصدر، يُنصت إلى المدينة التي تنام ولا تحلم. يضع قدميه على الدرابزين الصدئ، يمدّ رأسه قليلاً، يتخيل نفسه نقطةً سوداء تسقط من طابقٍ خامس إلى رصيفٍ لا يعرف اسمه. لكن قبل أن يكتمل الحلم، يسمع أنفاس الكلب خلفه – خشنةً، قريبةً، مطمئنةً ومُقلِقةً معاً. يدير رأسه، يرى جسده الصغير جالساً على العتبة، يرمقه بنظرةٍ خرساء تقول: "ارجع... هذا الموت ليس لك وحدك."

كبر فيصل وهو يتعلّم كيف يُطعم العتمة. كيف يُنصت لصدى خطاه بين الغرف الضيقة دون أن يوقظ أحداً. كيف يبتلع غصّته ويضعها بين أضلاعه مثل عصفورٍ مذبوحٍ. كانت أمّه تقول له وهو صغير: "إن أردتَ أن تكبر، اصمت. الكبير لا يشكو." وحين كبر، نسي كيف يشكو. صار صدره بئراً مالحاً يُخفي فيه كل شيءٍ – حتى اسمه صار يخاف أن يلفظه.

وحين ماتت أمّه، لم يَبْكِ أمام أحد. حفر وجهها في ليل غرفته، خبّأه بين ثنايا وسادته القديمة، وصار كلما مرّ إصبعه فوق نسيجها الخشن، يستحضر صوتها وهي تناديه من مطبخٍ رطبٍ: "فيصل، الطعام بارد. قم وكل شيئاً."

↢ أكل فيصل طعاماً كثيراً بعد رحيلها، ولم يذق شيئاً.

في تلك الأيام، لم يكن الكلب قد جاء بعد. كان فيصل ينام في غرفته الضيقة ولا يسمع سوى صرير خشب السرير كلما استدار على جنبه. كان الليل طويلاً - أطول من أن يُحتمل بلا صوت. وفي ليلةٍ بلا قمر، طرق أحدهم بابه. فتحه بقلق، وجد كيساً مهترئاً عند العتبة، بداخله جروٌ صغيرٌ يرتعش كقلبٍ اقتُلع للتوّ.

↢ نظر حوله، لم يجد أحداً. رفع الكيس. ضمّه إلى صدره. دخل البيت وأغلق الباب على اثنين: جسده وكلبه.

سمّاه "ظلّ". قال لنفسه: "هو ظلّي الذي لم أملك أن أمشيه خلفي."

↢ ومن يومها، صار البيت يحتمل الليل قليلاً. صار العواء الوحيد الذي يعرفه، عواءً خافتاً في صدر الكلب حين يُحسّ بفيصل يغرق في الكوابيس.

ومع كل محاولةٍ جديدةٍ للهرب، كان يفشل - كأن الحياة نفسها قد وضعت أمامه حاجزاً من وبرٍ وصمتٍ ووفاءٍ أعمى.

↢ حين جرّب ذات مرةٍ أن يفتح الغاز ويتركه يتسرّب ببطءٍ تحت الباب، وجد ظلّ الكلب يهرع إليه، يلحس أصابعه، ينبح نباحاً قصيراً ثم يجلس فوق قدمه كحجرٍ ثقيلٍ لا يُزاح.

↢ لم يقوَ فيصل على إزاحته. أغلق الغاز. فتح النافذة. بكى قليلاً وهو يربت على رأسه:

↢ "أيُّ موتٍ هذا الذي يحتاج إذنك؟"

مرّت شهورٌ كثيرةٌ لم يخرج فيها فيصل من شقّته إلا ليجلب علبةً من طعام للكلب وبعض الخبز له. صار يختصر كلامه مع بائع البقالة بكلمةٍ واحدة: "آه." أو هزّة رأسٍ يهرب بها من سؤالٍ غير ضروري.

↢ كان البائع يُحدّق في الكلب الذي يتبعه بخطًى متردّدةٍ: "ليش ما تربطه بحبل؟"

↢ يرد فيصل بصوتٍ لم يسمعه سواه: "لو ربطته، ربطت نفسي معه."

في الليل، يصير الظلّ أثقل. يجلس فيصل إلى مكتبه الصغير الذي ورثه عن أبيه، يفتح درجاً مليئاً بأوراقٍ ممزّقة. كتب كثيراً ذات زمنٍ. رسائل بلا مرسلٍ إليه، واعترافاتٌ لم يعترف بها لأحد. في آخر درجٍ، دفتَرٌ بغطاءٍ أسودَ قديم. يفتحه. يقرأ آخر جملةٍ كُتبت فيه:

↢ "الحياة ليست عدوّي. هي فقط لا تعرف أنني هنا."

يترك الدفتر مفتوحاً. ينادي على الكلب:

↢ ظلّ... تعال."

↢ يركض الكلب بخطًى صغيرةٍ، يقفز في حضنه. يمدّ فيصل أصابعه إلى أذنيه، يداعب وبره الدافئ. يشمّ رائحة جسده الصغير، رائحة لحمٍ وحيدٍ لا يشبهه أحد. يقول له:

↢ "يا صديقي، لو كان لك لسانٌ يشكو، لشكوتني... أليس كذلك؟"

يُغمض الكلب عينيه. يضع رأسه على صدره. يسمع دقّات قلبه المُضطربة. يرفع رأسه فجأةً، ينبح في وجهه، نباحاً خفيفاً مثل صفعةٍ تقول: "انهض!"

يُنهض فيصل جسده من مقعده. يفتح النافذة. البرد الليليّ يدخل صدره ويذكّره بأنّ صدره ما زال هنا، أنّه لم ينفجر بعد، لم يتعفّن بعد، لم يتسرّب منه الدم الذي حلم مراراً أن يراه يغادره دون أن يوقفه أحد.

في ليلةٍ شتويّةٍ طويلة، تكدّست الثلوج على الرصيف تحت شرفته. ظلّ فيصل يُحدّق فيها طويلاً. كانت الثلوج نقيّةً أكثر من ذاكرته التي أكلها الغبار. همس للكوب الذي برد بين يديه:

"أترى لو قفزتُ فوقها، هل ستكون أكثر رحمةً من إسفلتٍ قاسٍ؟"

لكنّه حين مدّ ساقه خارج الدرابزين، شعر بأنفاس ظلّ قرب كعبه. التفت. رآه جالساً، يحدّق فيه بتلك العينين – زجاجتين صغيرتين من وفاءٍ وحزنٍ.

- سحب قدمه ببطءٍ. همس له:
- "لن أدعك تحرس جسدي في الثلج... تعال."

عادا معاً إلى السرير. تمدّد فيصل. استلقى ظلّ عند قدميه. غطّاه بيدٍ مرتعشة. في تلك الليلة، حلم فيصل بشيءٍ غريب: حلم بحديقةٍ كبيرةٍ، وبابٍ خشبيٍ عتيقٍ فتحه له أحدٌ لم يتبيّن وجهه. دخلا معاً، هو وظلّه، بلا قيدٍ ولا حراسةٍ ولا وصايا. لم يرَ موتاً هناك، ولا حياةً. فقط عشبٌ طويلٌ يلامس ساقيه، ورائحةٌ خفيفةٌ تشبه صدر أمّه حين كان يغفو على ركبتها.

عند الفجر، استيقظ فيصل، تنفّس بعمقٍ، مدّ يده فوق فراء ظلّ. وجد قلبه يدقُّ بانتظامٍ غريبٍ كأنه تذكّر للتوّ أنّ عليه أن يعيش نهاراً آخر.

مرّت أيامٌ. صار فيصل يخرج قليلاً. يقف أمام باب شقّته نصف ساعةٍ قبل أن يدفعه بكتفه. يمشي في الشارع برأسٍ منحنٍ. يشتري علبةً جديدةً من طعام الكلاب. يعود بها، يفتحها، يسكبها في صحنٍ معدنيٍّ صغيرٍ، يراقب ظلّ وهو يلتهمها بنهمٍ بريءٍ. يبتسم له:

- "هكذا فقط، نُهزم الحياة – بلقمةٍ صغيرةٍ تسرقها من فم موتٍ أحمق."

في المساء، يغلق فيصل كلّ الأبواب، يطفئ المصابيح، يترك نوراً خافتاً يتسرّب من مصباح المطبخ الصغير. يجلس على الأرض. يسند ظهره إلى سريره. يدعو ظلّ ليقترب. يتمدّد الكلب نصفه فوق رجليه. يشعر فيصل بثقله الجميل. يقول له:

- "أتعرف يا ظلّ؟ كلّما حاولتُ أن أموت، أراك أنت تحيا أكثر. مَن منّا يُنقذ الآخر؟"

في ليلةٍ لا قمر فيها، يسمع فيصل طرقاً خفيفاً على نافذته. يظنّه وهماً. يقترب. يفتحها قليلاً. لا يرى أحداً. فقط رائحة شتاءٍ جديدٍ يتسلّل إلى صدره. يُغمض عينيه، يترك الريح تمرّ عبره، تسرق بعضاً من صمته الثقيل.

خلفه، يحرّك ظلّ ذيله. ينبح نباحاً قصيراً. يلتفت فيصل إليه، يبتسم، يُغلق النافذة. يهمس في صدره:

↢ "ليس الآن يا موت... عندي كلبٌ يحرسني."

↢ وهكذا صار فيصل ينام ويستيقظ وهو يُعيد رسم موته من جديد:

↢ مرةً يشدّ حبلاً في خياله، يجسّ متانته بأناملٍ لم تعد تثق بأي شيء. يتخيّل السقف الذي لم يتصدّع رغم شقوقه القديمة، كيف سيكون آخر ما يراه قبل أن يهوي قلبه من صدره، ويظلّ جسده معلّقاً يتأرجح كدميةٍ غطّاها الغبار.

↢ ومرّةً يتخيّل علوّاً، نافذةً مفتوحةً على فراغٍ بلا أرضٍ ولا صدى. يحسب المسافة بين قدميه والحجر الذي سيرتطم به ظهره حين تنقطع صلته بالهواء. يسأل نفسه: "هل سأسمع صوت ارتطامي أم سأصير مجرّد شهيقٍ خائبٍ في صدر الشارع؟"

↢ ومرّةً يدسّ علبة الحبوب تحت وسادته. يعدّ الأقراص كما يعدّ سنواته المضيّعة. يحلم أن يبتلعها واحدةً تلو الأخرى كمن يشرب ماءً مرّاً يغ

سل به روحه، ويترك شرايينه تغلق أبوابها على ضجيج الدم.

لكن عيني الكلب كانتا كافيتين لتؤجل النهاية، يوماً بعد يوم... عينان مثل فتحتين في الليل، تقولان له بصمتٍ حنونٍ ومرعبٍ في آنٍ معاً: "إن مُتَّ، من سيضع لي الطعام؟ من سيترك لي الباب موارباً إذا طالت الوحشة؟"

↢ كان الكلب، بحضوره الخفيّ، يزرع في روحه جذراً لم يفهمه. جذرٌ نبت من عظامه المرهَقة، صار يشدّه نحو السرير كلّما همَّ بمدّ يده إلى الباب الأخير.

فيصل الذي عاش بلا امرأةٍ تربّت على كتفه، بلا ابنٍ أو أخٍ يردّد اسمه في الممرّ، صار يُؤنسه هذا المخلوق الهامس بأنفاسه في ظلمةٍ ثقيلةٍ كجسدٍ يغمره صمتٌ قديمٌ.

- كان إذا مشى من غرفةٍ إلى أخرى، شعر بأن ظلّ الكلب يسبقه، كأنه يختبر له الطريق قبل أن تطأه قدمُه.

- إذا انطفأ نور المطبخ، كان يسمع صوته يهرّ خافتاً عند قدمه، يُذكّره أن لا جدوى من العتمة حين يشاركك أحدٌ نفس الجدار.

يقول فيصل لنفسه أحياناً: "لو كان لهذا الكلب لسانٌ لصرخ في وجهي: متى ترحل عني وتتركني أرعى خرابك وحدي؟"

- لكنّه لم يكن يرحل. لا الكلب ولا فيصل. كلاهما ظلَّ مرهوناً للآخر، كأن خيطاً سريّاً ربط قلبيهما في لحظةٍ لم يشهداها.

وفي تلك الليلة الأخيرة، حين خيّم البرد حتى على عظام الجدران، تمدّد فيصل على سريره كمن يسوّي جسده داخل نعشه. أغمض عينيه ليعيد رسم موته الأخير:

- رأى شقّاً في سقف الغرفة يتسّع مثل فمٍ يبتلعه ببطءٍ. شعر بأن دقّات قلبه تتناقص، كأنها تودّعه دون ضجيج. مدّ يده تحت الوسادة، تحسّس علبة الدواء، أمسك بها للحظةٍ ثم أعادها إلى مكانها كمن يُبعد كأس سمٍّ عن شفتيه. فتح عينيه قليلاً. رأى الكلب جالساً عند الباب. لم يتحرّك. لم يرمش. فقط كان يحرسه.

↢ قال له بصوتٍ لم يكد يسمعه: "غداً... غداً فقط، ثم لن ترى وجهي."

نام فيصل قليلاً، صحا على أصواتٍ غريبةٍ تتسلّل من خلف بابه. كان الفجر لم يكتمل بعد، والريح تضرب زجاج النافذة كأصابع نحيلةٍ تعبث بعظامه. جلس على حافة السرير، شعر بقدميه ثقيلتين كقطعتين من حجرٍ رطب. نظر إلى الكلب. كان الكلب واقفاً هذه المرّة، ينظر إلى الباب بترقّبٍ غامضٍ، ذيله ساكنٌ كأنّه شعر بضيفٍ لن يطرق الباب ككلّ مرة.

مدّ فيصل يده إلى المزلاج ببطءٍ، كأنه يفكّ قفل صدره لا باباً. فتحه قليلاً... وهناك رآه.

↢ لم يكن يتوقّع أحداً. لم يتوقّع شيئاً أصلاً. لكنه حين فتح الباب، وجد أمامه رجلاً عجوزاً، لم يعرفه. كان العجوز يحني ظهره، يرتدي معطفاً داكناً، يتّكئ على عصا خشبيّةٍ لها رأسٌ نحاسيٌّ باهت. رفع رأسه، رأى فيصل بعينين تلمعان كجمرٍ بعيد.

↢ لم يتكلّم الرجل. فقط مدّ يداً نحيلةً بيضاءَ، ورفع كفّه كمن يُسلّم على جدارٍ لا على رجل.

↢ تراجع فيصل خطوةً. حاول أن يتكلّم، لكن صوته التصق بحلقه.

تقدّم العجوز خطوةً إلى الداخل دون أن يُؤذن له. مشى فوق البلاط البارد كما لو أنّ البيت بيته منذ الأزل. سار إلى الممرّ الضيّق، عبر غرفة الجلوس الصغيرة، جلس على الكرسي الوحيد الذي لم يجلس عليه فيصل منذ شهور.

ظلّ الكلب واقفاً عند قدميه، يحرسه من بعيدٍ، يرفع رأسه نحوه، يشمّ رائحةً لم يعرفها من قبل. رائحةَ غبارٍ قديمٍ ممزوجٍ بعطرٍ باهتٍ يشبه رائحة خزانةٍ لم تُفتح منذ زمنٍ طويل.

سأل فيصل أخيراً:

- "مَن أنت؟"

رفع العجوز عينيه إليه، ثم أشار بسبابته إلى صدر فيصل، وقال بصوتٍ رخيمٍ كمن يتلو صلواتٍ قديمة:

- "أنا حارسك الأخير."

تجمّد الدم في عروق فيصل. شعر بأن الكلب تحرّك ببطءٍ وجلس عند قدم العجوز، يضع رأسه على حذائه كمن سلّم له الأمانة.

ارتبك فيصل. جلس على الأرض، أسند ظهره إلى الحائط. وضع كفّيه على وجهه، همس في صدره:

- "حارس؟ حارس مَن؟"

ردّ العجوز بنفس الصوت:

- "حين تخلى عنك كلّ حارس، أُرسل إليك هذا الكلب. وحين تعب الكلب من سهره، جئتُ أنا."

نظر فيصل إلى الكلب. التقت عيناهما للحظةٍ بدت كأنها امتدادُ زمنٍ

لم يولد فيه فيصل بعد. رأى في عينيه شيئاً لم يره من قبل: دمعةٌ صغيرةٌ لم تكتمل، تحفر مجراها فوق شعرٍ قصيرٍ مُتّسخٍ بحزنٍ صامت.

اقترب العجوز من فيصل، جلس على الأرض بجانبه، رفع كفّه النحيلة، وضعها فوق صدره، تحسّس دقّاته:

- "كلّ ليلةٍ ترسم موتك، لكن قلبك يظلُّ يخونك، يظلُّ يتعلّق بظلٍّ من وبرٍ ونباحٍ خافت.

- الليلة، لن ترسم موتك. الليلة، سأحرسه أنا عنك."

تراخت يد فيصل. شعر بأن جسده صار أخفّ من عباءته القديمة. كأن كتفيه خلعا عنهما حقيبة عمرٍ ثقيلٍ لم يعرف كيف يحمله. همس:

- "ماذا سيحدث للكلب؟"

ربّت العجوز على رأسه:

- "سيظلّ يحرس ذكراك. هذا قدر الحراس الصغار. لا يموتون معك. فقط يُكملون الليل وحدهم."

تمدّد فيصل فوق البلاط البارد. أسند العجوز رأسه إلى حضنه كأمٍّ لم تأته من قبل. غفا فيصل وهو يسمع أنفاس الكلب عند قدمه. شعر بأن صدره صار رطباً بنعاسٍ لا يشبه نومه القديم، لا يشبه الموت الذي ظلّ يرسمه ألف مرةٍ ولم يقوَ عليه.

حين انفتحت النافذة قليلاً بفعل ريحٍ عابرة، دخل خيط نورٍ رماديٌّ، سقط على وجهه مثل قبلةٍ لم ينتظرها.

- تنهّد العجوز، مدّ يده إلى الكلب، ربت على رأسه. قال له:

- "نم الآن، يا حارس الليل... نم."

لم ينبح الكلب. فقط أسند جسده الصغير إلى جسد فيصل، واستسلم لصمتٍ طويلٍ لم يسمع فيه سوى آخر دقّةٍ في صدرٍ لم يعرف أحدٌ كيف ظلّ حيّاً كلّ هذه السنين.

وهكذا انتهى رسم الموت، لا حبلاً ولا نافذةً ولا دواءً... بل ظلّ، ويدٌ عجوزةٌ رحيمةٌ، وكلبٌ يُسدِل نباحه الأخير على جثةٍ لم يعد يخافها أحد.

القسم الرابع

كان صباحاً خافتاً لا لون له، كأن الفجر ذاته لم يشأ أن يشهد على ما ينويه فيصل. استيقظ وفي صدره حجرٌ ثقيل، حجرٌ اعتنى به طوال لياليه الموحشة حتى صار صديقاً للصمت والوحدة واليأس. كان الحجر هناك، يتكوّر كلّما حاول أن يتنفس، كأنّه كتلةٌ من زمنٍ رطبٍ التصق بجدار قلبه ولم يجد ما يغسله.

جرّ قدميه عن السرير ببطءٍ كمن يجرّ قدمي مسجونٍ إلى بابٍ مواربٍ. مرّ بأصابعه على شعره الكثيف المائل إلى الشيب المبكّر، حكّ فروة رأسه بكسلٍ يشبه رثاءً صغيراً لجسدٍ لا يعرف كيف يعترف بخسارته.

وقف أمام نافذته العالية. زجاجها كان معتماً من أثر الغبار المتراكم، رسم عليه بإصبعه خطاً تافهاً، ثم مسحه بكمّ قميصه الملوّث ببقايا ليلةٍ نام فيها نصفه وبقي نصفه الآخر مستيقظاً يحرس أفكاره السوداء. تذكّر أن نافذته هذه هي الوحيدة التي سمحت له برؤية المدينة دون أن تراه. كانت شرفته ضيّقةً

مثل ضلعه المكسور: ملاذٌ هشّ لا يُنقذه من سقطةٍ إن اختار أن يميل أكثر مما ينبغي.

في الزاوية القريبة من السرير، تمدّد كلبه – ذاك الذي صار ظلّه الثاني، وصار، من حيث لا يدري، آخر صلةٍ له بدمٍ دافئٍ ينبض قربه. فتح الكلب عيناً واحدةً حين شعر بحركة فيصل، أطلق تنهيدةً قصيرةً كأنه يقول له: "أنا هنا... لن تجرؤ."

لم يقل فيصل شيئاً. جرّ جسده إلى المطبخ. صبّ ماءً في إبريقٍ صغيرٍ من الألمنيوم، أشعل الغاز، وضع الإبريق فوق لهبٍ خافتٍ يشبه قلبه. راقب الفقاعات تتشكّل على سطح الماء، وتنفجر واحدةً تلو الأخرى مثل أمانيه الصغيرة التي حفظها في زوايا رأسه ثم سُرقت منه، واحدةً تلو الأخرى، بلا صرخةٍ ولا احتجاج.

أخرج من جيبه ورقةً قديمةً، طيّاتها ممزّقةٌ عند الحواف، ملوّنةٌ ببقع شايٍ جفّ في ليالٍ سابقة. فتحها ببطءٍ كأنه يفتح قبراً صغيراً. قرأ السطر الأول:

- "إلى من سيقرأ بعدي..."

- توقّف هناك. لم يُكمل. مزّق الورقة إلى نصفين، ثم أربع، ثم ثمانٍ. بعثرها فوق الطاولة. وضع فوقها الكوب الفارغ، كأنه يحبس فيها اعترافاً لم يجرؤ على إرساله.

عاد إلى غرفته. وقف عند المرآة الصغيرة المسمّرة على الجدار بغير

اكتراث. نظر إلى وجهه: شحوبٌ كظلّ حائطٍ مبلّلٍ، عينان مطفأتان إلا من بقايا يقظةٍ لا يعرف كيف يطفئها تماماً. رفع كفّه، مسح على ذقنه التي نبتت عشوائيةً مثل حقلٍ تركه فلاحٌ وغاب.

في الليل، حين يعود الفجر من حيث جاء، كان فيصل يشعل مصباحاً صغيراً قرب سريره. يمدّ يده تحته، يتحسس الحجر في صدره، يربت عليه بأصابع مرتعشةٍ كمن يربّت على كتف صديقٍ لم يزره أحدٌ سواه. كان يعرف أن هذا الحجر صار كلّ ما يملكه من إرثٍ في هذه الدنيا: ثقله يضمن له ألا يطير فجأةً فيغادر جسده.

وحين يغمض عينيه، كانت الكوابيس تُضيّق رئتيه. يرى نفسه يسقط من شرفته، ثم يستفيق قبل الارتطام بلحظةٍ كأن جسده لا يريد له تلك النهاية السريعة. يرى جسده معلقاً بحبلٍ يلوّح له من سقف المطبخ، وحين يمدّ يده نحو الحبل، يسمع نباح الكلب يصرعه إلى الأرض من جديد.

يسأل نفسه: "لِمَ لا أمتلك شجاعة الخلاص؟"

ثم يجيب نفسه بصوتٍ لا يسمعه سواه: "لأنني جبانٌ في الفقد أكثر مني في الموت."

تمرّ الأيام. صباحاتٌ مثل هذا الصباح، رماديةٌ، صامتةٌ، ثقيلةٌ برائحة الخبز المحترق والقهوة المرة التي لا يشربها فيصل أبداً للنهاية. يسكب نصفها في المجلى، يُراقبها وهي تجرف فتات الرغيف الوحيد الذي بقي له من الليل.

في المساء، يفتح باب شقّته كمن يختبر الهواء. يخطو إلى الممرّ الذي يربطه ببقية البناية، يستمع إلى وقع خطاه فوق البلاط المكسور. يتذكّر وجه جاره القديم الذي مات وحيداً في شقّته ولم ينتبه إليه أحدٌ إلا بعد أسبوعٍ كاملٍ حين فاحت رائحة جسده من تحت الباب.

↢ يهمس لنفسه: "لن أتركهم يشمّون رائحتي هكذا... سأسبقهم قبل أن يتأفّفوا من موتي."

حين يعود، يجد الكلب عند الباب، ينظر إليه كمن يقول: "كيف تخرج دون أن تأخذني معك؟"

↢ ينحني فيصل، يربّت على رأسه، يهمس له: "اصبر عليّ... الليل طويلٌ بعد."

مرّةً، تذكّر أن له هاتفاً محمولاً مغطّى بطبقة غبارٍ سميكة. بحث عنه في درجٍ قرب سريره، أخرجه، نفخ فيه بقايا السنوات. قلبه بين يديه كحجرٍ آخر، لكنه هذه المرّة حجرٌ يرنّ ولا يجيبه أحد. فتح لائحة الأسماء: أسماءٌ بلا وجوه، أرقامٌ صامتةٌ لم يجرؤ أن يجرّبها.

اختار رقماً قديماً. رقماً يعرف أن صاحبه مات قبل أن يموت فيصل ألف مرّةٍ من الداخل. وضع إصبعه على زرّ الاتصال. انتظر ثانيةً واحدةً ثم أغلق الخطّ قبل أن يبدأ الرنين. ألقى الهاتف في سلّة المهملات كمن يتخلّى عن شاهدٍ على عزلته.

عاد إلى نافذته العالية. فتحها قليلاً. أدخل وجهه في الفضاء الرماديّ الذي لا يعده بشيء. مدّ رأسه أكثر. شعر ببرودةٍ تسللت إلى أذنيه. كادت يداه تلتفّان حول حافة النافذة، لولا أن سمع من خلفه صوت أظافر الكلب تخدش الأرض، ثم تنهيدةٌ ثقيلةٌ خفيفةٌ تردّه إلى الداخل.

أغلق النافذة. استدار إلى الكلب. جلس أمامه على الأرض. وضع جبينه على فروه الدافئ. تمتم له:

- "أتعرف؟ هذا الحجر الذي في صدري أثقل من جسدي. لكنه لا يغرقني إلى النهاية. فقط يُبقيني هنا... لأراك."

ومرّت أيامٌ أخرى. صار فيصل يعتاد أن يحمل الحجر معه من غرفةٍ إلى أخرى. يحمله معه إلى مطبخه، إلى كرسيه الوحيد، إلى سريره الذي لا يسعه ليلٌ آخر. وصار الكلب يرافقه، يمدّ رأسه الصغير قرب قدمه، ينام على عتبة الغرفة كمن يحرُس اعترافاً أخيراً لم يُكتب بعد.

في ذات صباحٍ بلا لونٍ، فتح فيصل الباب. وجد أمامه مرايا كثيرة. لم تكن مرايا زجاجٍ، بل وجوه الناس الذين مرّ بهم طوال عمره، عادوا إليه فجأةً بلا صوت. رأى أمّه في وقفتها القديمة عند عتبة المطبخ. رأى أباه يجلس على حافة السرير يحدّق فيه بصمتٍ طويل. رأى ظلّه صغيراً يلعب وحده في ساحة المدرسة القديمة التي صارت أطلالاً في عقله.

- رمش فيصل بعينيه، أغلق الباب بسرعةٍ، ثم فتحه مرةً أخرى. لم يجد إلا الكلب أمامه، يهزّ ذيله، ينظر إليه بعينين خاليتين من المرآة.

همس فيصل لنفسه: "هذا الصباح ليس شاهداً عليّ... أنا الشاهد الوحيد."

عاد إلى حجره الثقيل. حمله في صدره كمن يحمل آخر صكّ ملكيةٍ في هذا العالم. جلس إلى كرسيه الخشبي. أراح رأسه على كفّه. نظر إلى الكلب الذي تمدّد قربه من جديد. أغمض عينيه ببطءٍ، شعر بأن الحجر صار يذوب رويداً رويداً، ليس لأن اليأس رحل، بل لأن روحه صارت أخفّ من أن تحتمل كل هذا الثقل وحدها.

نهض بخطى مترددة، غسل وجهه الذي لم يره الماء إلا مجاملةً. كان يفرك جبهته بباطن كفّه كأنه يمحو بها بقية حُمىٍ علقت هناك منذ آخر حلمٍ لم يكتمل.

حين جفّف ملامحه بمنشفةٍ قاسيةٍ من كثرة ما نُسيت على مسمارٍ خلف الباب، تردّد لحظةً قبل أن يقف أمام المرآة الصغيرة المسمّرة بصدأٍ خافت. لم ينظر في المرآة - كان يخشى أن يرى خلف عينيه ظلّه وهو يسقط قبل أن يسقط. كان يعلم أن الوجوه لا تقول الحقيقة إلا عندما ترتجف، ووجهه ما عاد يعرف كيف يهتزّ.

ارتدى معطفه الرماديّ الذي لم يلبسه إلا في أسوأ أيامه. كان معطفاً ثقيلاً، بجيوبٍ واسعةٍ كأنها خُلقت لتُخفي أسراراً أو سكاكين أو رسائل قصيرةٍ مكتوبةٍ على عجل. وضع ذراعيه في كُمّيه كما يضع إنسانٌ يديه في جيب قبره، جرّ أطرافه حتى غطّى بها عظام صدره العارية من الدفء.

تفقّد جيوبه، لم يبحث عن محفظة أو مفاتيح، بل تحسّس جيباً صغيراً خبأ فيه ورقةً قصيرةً كتب فيها جملةً يتيمة:

- "سامحوني..."

قرأها دون أن يخرجها، كان يحفظ انحناءات حروفها كأنه نقشها بسكّينٍ لا بقلم. همس في صدره: "مَن سيسامح؟ وأي ذنبٍ يحتاج أن يُغفر بعد أن تُطفأ الأنفاس؟"

- ثم أغلق قبضته على الورقة كأنه يغلق الباب الأخير على بقاياه.

في الصالة الضيّقة، كان كلبه ينتظر. يجلس قُرب المدفأة الباردة، رأسه مائلٌ قليلاً، يرمقه بصمتٍ أثقل من أيّ عتاب. خُيّل لفيصل أن عيني الكلب تسألان: "إلى أين؟" ولم يكن عنده جوابٌ. لا أحد يسأل الهارب إلى أين، ولا أحد ينتظره في الجهة الأخرى من السقوط.

اقترب منه، جلس القرفصاء أمامه، وضع كفّه فوق رأسه الدافئ. شعر بحرارةٍ طفيفةٍ تنفذ من وبره إلى عظام أصابعه. قال له بصوتٍ خرج مبحوحاً:

- "لو كان لك لسانٌ يُهدي العتاب، لربما متُّ منذ زمنٍ..."

نهض فيصل. فتح الباب ببطءٍ. تأكّد أن مفاصله لم تصدر صوتاً قد يوقظ شيئاً في داخله. خرج إلى الدرج البارد، أطفأ النور خلفه، أغلق الباب دون أن يلتفت. ظلّ واقفاً لحظةً يُصغي: من خلف الباب جاءه نباحٌ قصيرٌ، خافتٌ كدمعةٍ لم تجد خدّاً تسيل عليه.

هبط الدرج كسجينٍ يقترب من ساحة إعدامه: خطوتان... توقّف. خطوتان أخريان... يده على الدرابزين الخشبيّ الذي صار أكثر تشقّقاً من ذاكرته. استند عليه. شعر بخشونة الخشب تحفر في كفّه شقوقاً صغيرةً، كأنه يُسلّم جلده للبرد عمداً.

حين خرج إلى الشارع، رآه كما لم يره من قبل: بلا أرصفةٍ تقريباً، بلا أبوابٍ مُشرَعة، بلا عيونٍ تتفقد العابرين. كانت المصابيح الشاحبة تُلقي بظلالٍ طويلةٍ لا تعرف إلى أي قبرٍ تهرب. رفع ياقة معطفه، دسّ ذقنه فيها، مشى بلا هدفٍ ظاهر، لكن قدميه كانتا تعرفان الطريق جيّداً: الطريق الذي ينتهي عند حافة.

كان الفجر يحاول أن يولد خلف عماراتٍ نائمةٍ، لكنه بدا هشّاً، كأن الضوء نفسه يختبر خجله. عبر فيصل الشارع الوحيد، تخطّى حاويةً ملأى ببقايا أمسٍ لم يعد صالحاً حتى ليتعفّن بكرامة. شمّ رائحة القمامة مختلطةً برائحة مطرٍ لم ينزل بعد. ضحك في سرّه: "حتى السماء ترفض أن تغسل هذه المدينة من خطاياها الصغيرة..."

وصل إلى الجسر المهجور. ذاك الجسر الذي مرّ تحته ألف مرّةٍ ولم يرفَع رأسه ليرى ارتفاعه. الآن فقط رفع عينيه. حدّق في الدرابزين الحديديّ الذي صار أملسَ من كثرة أيادٍ لم يكن يعرف إن كانت قد لمسته قبله أو أفلتته في اللحظة الأخيرة.

مدّ يده، تحسّس الحديد البارد، شعر برجفةٍ خفيفةٍ تصعد من كفّه إلى

مرفقه، ثم إلى كتفه، ثم تستقرّ كخنجرٍ صغيرٍ في رقبته. أغلق عينيه ثانيةً، لم يتذكّر إلا شيئاً واحداً: الكلب الذي تركه دون طعامٍ يكفيه ليومٍ آخر.

فتح عينيه. نظر إلى الأرض البعيدة تحته. كانت الظلال فيها أشبه ببحرٍ داكنٍ لا قاع له. سأل نفسه: "هل ستحتويني كما لم تحتوي روحي حجراً في صدرها؟"

↢ ثم تراجع خطوةً. سمع صرير حذائه على إسفلتٍ مبتلٍّ بعرَقٍ باردٍ، لم يكن مطراً. همس: "هكذا يخاف الجسد أكثر مما يحلم الرأس..."

مدّ يده إلى جيبه. أخرج الورقة الصغيرة. بسطها بين أصابعه. لم تهتزّ كثيراً. كانت كلمته "سامحوني..." أكبر من كلّ الكلمات التي لم يقلها حين كانت لديه فرصة أن يقولها وهو واقفٌ على الأرض.

طواها من جديد، دسّها في جيبه، تحسّسها كمن يتحسّس آخر رصاصةٍ في جيب جنديٍ خاسرٍ في حربٍ لم يعلنها أحدٌ.

أغلق يده على الدرابزين. شبك أصابعه حول الحديد. رفع جسده قليلاً، تردّد. شعر بثقل معطفه الرماديّ يشدّه نزولاً قبل أن يقفز هو بنفسه. للحظةٍ تردّد أن ينزعه، لكنّه ابتسم بمرارةٍ: "وما الفرق؟ الموت لا يهتمّ بما ترتديه...".

سمع صوتاً بعيداً. تردّد الصوت كنباحٍ واهنٍ جاءه من تحت جلده لا من الشارع. التفت خلفه – لم يرَ أحداً، فقط الريح تحرّك بقايا ورقٍ عالقٍ في سياج

الجسر. حاول أن يقنع نفسه أن الكلب ليس هنا، أن الكلب لن يلحق به إلى هذا العلوّ، لكن شيئاً في صدره صرخ: "سيظلّ ينتظر عند الباب حتى ولو لم تعد.".

انزلقت يده عن الدرابزين. تراجع نصف خطوة. أدار رأسه إلى السماء الرمادية، لم يرَ نجمةً ولا قمراً. ابتسم – تلك الابتسامة التي تأتيك فجأةً حين تُدرك أن الليل لن يمنحك أكثر مما منحتَه من سهرٍ وحجارةٍ ثقيلةٍ في الصدر.

وضع كفّه على قلبه. شعر بالنبض، نبضٌ ضئيلٌ كأنه طرقٌ خافتٌ يطلب إذن الرحيل. مدّ يده الأخرى إلى جيبه، أخرج الورقة. مزّقها ببطءٍ، راقب القصاصات الصغيرة تتناثر في الهواء، تسقط مثل وريقات شجرةٍ عجوزٍ فقدت كلّ أوراقها فجأةً.

عاد إلى حافة الجسر. وضع يده على الحديد. أغلق عينيه. تخيّل الكلب نائماً قرب الباب، أنفاسه تتردّد في الغرفة الباردة كصلاةٍ أخيرةٍ على غائبٍ لم يُعلن موته رسميّاً بعد.

في اللحظة التي همّ فيها أن يترك الأرض، سمع شيئاً يشبه الخطو. فتح عينيه بسرعةٍ – لم يكن هناك أحدٌ إلا ظلاله المنعكسة على سور الجسر. لكنّه شعر بلمسةٍ خفيفةٍ على قفاه، كأن يداً خفيّةً تُمسك برقبة معطفه الرماديّ وتقول له: "ليس بعد..."

في تلك اللحظة فقط، بكى فيصل – لا خوفاً من الموت، بل خجلاً من الكلب الذي سيظلّ ينتظر الباب حتى الفجر، ومن الورقة التي لن يجدها أحد، ومن معطفه الذي لم يجد فيه جيباً يُخفيه من نفسه.

حين عاد إلى بيته، لم يكن الصباح قد استيقظ بعد. فتح الباب بصمت. الكلب كان هناك، في مكانه نفسه، يرفع رأسه، يهزّ ذيله ببطءٍ كأنه يهمس له: "رجعت؟"

جلس فيصل إلى جواره على الأرض. خلع معطفه. أسند رأسه إلى الحائط. مدّ يده إلى فراء الكلب. أغلق عينيه. همس له:

- "غداً... غداً ربّما أجرؤ. لكن الليلة... اسمح لي أن أبقى."

وقف عند الباب الكبير للقصر الذي صار يشبه نعشاً يتنفّس. كان القصر في ما مضى علامةً على اتساعه الداخلي، زهواً ممدوداً من حجرٍ وحديدٍ وخشبٍ مسنونٍ بعرَق البنّائين الأوائل. أما اليوم، فلم يكن القصر إلا ضلعاً من ضلوعه المكسورة، يحيطه صمتٌ كثيفٌ لا يقطعه سوى صدى خطواته البطيئة بين جدرانه العارية.

مدّ يده إلى المقبض النحاسي البارد - ذلك المقبض الذي فتح له الدنيا وأغلقها عليه مراراً. كم من ضحكةٍ مرت من تحته؟ كم من صيحةٍ خرجت منه لتُعيده إلى عزلته الأولى؟ صار يعرف أن المقبض صار يشبه عظمة كتفه: باردٌ، أملسٌ من كثرة اللمس، معطوبٌ من الداخل.

شدّ أنفاسه، أغلق عينيه لحظةً كأنه يودّع كل شيء بلا دمعةٍ ولا رجفة. أراد أن يقول لنفسه إنه لم يكن يوماً صاحب هذا القصر. القصور لا تملك أصحاباً. هي بيوتٌ بأبوابٍ كثيرةٍ تقفل وحدها على أناسٍ يصيرون مع الوقت حجراً آخر في حيطانها العتيقة.

فتح الباب ببطءٍ. لم يُحدث صريراً، كأنه يعتذر عن إيقاظ أرواحٍ تركها هنا منذ زمنٍ طويل. خرج نصف خطوة، ثم توقّف. التفت إلى الرواق الطويل خلفه، تأمّل الدرج الرخاميّ الذي فقد بريقه، نظر إلى الثريا المطفأة منذ أعوامٍ، والتي ما زالت تتدلّى من سقفٍ لم يعد يكترث إذا تشقّق أو انهدّ.

تذكّر أوّل ليلةٍ عاد فيها إلى هذا القصر بعد موت أبيه. كان شاباً ضائعاً، يحمل شهادةً جامعيةً لم تُسعفه أن يكون أقلّ من ظلال أبيه وأكثر من سُلالته. يومها، ظنّ أنّه سيعيد ترتيب الحجرات، سيكسر الأبواب الموصدة، سيُشعل النور في الصالونات التي تراكم فيها غبار ثلاث جنائز متوالية. لكنّ الليل انتصر عليه قبل أن يشعل مصباحاً واحداً.

خطا خطوةً إلى الخارج، شعر بالهواء الليليّ يضرب وجهه. هواءٌ غريبٌ لا يشبه هواء حدائق القصر التي ذبلت أشجارها تحت ثقل العتمة. رفع رأسه قليلاً، رأى السماء محايدةً، نجومٌ باهتةٌ متفرّقة، كأنها حفرٌ صغيرةٌ في قماشٍ أسودٍ ممدودٍ فوق رأسه.

أدار وجهه نحو الحديقة الأمامية. كانت الأرض مبللةً بندى الليل، تتبعها خطوطٌ صغيرةٌ من الأعشاب اليابسة التي قاومت مقصّ البستاني العجوز، ثم مات البستاني وبقيت هي لتشهد وحدتها.

أغلق الباب وراءه. لم يدفعه بقوةٍ، تركه يُغلق نفسه بنفسه، كأنه يسلّم القصر لصمتٍ لن يجرؤ أحدٌ بعده أن يوقظه. وضع كفّه على جيب معطفه الرماديّ، تحسّس الورقة التي لم يقرأها أحدٌ بعد، تلك الكلمة اليتيمة: "سامحوني". همس لنفسه: "لن يقرأها أحد. ولن يُسامح أحدٌ أحداً بعد الليلة".

تقدّم نحو البوابة الحديدية الكبيرة. كان المفتاح معلقاً في سلسلةٍ صغيرةٍ داخل جيبه الداخلي. أخرجه ببطء، تأمّل المفتاح كما يتأمّل سجينٌ بوابةَ سجنه: يعلم أنه سيخرج، لكنه يعرف أن الخارج ليس أكثر من ساحةٍ أوسع لسجنٍ آخر. أدخل المفتاح في القفل، لفّه نصف دورةٍ، سمع طقطقةً خفيفةً تذكّره أن الحديد ما زال يئنّ إذا استيقظ من نومه الطويل.

حين خرج إلى الطريق الترابيّ، التفت للخلف مرّةً أخيرةً. رأى القصر كله من بعيد، كأنه هيكلٌ عظميٌّ لذئبٍ أسطوريٍّ مات واقفاً. النوافذ كعيونٍ عمياء، الأبواب كأفواهٍ نصف مفتوحةٍ على أسرارٍ لم تُكتَب، ولا أحد يريد لها أن تُكتَب.

تذكّر صوت أمّه وهي تقول له ذات ليلةٍ قديمة: "القصر لا يُحِبّ من لا يُحِبّه." ابتسم بسخريةٍ كأنّه يسمعها تُهمس له من ظلال الجدران: "ولماذا أحببتُه أنا؟"

مشى خطواتٍ بطيئةً في الطريق الضيّق. كانت حجارة الطريق تئنّ تحت حذائه، تُعيد له صدى كلّ ليلةٍ تأخّر فيها عن البيت، كلّ فجرٍ عاد فيه محمّلاً بخيباتٍ صغيرةٍ وكؤوسٍ لم يكملها. على جانبي الطريق أشجارٌ عاريةٌ من خضرتها، كأنّها تحني أغصانها لتشيّعه بلا تراتيل.

على مسافةٍ قصيرةٍ من البوابة الخارجية، توقّف فجأةً. شعر بشيءٍ يلامس كاحله. نظر إلى الأسفل: كان الكلب، ذيله يهتزّ بخفةٍ، أنفاسه تتردّد في الليل كرائحةٍ صغيرةٍ للدفء الذي تركه وراءه. كيف تبعَه؟ كيف تسلّل من ركنه المعتاد قرب المدفأة الباردة؟ كيف اجتاز الباب الذي ظنّ أنّه أغلقه عليه كي لا يراه يسقط وحده؟

جثا فيصل على ركبتيه. وضع كفّه على ظهر الكلب، شعر بحرارته تنفذ إلى صدره الذي صار منذ زمنٍ خزاناً للحجر فقط. همس له كأنه يعتذر: "لم يكن ينبغي أن تخرج. الليل ليس لك. الليل لي وحدي."

لكنّ الكلب ظلّ ساكناً، يُحدّق فيه بعينين تلوّن فيهما الخوف بحنوٍّ أخرس. لامس بأنفه طرف معطفه، كأنه يُذكّره أنه لن يسقط وحده إن أصرّ على السقوط.

جلس فيصل هناك، عند حافة الطريق، قرب بوابةٍ صدئةٍ لم تُفتح إلا ليخرج منها إلى الظلمة. أراح ظهره على الحائط الخارجيّ للقصر. ضمّ الكلب إلى صدره. تنفّس بعمقٍ. شعر للمرّة الأولى أن الحجر في صدره صار أخفّ قليلاً، لا لأن الحياة صارت أوسع، بل لأن هذا الكائن الصغير منح للبرد رائحةً لا تُشبه رائحة الموت.

رفع رأسه إلى السماء. رأى نجمةً واحدةً تعاند الليل. ابتسم لها ابتسامةً لم يرَها أحدٌ. أغلق عينيه، مدّ يده إلى جيب الورقة، أخرجها، مزّقها بين أصابعه، نثرها فوق شعر الكلب كأنها ثلجٌ خفيفٌ سيتلاشى قبل أن يلامس الأرض.

قال لهم في صدره: "لن أسامحكم... ولن تنتظروا غفراناً منّي بعد الآن."

ومع أوّل خيطٍ باهتٍ للفجر، جلس فيصل هناك، كتفٌ إلى حجر القصر، قلبٌ إلى جسد الكلب، وأنفاسٌ تتسلّل من صدرٍ ما زال، رغم كلّ شيء، يتردّد في أن يترك الحياة كلّها تسقط عنه دفعةً واحدة.

وحين لفّ المقبض وبدأ يدفع الباب ببطء، شعر بشيءٍ دافئٍ يعيق حركته. كان الباب يئنّ في مفصلاته كما لو أنّه يعتذر عن انفتاحٍ لا يليق بنهايةٍ أُعدّت بصمتٍ وعنادٍ. شدّ قبضته أكثر، دفع بكتفه النحيل ليدفع باباً أثقل من جسده بكامله، لكن الباب أبى أن ينفتح، لم يقاومه الحديد وحده، بل ذلك الدفء الذي التصق بأسفله كعُشبةٍ خضراء تنبت من شقٍّ في حائطٍ ميت.

فتح عينيه فرأى كلبه الواقف هناك: واقفاً كجدارٍ حي، رأسه مرفوعٌ، صدره مُنتفخٌ بأنفاسٍ لم يعرفها فيه من قبل. كأنه منذ تلك الليلة التي التقطه فيها جرواً تائهاً عند عتبة دكانٍ مغلقٍ، كان يُهيّئ نفسه ليومٍ كهذا: يومٍ يقف فيه بوجه ظلّ صاحبه، لا بوجه لصٍّ أو متشرّد.

عيناه ثاقبتان – ليستا عيني كلبٍ بل عيني ملاكٍ هبط ليمسك بروحه قبل أن تسقط. لم يرَ فيهما خوفاً ولا استعطافاً، بل رآهما مرآةً صغيرةً لنفسه حين كان يعرف كيف ينظر في عيون الناس من دون أن يتهجّى على شفتيه كلمةَ " انتهيت".

قال فيصل لنفسه:

- "تحرّك... تحرّك..."

- لكن صوته خرج كخريرٍ من قاع بئرٍ جافّة. بدا له الأمر سخيفاً: أن يأمر جسداً بارداً أن يتحرّك بينما الروح فيه أطفأت مصابيحها منذ زمنٍ بعيد.

حاول أن يدفعه جانباً بقدمه، لكن الكلب لم يتزحزح. لم ينبح، ولم يزمجر،

فقط شدّ ساقيه في الأرض كمن يغرس جذوره في التراب ولا يعترف للريح أن له جسداً هشّاً يمكن اقتلاعه.

تراجع فيصل خطوةً، شعر بظهره يصطدم بحافة الباب البارد. للحظةٍ غريبةٍ أحسّ أنّ الباب صار يقسو عليه أيضاً: لم يعد منفذاً، بل جداراً آخر يُعيده إلى الداخل، إلى الرطوبة الممدّدة في قلب القصر، إلى الغرف التي لم يعد فيها صوتٌ سوى ارتطام أفكاره ببعضها.

أرخى كتفيه. تأمّل الكلب طويلاً، لمح في عينيه ظلّ الشرفة العالية التي وقف عندها ليلةً كاملةً يحسب فيها كم ثانيةً تفصل بين جسده والأرض إن ألقى بنفسه كحجرٍ من طينٍ هشّ. تذكّر كيف هرول الكلب يومها إليه، كيف عضّ حافة بنطاله، وكيف جرّه إلى الداخل بغير صوتٍ، تاركاً أنيابه الصغيرة تحفر في قماشٍ رخيصٍ صار منذ تلك اللحظة أغلى ما يملك.

مرّر يده فوق رأس الكلب، شعر بأنفاسه الساخنة تصعد في كفّه وتترك في جلده علامةً تُشبه قُبلةً مُستعجلةٍ من حياةٍ لا تريد أن تُغادره كلّها دفعةً واحدة. في تلك اللحظة فقط، سأل نفسه إن كان حقّاً يريد أن يرحل، أم أنّه يريد أن يُعاقب كل ما تركه عالقاً هنا من بشرٍ وجدرانٍ وكلابٍ وذنوبٍ نصف مكتملة.

قال له همساً:

- "اتركني... لن تفهم..."

- لكن الكلب فهم. أو على الأقلّ تظاهر بأنّه لم يفهم ليسمح له أن يقول لنفسه ما لم يقلْه لأحد. زفر فيصل زفرةً ثقيلةً كأنها بقايا كلماتٍ عجزت عن أن

تصير اعترافاً صريحاً، ثم انحنى، أسند جبينه إلى رأس الكلب، أغمض عينيه، وتمنّى لو أنّه يستطيع أن يُدفن هنا، في حضنٍ لا يسأل.

في مكانٍ آخر من ذاكرته، تذكّر يد أمّه وهي تُصلّي له في ظلمةٍ بعيدةٍ، تُدندن دعاءً مكسوراً، نصفه رجاءٌ ونصفه فزعٌ من ابنٍ رآته يكبر على مهلٍ نحو حافةٍ لم تعرف كيف تحميه منها. تذكّر تلك اليد التي كانت تلمس رأسه كل ليلةٍ قبل النوم، اليد التي لم تسحبّه من بابٍ كان على وشك أن يُفتح على الفراغ. وحده هذا الكلب ورث تلك اليد من دون أن يُدرك.

جلس على عتبة الباب، مدّ رجليه أمامه. أسند ظهره إلى خشبٍ صار بارداً رغم دفء الداخل. الكلب استدار نحوه، استدار نحوه بكامله، استلقى على قائمتيه الأماميتين، ووضع ذقنه فوق حذاء صاحبه كأنه يسدّ عليه طريق الهروب. في تلك اللحظة شعر فيصل أنّ قلبه، الذي كان قطعة حجرٍ منذ دهرٍ، صار يهتزّ تحت ضلوعه: ليس لنجاةٍ كبرى، بل لتلك النجاة الصغيرة التي منحتها له أنفاس هذا الكائن الوحيد.

رفع رأسه نحو سقف الممرّ، لاحظ خيوط العنكبوت التي تربط زوايا الباب بالحيطان. خيّل إليه أنّه هو نفسه خيطٌ رقيقٌ بين حافتين: بين عتبةٍ تُغريه بالخروج الأبديّ، وصدر كلبٍ لا يفاوضه إلا بأنفاسٍ صغيرةٍ تقول: "ابْقَ... ليس الآن... ليس بعد".

مرّت دقائق لم يعرف كيف يقيسها. شعر أنّ الزمن صار يلفّه ببطانيةٍ رطبةٍ من صمتٍ طويل. في داخله اشتعلت فكرةٌ مجنونة: ماذا لو قام، أغلق

الباب، وانكفأ إلى ظلال القصر مرّةً أخرى؟ ماذا لو سلّم نفسه لفجرٍ بطيءٍ يأتيه من نافذةٍ عاليةٍ لا تُطلّ إلا على شجرةٍ ذابلةٍ في الحديقة الخلفية؟ ماذا لو عاش يوماً إضافيّاً فقط لأن كلباً صادَفَ أن أحبه أكثر من أن يتركه ينقرض وحده؟

حين نهض أخيراً، لم يدفع الكلب. لم يأمره أن يتحرّك. فقط سار خطوةً إلى الوراء، فانزلق الكلب معه كظلٍّ يقيس مسافة التراجع بطمأنينةٍ لا تُشبه أيَّ هزيمة. في تلك اللحظة شعر فيصل أن للخطوة إلى الوراء وزناً أكبر من قفزةٍ في هواءٍ خائنٍ لا يحمل الأجساد بل يُسقطها.

عاد إلى الداخل. أغلق الباب، وضع يده على المقبض النحاسيّ الذي صار الآن يُشبه يده: بارداً في الظاهر، ملتهباً في الداخل بما تبقّى من حرارةٍ لم تبرّدها المسافة.

- انحنى ناحية الكلب، قال له:
- "ليلةٌ أخرى... فقط ليلةٌ أخرى."

ومشى بهدوءٍ نحو الدرج الرخاميّ. خطى فوق صريره المعتاد. شعر بأن صدى خطواته صار أقلّ صلابةً من قبل، كأنه يتعلّم من جديد أن الأرض، مهما بَرُدَت، أقلّ غدراً من الفراغ.

نام فيصل تلك الليلة قرب بابٍ لم يُفتَح. قرب كلبٍ صار أثقل من الموت. قرب حجرٍ في صدره صار أقلّ قسوةً لأن في صدره أنفاساً دافئةً لا تقول شيئاً سوى: "هنا... هنا فقط... ابقَ هنا."

زمجر بجرأةٍ لم يعرفها فيه من قبل. ذاك الكلب الذي اعتاد أن ينام عند حافة المدفأة الباردة، أو يلاحق ذيله في المساحة الوحيدة المسموح له بها من القصر الموحش، صار الآن كتلةً من لحم نابضٍ بوفاءٍ مُتوحّشٍ، ينبش في صدر الليل زمجرةً لم تتعلّمها كلابُ الحراسة بل تلقّنتها من فرط العزلة.

رفع قائمتيه الأماميتين وارتكز على صدر سيده، شدّ معطفه بأسنانه كأنه ينتزع الموت منه عنوةً. كانت أسنانه الصغيرة تغرس خيوطها في طرف المعطف الرماديّ، تشدّه إلى الوراء بغلٍّ يشبه غلّ شجرةٍ يابسةٍ تجذب جذعها من فأسٍ وُجّه إليها.

ارتعد فيصل. لم يرتعد من البرد، بل من فكرة أن كائناً واهناً مثله صار فجأةً أقوى من كلِّ موتٍ دَبّره في سرّه لسنواتٍ. شعر بعضّاتٍ صغيرةٍ، ساخنةٍ كأنها تلسع عظم كتفه قبل أن تصل إلى لحمه. كان جسده أقوى من الكلب، يعرف أنه لو أراد، لركله بقدمٍ واحدةٍ، أو دفعه بذراعه التي اعتادت أن تحمل أوزاناً أكبر من جسد كلبٍ بلا سلالةٍ ولا اسمٍ في دفتر الأنساب.

لكنّه لم يفعل. بقي واقفاً. لم يستطع تحريك أنيابه التي انغرست في طرف معطفه القديم. ظلّ صامتاً، ورأسه يطرق الصدر مثل جنديٍّ خاسرٍ يسند خوذته على صدر قائده الميت. لم يكن الكلب كلباً في تلك اللحظة. كان سدّاً صغيراً ضدّ فيضانٍ أكبر من قامة فيصل وأثقل من هذا الباب الذي ظنّه مخرجاً إلى نجاةٍ يُسمّيها النهاية.

سمع صوته الداخلي يرتجف:

- "اتركني..."

- لكن الهمس انطفأ قبل أن يكتمل. كأنه طفلٌ يبكي من تحت لحافٍ ثقيلٍ ولم يجرؤ أن يخرج رأسه ليُقنع أحداً بأن يرحمه. سمع زمجرةً ثانيةً، أقرب إلى هديرٍ مُختنقٍ يخرج من حلقٍ صغيرٍ، لكنّه كان كافياً ليدفعه خطوةً خطوةً إلى الوراء.

خطوةٌ أولى تقهقر فيها. شعر بقدمه تلامس عتبة الباب من الداخل. خطوةٌ ثانيةٌ أطاحت ببعض يقينه بأن الخطّ المستقيم إلى الخارج صار خطّاً منكسراً يعيده إلى غرفةٍ باردةٍ وأريكةٍ قديمةٍ ونافذةٍ لم يغلقها منذ آخر عاصفةٍ داهمت الستائر.

كل محاولةٍ للخروج كانت تقابلها زمجرةٌ قصيرةٌ غاضبةٌ كأنها تقول:

- "لا."

لا للفراغ.

- لا للقفز من حافةٍ لا تحمل جسداً ولا ذنباً.
- لا للورقة المخبّأة في جيبه بعبارةٍ يتيمةٍ لم يعد لها من يقرأها.
- لا لأن الليل ثقيلٌ بما يكفي من دون أن يصير قبراً معلّقاً في هواءٍ لا يملك جناحين.

تساءل فيصل للحظة: منذ متى صار هذا الكائن الذي اقتناه في ليلةِ شتاءٍ طويلةٍ وصماءٍ يعرف كيف يحرسه من نفسه؟ من الذي علّمه أن العواء لا يُسمَع إلا إذا اختلط بصدى الخوف في صدر صاحبه؟ وكيف تفوّق عليه في الرغبة بالبقاء، وهو الذي لم يكن يملك من أسباب الحياة سوى إناء ماءٍ نصف مكسورٍ وقطعة قماشٍ كانت فراشه؟

عادت يده إلى ظهر الكلب، لامس الفراء المرتجف تحت أصابعه. شعر بدفءٍ يزحف إلى جلده من تلك الألياف الصغيرة التي كانت تنبض كقلبٍ إضافيٍّ وُهِب له من حيث لا يدري. حاول أن يهمس له ثانيةً: "اتركني..." لكن الحروف لم تخرج. ابتلعها ريقه كأنه يبتلع سُمّاً يعرف طعمه منذ زمنٍ طويلٍ لكنّه كان يظنّ أنّه لن يشربه إلا وحده.

تقهقر خطوةً ثالثةً. تراجع نصف جسده إلى العتبة، ثم إلى الرواق البارد. الباب لم يُفتح كلّه. بقي موارباً، كأنّه ينتظر أن يُقفل من جديدٍ على حشرجةٍ لن تخرج هذه الليلة. في عيني الكلب قرأ فيصل كلّ الشتائم التي لم يسمعها من بشرٍ طوال عمره: كيف يجرؤ أن يُغادر وهو الذي أبقى غيره عالقاً هنا، في هذا القصر الذي لم يحمِ أحداً يوماً إلا من المطر؟

أرخى يده. أسقط ذراعيه على جانبيه كجذعين مكسورين. شعر بدموعٍ صغيرةٍ، ليست له، تنقط على طرف حذائه. كانت دموعاً أم مطراً؟ لم يعرف. لكنّه كان متأكداً أن تلك القطرات أدفأ من كلّ صلواتٍ فاشلةٍ حُفِظت له في سجلات الغائبين.

حين انتزع الكلب أسنانه أخيراً من حافة المعطف، لم يُهاجم، لم ينبح. فقط دَفَع صدره برأسه، أجبر فيصل على أن يدور بجسده نحو الداخل. خطا خطوةً دون إرادة. شعر بأنفاسٍ ساخنةٍ تدفعه كما لم يجرؤ أحدٌ أن يدفعه في حياته: لا بكلمةٍ، ولا بلكمةٍ، ولا بأمرٍ صادرٍ من فم أبٍ رحل دون أن يترك خلفه غير قصرٍ ثقيلٍ كنعشٍ مُظلّلٍ برائحة الأرواح.

وحين أُغلق الباب وراءه هذه المرة، لم يسمع صوت ارتطام الخشب بالحديد. الباب أُغلق بهدوء، كأن البيت كلّه خجل من اعتقاله مجدداً. التفت إلى كلبه الذي جلس أمامه، لسانه متدلٍ، صدره يعلو ويهبط بصعوبةٍ كأنه خاض معركةً لتوّه وانتصر فيها.

مدّ فيصل يده، مسح على رأسه. شعر بعظمة جمجمته الصغيرة تحت أصابعه، كأنه يلمس بقاياه هو نفسه قبل أن يقرّر أن يُسلمها للريح. همس بصوتٍ مبحوح:

- "ليلةٌ أخرى إذن..."

وعاد يسحب جسده إلى الداخل: ظلالٌ كثيرةٌ تنتظره هناك، لكن بينها ظلٌّ صغيرٌ نابضٌ بالزمجرة، لا يطلب سوى أن يبقى الليل مأهولاً بأنفاسٍ حيّةٍ ولو كانت بالكاد تتردّد.

- في لحظةٍ ما، التقت عيناهما.
- كانت لحظةً ضيّقةً، واهنةً، لكنها اتّسعت فجأةً كأنّها نافذةٌ صارت

تُطلّ على قلبٍ مُغلقٍ منذ زمن. رأى فيصل في عيني كلبه شيئاً لم يتوقعه قط: رجاءٌ صامتٌ يقطر بين حدقتين لا تعرفان لغة البشر، ولا تعبأان بكل حججه الخرقاء. خوفٌ عليه، لا خوفاً منه، خوفٌ عليه أكبر من خوفه من الحياة نفسها، ومن كل الأبواب التي ظنّ أنّه سيقفلها وراءه إلى الأبد.

للمرة الأولى، شعر بخجلٍ من نفسه. خجلٌ ناصعٌ، حادٌّ كالسكين حين تحكّها على حجرٍ رطبٍ. خجلٌ لم يزُره حين خان، ولا حين كذب، ولا حين جلس ذات ليلةٍ يقسّم ميراث أبيه وهو يتجاهل دموع أمّه العالقة في زوايا الغرفة المطفأة. خجلٌ لم يعرفه أمام أصدقائه حين تظاهر بأنّه أقوى منهم جميعاً، ولا أمام موظّفيه الذين كانوا يركعون لأرقامه قبل أن يركعوا لأحلامهم. خجلٌ صار له صوتٌ هذه المرّة: زمجرةٌ ضعيفةٌ من حلق كلبٍ يقف أمام حافةٍ لم يُولد ليقف عندها.

تراجع فيصل بكتفيه، شعر بثقلٍ خفيفٍ في صدره كأنّ القلب الذي ظلّ قطعةً من حجرٍ هشّ بدأ يحرّك أطرافه ببطء. لم يكن مستعداً ليُسمّي هذا ندماً، ولا صحوةً، ولا توبةً، لكنه شعر أنّ يداً واهنةً أمسكت بأطراف روحه قبل أن تنزلق إلى تلك الفتحة الضيّقة من موتٍ كان يحشره فيها منذ ليالٍ طويلةٍ بلا نوم.

رأى ذيل الكلب يتحرّك بخفّةٍ، يُصفّر في الظلام كقصبةٍ وحيدةٍ في حقلٍ فارغ. لم يكن ذلك الذيل رفرفةً للفرح، بل كان جسراً. مدّه الكلب كمن يفرش جسراً من وبرٍ دافئٍ فوق هوّةٍ كان فيصل على وشك أن يسقط فيها ولا يعود.

انتبه إلى يده التي ارتعشت فجأةً. رفعها إلى صدره كأنه يختبر موضع الألم. أصابعه الباردة لامست حواف أضلاعه، فشعر بأن جسده ليس ملكه كما كان يظنّ. هذا الجسد له عينان تحدّقان فيه الآن، تفضحانه، تمنعنا من أن يزجّ روحه في هواءٍ لا يحملها.

أدار وجهه بعيداً عن عيني الكلب، كأنه لو حدّق فيهما أكثر لانشقّ قلبه نصفين، نصفاً يسقط من تلك الشرفة العالية، ونصفاً يظلّ معلّقاً في عنق كائنٍ لا يملك سوى أسنانٍ وذيلٍ ولسانٍ يلهث بالرحمة.

تذكّر في تلك اللحظة كيف التقط هذا الكلب يوماً من زقاقٍ ضيّقٍ خلف المقاهي، كيف داسه الناس بأقدامهم وأعادوه إلى رصيفٍ مكسورٍ دون أن يلتفتوا إلى عينيه الخائفتين. أعطاه قطعةَ خبزٍ يابسةٍ، وضعه في صندوق سيّارته القديمة، قال لنفسه: "سيؤنس وحدتي." ثم تركه وحيداً أكثر مما ترك نفسه.

ابتسم ابتسامةً واهنةً، كأنّه يعتذر بصمتٍ: أيّ عزاءٍ هذا الذي يمنحه له كائنٌ لم يسأله يوماً عن ميراثٍ ولا عن خطيئة؟ من قال إن الكلاب لا تفهم ما وراء الجدران؟ من علّم هذا الرفيق الصامت أن يسدّ على صاحبه فتحةَ القبر قبل أن تنغلق عليه بكامل جسده؟

» امتدّت يد فيصل إلى رأس الكلب. مرّر أصابعه بين أذنيه، شعر بحرارته تتسرّب إلى راحته اليابسة. للمرّة الأولى أحسّ أنّ أصابعه لم تعد باردةً تماماً. تمنّى لو استطاع أن يطيل تلك اللمسة. أن يترك روحه تنحدر من رأسه

إلى جسد هذا الكائن الذي لم يطلب منه شيئاً سوى أن يظلّ حيّاً كفايةً ليملأ البيت بأنفاسٍ تُطرد وحشة الجدران.

سحب الكلب أنفاسه دفعةً واحدةً، أطلق زمجرةً صغيرةً جديدةً، ثم خطا خطوةً إلى الخلف، كأنه يُفسح له درباً. لم يكن درباً إلى الخارج كما ظنّ فيصل، بل درباً إلى داخلٍ آخر: داخله الذي تركه يتآكل بين أوراقٍ وأرقامٍ وصورٍ معلّقةٍ على جدرانٍ لم يلمسها أحد.

خطا فيصل نحوه بخطواتٍ مربكةٍ، مائلةٍ كخطٍّ لم يستقم يوماً. توقّف عند العتبة، نظر إلى السماء من فتحة الباب، رأى شريطاً باهتاً من ضوءٍ أسمر يعلن وصول الفجر خلسةً. تساءل بصمت: "أيمكن للظلال أن تهرب من ليلها إن حملت في ذيل كلبٍ صغيرٍ وعداً أخيراً بالرجوع؟"

دفع الباب نصف دفعةٍ أخرى، ثم توقّف. التفت وراءه. رأى القصر غارقاً في سكونٍ ثقيلٍ. شعر لأول مرة أنّه لا يريد أن يتركه وحيداً، لا يريد أن يسلّم حيطانه لفراغٍ أوسع من موتٍ صامت. كأنّه خاف على حجارةٍ أكثر مما خاف على نفسه.

عاد بكتفيه إلى الداخل خطوةً خطوةً، ومع كلّ خطوةٍ كان الكلب يسبقه، يلتفت برأسه الصغير إليه كأنّه يسأله: "أتتبعني؟ أم أظلّ هنا إلى الأبد لأنتظرك؟"

حين وصل إلى منتصف الرواق، تردّد قليلاً. شعر بأن الهواء صار أقلّ قسوةً. رفع رأسه فرأى ضوء الفجر يزحف عبر شقوق النوافذ المغلقة. لم يكن

ضوءاً كاملاً، لكنه كان كافياً ليُظهر للظلّ طريقه. مدّ يده إلى جيبه، تحسّس الورقة القديمة التي كان سيتركها خلفه مثل لافتةٍ على قبرٍ فارغ. أخرجها ببطء. نظر إليها طويلاً. كانت جملةً واحدةً: "سامحوني..."

مزّقها نصفين. ثم مزّق النصفين مرةً أخرى، وأسقط القصاصات الصغيرة فوق بلاطٍ باردٍ صار يحتفظ بأسرارٍ كثيرةٍ لا تليق بورقٍ خائفٍ. همس: "ومن قال إن أحداً ينتظر غفراني؟"

جلس على عتبة الرواق. أسند ظهره إلى الجدار البارد. الكلب تمدّد أمامه، ووضع رأسه على قدمه، وأغمض عينيه مطمئناً كمن يقول: "كفى الليلة... الليلة باقيةٌ لك."

وفي صدر فيصل، أخيراً، سرت تلك الرجفة القديمة: تلك الرجفة التي تقول له إن للحياة حافةً أخرى يمكن الوقوف عليها بلا سقوطٍ ولا قفزٍ ولا جملةٍ يتيمةٍ تُركت في جيبٍ باردٍ لن يقرأها أحد.

» أرخى يديه عن الباب كمن يفرج أصابعَه عن حافةٍ حادةٍ ظلّ متمسّكاً بها وهو معصوب العينين. انزلقت قبضته ببطءٍ حتى التصقت بكفه رائحة المعدن البارد الذي حمل لسنواتٍ مفتاحاً للخروج ولم يفتح يوماً باباً حقيقيّاً للنجاة.

انسدل معطفه من بين أنياب الكلب. سقط خيطه الرماديّ على عتبةٍ رخاميةٍ لامعةٍ لم تطأها خطواته إلا حين كان يقطعها مُسرعاً إلى الخارج أو راجعاً بخطى ثقيلةٍ تشبه باباً يُغلق على دخانٍ لا يجرؤ على الانطفاء. تلك

الأنياب الصغيرة التي قبضت أطراف المعطف قبل لحظات، بدت الآن مرتخيةً كيدٍ واهنةٍ تُسدل الستار على مسرحٍ بلا متفرّجين.

عاد أدراجه بخطواتٍ مكسورةٍ، خطواتٍ لا تحمل هدير الهزيمة ولا صلابة العودة، بل تحمل رجفةً خافتةً لاعترافٍ صغيرٍ يُعلن أنّ البقاء أصعب أحياناً من السقوط. التفت مرّةً إلى الباب، رآه ينغلق ببطءٍ، كأنه يناديه كي يجازف بخطوةٍ أخرى إلى الخارج، ثم تراجع، أسدل بصره على ركبتيه، ورأى الأرض للمرة الأولى أقرب من رأسه الذي ظلّ عالياً كل هذه السنين.

جلس على عتبةٍ رخاميةٍ داخليةٍ لم يجلس عليها من قبل. نفس العتبة التي كانت تفصل أقدام الخدم عن قاعات القصر، وتُقسّم الداخل عن الداخل الأعمق. جلس هناك كأنه أخيراً سمح لجسده أن ينهار، أن يصير في مستوى الأرض التي طالما دهسها حذاؤه الفاخر من دون أن يسأل: لمن تئنّ تحت خطواته؟

انزلق ظهره إلى الجدار البارد. استند براحتيه إلى الحافة، تحسّس نتوءات الرخام التي لم يألفها من قبل. شعر بأنها أقلّ قسوةً من مقبض الباب الذي طعنه ببرودته قبل قليل. رفع رأسه قليلاً، لم يجد أمامه إلا جسداً صغيراً يتنفّس له.

جلس الكلب أمامه، لسانه متدلٍّ وهو يلهث، يفتح فمه في شهقةٍ دافئةٍ كأنه يبتسم من وسط لهاثه – ابتسامة كائنٍ نجا من موتٍ لا يخصّه لكنه يشمله.

« لم تكن تلك الابتسامة عابرةً ولا عفويةً. كانت أشبه بظلٍّ يتسرّب

إلى صدر فيصل، يخبره أن النجاة ليست امتيازاً بشريّاً وحده، بل قد يمنحها مخلوقٌ صغيرٌ لم يحظَ منها بشيءٍ إلا فتاتاً من رغيفٍ باردٍ وماءٍ في صحنٍ بلا اسم.

راح فيصل يحدّق في عينيه طويلاً، يحصي أنفاسه كما لو كان يحصي دقّات ساعةٍ تأخّرت عن موعد الرحيل. رأى اللعاب يلمع على حافة شدقه، وسمع لهاثه يمتزج بصمت الرواق الطويل. للحظةٍ خطر له أنّ هذا اللهاث هو الصوت الوحيد الذي يمنعه من أن يسمع ارتطام رأسه في الفراغ الذي وعد نفسه به مراراً.

حرّك الكلب ذيله ببطء، ضربةً واحدةً على الرخام ثم سكن. انحنى برأسه قليلاً، اقترب أكثر حتى التصق طرف أنفه بحافة ركبة فيصل. في تلك اللحظة شعر فيصل أن في ساقه حياةً لم ينتبه إليها من قبل: دمٌ يتدفّق ببطءٍ قرب أنفٍ رطبٍ يمدّ إليه الدفء.

مدّ يده متردّداً، وضعها على رأس الكلب، شعر بحرارته تخرج من بين أصابعه مثل نسمةٍ خفيفةٍ من مدفأةٍ صغيرةٍ لم يلمسها من قبل. ربّت عليه بخفةٍ، ارتعشت أصابعه، ثم ثبّت كفّه هناك كأنه وجد فوق جمجمته الصغيرة ما لم يجده في خزائنه المليئة بالأوراق والأختام.

تذكّر فجأةً كيف مرّت سنواته: ممرّاتٌ مغلقةٌ، غرفٌ بأقفالٍ ثقيلة، أرصفةٌ لم تطأها قدماه إلا سريعاً، مقاعد لا يجلس عليها إلا بظهرٍ مستقيمٍ وكتفين مرفوعين. الآن فقط، على عتبةٍ رخاميةٍ بلا اسم، شعر أنه صار أخفّ من ظلاله، وأنه للمرة الأولى لا يحمل فوق كتفيه سوى دفءٍ يُقاس بلهاثٍ صغير.

تسلّل شعاع فجرٍ شاحبٍ من شقّ نافذةٍ عليا، ضرب الرخام عند قدميه فانعكس في عيني الكلب. كأنه وهجٌ ضئيلٌ يُذكّره بأنّ الليل، مهما تآمر عليه، يفرش له خيطاً من ضوءٍ خفيفٍ يكفي ليؤجّل ارتطامه بالأرض.

أدار رأسه ببطءٍ نحو الداخل. خلفه أبوابٌ كثيرةٌ تُفضي إلى غرفٍ لم يدخلها منذ سنين، وخزائن مغلقةٍ مليئةٍ بأسرارٍ أقلّ رحمةً من عواء كلبٍ وحيد. أمامه كائنٌ لا يملك مفتاحاً ولا دفتراً ولا مرآةً، لكنه يملك نباحاً لو أراد، أو زمجرةً لو احتاج، أو لهاثاً دافئاً يكفي ليسدّ هوّةً تتّسع كل ليلةٍ تحت صدره.

أغمض فيصل عينيه لحظةً، شعر أنّ رأسه صار أثقل من جسده، وأنّ كتفيه اللذين طالما حملا سقوفاً عاليةً صارَا في مستوى الأرض التي تمنّعه الآن من أن يتخلّى عن جسده بسهولة.

فتح عينيه، وجد الكلب لا يزال هناك، جالساً بثباتٍ لا يعرفه البشر. يلهث كأنه يقول له: "لا تبرّر بقاءك. فقط ابقَ."

وفي صدره انتفضت فكرةٌ واهنة: ربّما كل ما يحتاجه الإنسان ليهزم فكرة الموت أن يجلس مرّةً على عتبةٍ لم يجلس عليها من قبل، أمام كائنٍ لا ينطق، ولا يشترط، ولا يفاوض، فقط يمدّ له لساناً مبلّلاً باللهاث كي يبقى قلبه مفتوحاً على رفةٍ أخيرةٍ من الدفء.

↢ رفع فيصل يده المرتعشة، ببطءٍ كمن يخشى أن تتكسر في الطريق إليه. وضعها فوق رأسه، لا ليحكّ شعرةً مشاكسة، ولا ليعدّل خصلةً لم يرتّبها منذ ليالٍ كثيرة، بل ليختبر وجوده بين أصابعه: حرارة جمجمته تحت جلده، خفقان

عرقٍ لم ينتبه له حين كان يُحكم شدّ ربطات عنقه على مقاعد الاجتماعات الطويلة.

مرّر أصابعه بين شعره الخشن، تحسّس الحواف القصيرة كأنه يطمئن أن الجمجمة ما تزال هنا، لم تتركه لتتدلّى من شرفةٍ شاهقةٍ في منتصف فجرٍ بلا شهود. تلمّس رأسه كما يتلمّس أعمى حائطاً يعرف طريقه فيه بالذاكرة وحدها. شعر تحت أطراف أنامله بخشونةٍ لم تكن خشونة شعرٍ فقط، بل خشونة أيامٍ حكّت رأسه من الداخل حتى صار صدىً فارغاً من المعنى.

في تلك اللحظة التي بدا فيها جالساً على العتبة، متكئاً على جمجمته كأنه يتّكئ على حجرٍ قديم صقله القهر، همس فيصل. خرجت الكلمة هاربةً من بين شفتيه، رخوةً، مبلّلةً بما لم يقلّه من قبل، موجّهةً إلى كائنٍ لا يفهم الفرق بين "شكراً" و"ابْقَ":

- "شكراً..."

لم يُتمّ الكلمة. لفظها نصفاً، كأنه يجرّها من قاعٍ داخليٍّ لم يُخرِج منه إلا صمتاً من قبل. لم يكن الشكر موجهاً للكلب وحده، ولا لنفسه وحدها، بل لتلك العتبة الرخامية التي سمحت له أن يجلس، أن ينزل من عليائه، أن يُنزل رأسه من سماءٍ أوهم نفسه طويلاً أنّها تحت قدميه.

والكلب، في المقابل، لم يهزّ أذنيه ليسمع أكثر، لم يرفع رأسه يسأل مزيداً من الكلمات. لم يفهم "شكراً" بحروفها، لكنه فهم الرجفة في الصوت. فهم أن

أنيناً خافتاً ارتجف من صدر فيصل أكبر من أن يُقال. فهم أن يداً ارتعشت فوق الرأس لم ترفع عصاً لتأمره أو تدفعه، بل امتدّت لأول مرةٍ لتتلمّس قيداً انكسر.

حرّك ذيله ببطءٍ، ضربةً خفيفةً على حافة الرخام، ثم هدأ. في تلك الضربة وحدها، شعر فيصل بشيءٍ يفيض من بين جلده والحجر الذي يسنده. كأن ذيل الكلب حين يهتزّ صار الآن جناحاً صغيراً يعيد صاحبه إلى قلبٍ كاد يفرّ منه، كأنه يردّه إلى مكانٍ في صدره لم يلمسه منذ انكسر صوته لأول مرةٍ أمام أبٍ صامتٍ وأمٍ أخفت دموعها في كمّ قميصها.

أغمض فيصل عينيه. ترك أنامله تتشبّث بشعره الخشن. ضغط بأصابعه قليلاً كأنه يختبر متانة ما تبقى من جمجمته. لم يكن يريد أن يطمئن إلى رأسٍ فقط، بل إلى عقلٍ ظلّ يخذله حين يخطو نحو نهايةٍ لم يجرؤ أن يسميها انتحاراً أمام نفسه.

في تلك العتبة الرخامية، صار فيصل يحسّ بوزنٍ لم يعرفه من قبل: ثقل جسدٍ واهنٍ وجد مكاناً ليسنده قبل أن يُسلمه للهواء. لم يكن هذا المقعد مقعداً من خشبٍ صلب، ولا وسادةً وثيرةً من مقاعد صالونه الفاخر. كان رخاماً بارداً، لكنّه صار أكثر دفئاً من سريرٍ رتّبه عشرون خادماً ليلةً بعد ليلةٍ ولم يعرف فيه طعم نومٍ بلا كوابيس.

عاد فيصل يفتح عينيه ببطءٍ. لمح خيطاً من نورٍ شاحبٍ ينزلق من كسرٍ في النافذة العالية، يسقط على كتف الكلب كوشمٍ خفيفٍ يُزيّن ظهر حارسٍ صامت. في تلك اللحظة، أحسّ أن جسده يرتخي، أن روحه لا تزال عالقةً في ضلعٍ لم

يسقط من علوّه، وأن كلماتٍ كثيرةً كان يجب أن تُقال تُختصر كلها في ذيلٍ يهتزّ ويدٍ ترتعش على رأسٍ لم يطلّه الماء إلا مجاملةً في صباحٍ باهت.

همس ثانيةً، بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ قبله:

- "شكراً... ابقَ... لا تتركني."

لم يجب الكلب. لم ينبس إلا بعينيه اللتين ظلّتا مفتوحتين على بابٍ أغلقه فيصل مراراً على كل شيءٍ إلا على نفسه.

القسم الخامس

جلس فيصل طويلاً في تلك الزاوية التي لم يعرفها من قبل إلا عتبةً عابرةً بين الخارج والداخل. هناك حيث أُغلق الباب من خلفه دون صوتٍ عدا رنينٍ باهتٍ كأنّ الخشب تأوّه حين أُعيد إلى موضعه. بقي الكلب جالساً أمامه، يُثبّت عينيه فيه كأنه يحرُسه من نفسه، من فكرته السوداء التي ظلّ يطويها كل ليلةٍ كورقةٍ رقيقةٍ يخبّئها في جيب معطفٍ لم يُفصّل إلا ليحمل أسراراً لا تُقال.

كان البيتُ ساكناً إلا من أنفاسهما المتقطّعة – أنفاس رجلٍ عاد من الموت، عائدٌ بلا خطوةٍ واحدةٍ إلى الخلف، عائدٌ كمن اكتشف أنه لم يعرف الطريق أصلاً، وأن العتبة هي بيته الوحيد بعد كل الأبواب. وأنفاس كائنٍ لم يكن يعرف أنه يملك القدرة على إرجاع صاحبه من شفير النهاية – كائنٍ صموتٍ لم يتعلّم أبداً كيف ينبح ليقول "ابقَ"، فاكتفى بأنفاسٍ حارّةٍ تحرس، وذيلٍ يربّت على ظلال الرخام.

أسند فيصل رأسه إلى الجدار البارد خلفه. شعر ببرودته تنفذ إلى قفاه،

تهدهده كراحةِ يدٍ لا تخشى أن تلمس تكسّره. أغمض عينيه، وأصغى لصوت أنفاسه وهي تتصاعد ثقيلةً، كأن صدره يعود ليتذكّر ما معنى أن يحمل روحاً على أكتافه دون حبالٍ تُحكِم الخنق. لم يفكر في شيء. ترك ذهنه معلقاً في ظلال الرواق: بلا مشاريع، وبلا ندم، وبلا ورقةٍ مكتوبٍ فيها "سامحوني". ترك كل ذلك للمعطف الذي انزلق من بين أنياب الكلب وما زال ملقىً في مكانٍ ما على الأرض، مثل جلدٍ قديمٍ تخلّى عنه صاحبه ولم يتذكّر كيف يرتديه من جديد.

أما الكلب، فظلّ ثابتاً، لا يقترب أكثر ولا يبتعد. كل بوصةٍ بينه وبين فيصل كانت حبل نجاةٍ ممدوداً على صمت البلاط. في عينيه ارتعش ضوءٌ صغيرٌ، لم يكن له اسم ولا لون، يشبه وهج جمرٍ وُلد من رمادٍ قديمٍ لكنه لم ينطفئ بعد. في تلك العينين، قرأ فيصل رسالته الأخيرة: "لا تهرب مني ولا تهرب من نفسك. لن أدعك تركض وحدك إلى ذلك الهاوية."

تسلّل نسيمٌ خافتٌ من شقّ نافذةٍ عليا، مسّ خدّ فيصل كلسعةٍ طريةٍ من حياةٍ لم تطأه منذ سنين. شعر بجلده يقشعرّ تحت لمسةٍ رقيقةٍ من هواءٍ ناعم. للمرّة الأولى منذ ليالٍ طويلةٍ لم يختنق بالهواء، بل شعر أنّ صدره يتّسع له. كأن تلك الزاوية الرخامية ليست حجراً بارداً، بل رئةٌ إضافيةٌ احتفظت بها جدران البيت له ليومٍ يحتاج فيه أن يتذكّر أنه ما زال على قيد الشهيق.

حاول أن يتكلّم. بلّل شفتيه بلسانه الجافّ، ثم تراجع. ما عاد للكلمات طعمٌ في هذا الصمت. كانت الجمل كلها كالأقفال التي علّقها طويلاً في عنقه؛ إذا نطقها انهار ثانيةً، وإذا كتمها لامسته بشيءٍ من الهدوء الذي يليق برجلٍ أنهكه العويل. فآثر أن يبقى صامتاً مثل كلبه، أن يحرس نفسه بأنفاسه وحدها.

حين فتح عينيه ثانيةً، وجد الكلب قد اقترب خطوةً. دُهش: كأن بينهما اتفاقاً غير مكتوبٍ على المسافة، وكأن اقتراب هذا المخلوق لم يكن اقتحاماً، بل نجدة. رأى ذيله يهتزّ في انحناءةٍ قصيرةٍ، ثم يثبت. في تلك الحركة وحدها وجد فيصل ما يكفي ليشدّ أصابعه على الرخام البارد. أحسّ كأنه يتشبّث بحافةٍ أخيرةٍ، ليس خوفاً من السقوط، بل خشيةً من أن يُفلت تلك النظرة الوحيدة التي ربطته للتوّ بشيءٍ يشبه الحياة.

امتدّ الليل خارج الجدران، ثقيلاً مثل ثوبٍ مبلّلٍ لا يجفّ. وامتدّ الصمت داخلهما، كأنهما حارسان في نوبةٍ طويلةٍ لا تسمح لهما بالنوم ولا بالكلام. لا فيصل تحرّك من عتبةٍ صار فيها طفلاً متكئاً على صدر حجرٍ، ولا الكلب رفع رأسه عن الأرض إلا ليمسح بعينيه كل فكرةٍ تُقيم في صدر الرجل الراكع أمام روحه. صارا اثنين في جسدٍ واحدٍ، كائناً واحداً له نفسان ولهاثٌ خافتٌ يقطع الظلام ببطءٍ.

في تلك اللحظة – بين الليل الذي رفض أن ينقضي والباب الذي أغلقه بلا ضجيج – فهم فيصل شيئاً لم ينطقه: أن الخلاص أحياناً لا يجيء صاخباً ولا ينزل من سقفٍ عالٍ. أحياناً يجيء في هيئة ذيلٍ يرتعش، عينين لا تفهمان حروف "الشكر" لكنها تحرسانك من فكرةٍ لا تناسبك، وأنفاسٍ مشتركةٍ تتسلّ في بيتٍ كان يوماً قبراً مفتوحاً وصار فجأةً غرفةً دافئةً بحجم صدرٍ لم يعد يريد أن يتخلّى عن دقاته.

ظلّ هكذا طويلاً. ظلّ هكذا طويلاً حتى هدأ صدره، حتى شعر أنّ كل ما حوله صار أرحب مما ظنّ، حتى تذكّر – على عتبةٍ لم يجلس عليها من قبل

- أن الحياة، مهما أغلقت أبوابها، لا تزال تعرف كيف تدسّ يداً صغيرةً، من وبرٍ ولهاثٍ وأنيابٍ بيضاء، لتقول لك: "ابْقَ هنا... الليلة فقط. ثم غداً سنتدبّر الرحيل معاً، حين لا يكون في الرحيل موت".

↢ في تلك اللحظة، شعر فيصل بمرارةٍ لم يعرفها من قبل. مرارةٍ لا تشبه طعم الهزيمة ولا انكسار الكبرياء، بل تلك الغصّة التي تخنقك حين تكتشف أنّ كائناً صغيراً ظلّ يراك آلهةً من صمتٍ وخبزٍ وماء، بينما كنت تحفر لنفسك قبراً بيديك وتُخفي المفتاح تحت وسادتك كل ليلة.

أسند رأسه إلى الجدار من جديد، مغمضاً عينيه على تلك الفكرة:

↢ كيف يردّ الجميل لمخلوقٍ لم يطلب يوماً سوى أن يكون بقربه؟ كيف يردّ دَيناً لا يُردّ؟ أيّ اعتذارٍ يصلح لكل تلك السنوات التي لم يلتفت فيها إلا لنفسه وهو يجرّه معه من غرفةٍ إلى أخرى كظلٍّ وديعٍ لا يُحاسب ولا يتشرّط؟

فتح عينيه فرأى الكلب ما يزال في مكانه، جالساً كتمثالٍ صغيرٍ لحارسٍ بلا سلاحٍ إلا نَفَسَه. لم يُزِح نظره عن فيصل، لم يهزّ ذيله هذه المرة، لم يقترب خطوةً ولا تراجع خطوة. فقط ظلّ هناك، كأنه يقول له: "أنا هنا... هنا فقط. لا تسألني لماذا، ولا كيف، ولا إلى متى."

مرّر فيصل كفّه على ركبته، شعر بخشونة قماشه الرماديّ، ولامس بأنامله طرف جلده البارد تحت الثوب الذي صار ضيقاً عليه رغم اتّساعه. فكّر للحظةٍ أن يمدّ يده نحو الكلب، أن يربّت على رأسه من جديد، أن يقول له: "شكراً" بلسانٍ لم يتعلّم كيف ينحني إلا أمام هذا المخلوق. لكن يده بقيت معلّقةً في منتصف

الطريق، كأن ثقلاً غامضاً يقيدها: ما جدوى اللمسة إن تأخّرت كل هذا الوقت؟ كيف يلمس رأساً طيّباً لم يطأه سوى خيطٍ من مطرٍ عابرٍ حين كان صاحبه يُقفل أبوابه العالية عليه وعلى صمته؟

ازدرد ريقه بمرارةٍ أخرى. شعر أنّ حلقه يابسٌ من الكلام الذي لم يقله لأحد، وأن صوته لو خرج الآن لانكسر قبل أن يبلغ أذني كلبٍ لم ينتظر حروفه أصلاً. وحده الصمت بينهما كان كافياً. الصمت الذي بدا لوهلةٍ أثقل من تلك الحبال التي تخيّلها في لياليه الكثيرة وهو يختبر سقوطه في ظلمةٍ بلا آخر.

ظلّ فيصل ممدّداً بظهره على الرخام البارد، ساقاه مطويّتان أمام صدره كطفلٍ تشرّد عن صدر أمّه. تذكّر نفسه صغيراً: كيف كان ينتظر يداً تربت على شعره فتقول له "لا بأس". لم تأتِ تلك اليد أبداً، لا من أبٍ مشغولٍ بأقفال البنوك ولا من أم تركت رائحتها على وسادةٍ قديمةٍ ثم مضت. كبر فيصل وفي صدره فراغٌ، حفرةٌ تتّسع كل ليلةٍ. لم يملأها مالٌ ولا قصورٌ ولا سفَرٌ ولا وجوهٌ تبتسم مجاملةً. والآن، أمامه حفرةٌ ثانيةٌ، بحجم كلبٍ صغيرٍ، تحرس تلك الهوّة من ابتلاع ما تبقّى فيه من جسدٍ وروح.

قال في سرّه:

» "يا لصمتي وصمته... كيف نقف هنا، نتنفس هذا الليل، ولا نعرف من منّا يُنقذ الآخر؟"

ظلّ الكلب يراقبه بعينين ثابتتين. لم يُحِد بصره. في نظراته انطفأت كل المسافات التي تفصل بين نباحٍ لم يُسمَع وكلماتٍ لم تُقَل. صار فيصل يرى في

حدقتيه صدى صوته الذي لم ينطق به بعد: "سامحني... إن كان في لغتكم مكانٌ للمسامحة."

هزّ الكلب أذنيه فجأةً، كأنه التقط تلك الجملة قبل أن يلفظها الرجل. تقدّم خطوةً، ثم أخرى، حتى التصق صدره بركبتي فيصل المنكمشتين. استراح هناك، أسند رأسه على ساقه كأنها وسادةٌ يعرفها أكثر من كل وسائد القصر الحريرية. أغلق عينيه، زفر زفرةً طويلةً كأنه يقول: "ما دمت هنا، فأنا هنا. وما دمتَ جالساً، فلن تقوم وحدك هذه المرّة."

شعر فيصل بيديه ترتجفان من جديد. رفع إحداهما ببطء، ببطءٍ يشبه التوبة، ومدّ أصابعه نحو رأس الكلب. لامست كفّه وبراً دافئاً مبلّلاً من رطوبة الليل وأنفاس الانتظار. شعر بحرارةٍ صغيرةٍ تسري من بين شعيراته الخشنة إلى عظام يده المتيبّسة. أغمض عينيه ثانيةً، ثم سمع من صدره شهقةً خافتةً، لم تكن بكاءً ولا ضحكاً، بل شيءٌ بينهما – كأنه صدرٌ يفرغ سمّه القديم لأول مرةٍ.

مرّت لحظةٌ، ثم أخرى، ثم تداخل الوقت في عتبةٍ بلا زمن. صار الليل أوسع من سقف البيت، وصار البيت أصغر من قلبٍ لم يعرف كيف يُفرِغ نفسه إلا أمام كائنٍ لا يجيد إلا أن يُقيم حيث يُطرد الجميع.

وحين فتح فيصل عينيه أخيراً، وجد نفسه يقول في داخله:

- "كيف أردّ الجميل؟ بأيّ لغةٍ أشكرك؟ وكيف أقول لك إنك الوحيد الذي لم يطلب مني شيئاً إلا أن أبقى حيّاً؟"

لم يجبه الكلب. لم يرفع رأسه عن ركبتيه. فقط زفر زفرةً ثانيةً، وحرّك ذيله ضربةً خفيفةً كأنها ختمٌ صامتٌ على اتفاقٍ أبدي: "لا تقل شيئاً. ابقَ... فقط ابقَ."

مرّت ساعاتٌ لا تُحصى وهو يتحسّس رأس الكلب بكفٍّ كأنها تعتذر عن خشونتها. كانت أصابعه تتحرّك بين وبرٍ ناعمٍ وأذنٍ ترتجف تحت يده كلّما زادت ثقله قليلاً، كأنه يختبر من خلال تلك الأذنين مقدار الحياة التي ما تزال تُصرّ على ملازمته.

كان ذيل الكلب يتحرّك ببطءٍ، إيقاعاً رتيباً كأنه عقربٌ خافتٌ يُعيد ترتيب الزمن داخله. كل نبضةٍ من ذلك الذيل كانت تدقّ في صدر فيصل كجرسٍ صغيرٍ لا يسمعه غيره: "ما زلتَ هنا... أنا هنا... أبقى هنا... لا ترحل."

لم يكن للبيت حينها أيُّ ضجيجٍ آخر. لا أصوات خدمٍ تهمس خلف الأبواب، ولا وقع خطواتٍ مصطنعةٍ تتقصّد أن تُعلن وجودها ثم تختفي كأنها لم تمرّ أصلاً. كل شيءٍ تجمّد عند تلك الزاوية الرخامية. صارت العتبة مقعداً، وصار الرخام وسادةً صلبةً تحمي رأسه من الهويّ في هوّةٍ لا قرار لها.

شعر فيصل أن جلده صار أرقَّ من العادة، كأن كل خليةٍ فيه تشرب من حرارة هذا الكائن الذي انتزع الموت من يده بصمت. شعر أن عظامه تستجيب لتلك الذبذبات الصغيرة التي يبثّها الذيل كلما هزَّه الرجاء: حركةٌ قصيرةٌ تطيح بجدارٍ من ليلٍ طويلٍ في صدره.

تذكّر – دون أن يقصد – كيف كان يركل هذا الباب بقدمه حين يعود آخر

الليل متعباً من صخب العالم، يرفس الحاجز بينه وبين دفءٍ كان يظنّه ينتظره خلف الجدران. اليوم، الحاجز ليس من خشبٍ ولا من نحاسٍ باردٍ صقله الخدم كل صباح؛ بل من وبرٍ طريٍّ ونظرةٍ واحدةٍ لا تعرف سوى البقاء.

همس لصدره:

- "ما أبسطه من خلاصٍ! وما أبعده... حين لا تمدّ يدك إلا إلى موتٍ تظنّه أقرب إليك من هذا الكائن الذي يُقيم عند قدميك..."

أزاح كفّه قليلاً، مرّر إبهامه خلف أذن الكلب، لمس عرقاً نابضاً تحت جلده الرقيق. شعر أن الحياة ليست فقط في صدره المتهالك، بل تمتدّ من أنامله إلى أذنه، ثم تعود إليه من طرف الذيل الذي يضرب الأرض ضربةً ضربةً كأنه يوقظ قلباً طال نومه.

فتح فيصل عينيه نصف فتحة، رأى شقّاً من الضوء يتسلّل من أسفل الباب، خطّاً هزيلاً من الفجر يُعلن أنه، رغم كل شيء، لا بدّ أن يأتي. للحظةٍ، ابتسم. ابتسامةً لم يرها أحد. لم تنفرج شفتاه، لكن خده ارتجف كأنه تذكّر كيف كان الضحك قبل أن يصبح ترفاً لا يليق به.

مرّت في ذهنه صورٌ متراكمة: قاعات الاجتماعات، أصوات الهواتف، تواقيع العقود، نظرات الحسد والإعجاب والريبة. كلّها تهاوت خلف هذا الذيل الصغير الذي يحرسه من فكرة النهاية. كأن سنواته كلّها لا تساوي رقّةَ أذنٍ واحدةٍ حين يتسلّل الخوف إلى صدر كلبٍ لا يطلب شيئاً سوى بقاء صاحبه حيّاً.

↢ أدار رأسه إلى الجدار. سنده بكتفه. شعر بثقلٍ يسنده لا يستحقه. لأول مرةٍ منذ زمنٍ لم يشعر أنّ الجدار سجنه، بل صار كتفاً صلباً يشدّه إلى الحياة. استمع إلى أنفاسه وأنفاس الكلب تختلطان في الصمت، وموسيقى خفيّة لا تسمعها الجدران التي ظلّت شاهدةً على صراخه المكتوم.

مدّ يده الأخرى ببطءٍ، كمن يختبر جسده للمرة الأولى، وضعها فوق خاصرة الكلب. تردّد الكلب لحظةً، ثم انساب في حضنه ككتلةٍ صغيرةٍ من الدفء. زفر فيصل زفرةً طويلةً. شعر بدمعةٍ لم يعرف من أين جاءت، علقت في طرف رمشه ولم تسقط. ربما كانت دمعةً من حياةٍ عادت، أو موتٍ تأجّل.

في تلك اللحظة، فهم فيصل أن الوفاء لا يحتاج قَسَماً يُكتَب في ورقةٍ يوقّعها شهود. لا يحتاج مرآةً ولا قصراً ولا أختاماً من ذهب. يكفي أن يكون ذيلٌ يتحرّك ببطءٍ في آخر الليل ليقول لك: "لن تخرج وحدك... لن ترحل وحدك... وإن سقطتَ، فسأسقط معك."

أغمض عينيه ثانيةً، غاص في تلك الزاوية الحجرية التي صارت حضناً دافئاً لا يشبه شيئاً مما عرفه من قبل. في صدره، تسرّب نَفَسٌ جديدٌ: ليس نَفَسَ رجلٍ يريد أن يُغلق حساباته الأخيرة، بل نَفَسَ من قرّر – دون أن يعلن – أن ينتظر شمساً ستصعد من خلف ستارةٍ، تطرق قلبه ببطءٍ، وتُربّت عليه بلسانٍ من نور.

↢ نهض فيصل من مكانه كأنه ينهض من سريرِ مرضٍ طويلٍ لم يُسمِّه أحد، ولم يزرْه فيه طبيب. كأنّ الدقائقَ التي قضاها على تلك العتبة الرخامية

أخرجت من صدره جرثومةً نامت فيه أعواماً وهو يحشوها بالمال والوحدة والصمت المدجَّن.

راح يمشي في البيت بقدمين ثقيلتين، كأن كل خطوةٍ تخلع عنه طبقةً من غبارٍ تراكم فوقه. مرّ بمرآةٍ طويلةٍ لم يكن يجرؤ أن يحدّق فيها من قبل، رأى وجهاً شاحباً فيه شقوقٌ دقيقةٌ كأرضٍ تشقّقت من عطشٍ مزمن. لم يتوقف عند صورته، لم يحدّق في تجاعيدٍ جديدةٍ ولا في سوادٍ تحت العينين. كان جسده يعبر الجدران كطيفٍ لا يبحث عن وجهٍ، بل عن شيءٍ أعمق من الوجه.

مدّ يده إلى مقبض بابٍ آخر، لم يلمسه منذ أعوام. فتحه ببطءٍ، كأن صريره المبحوح هو صوته الداخلي الذي لم ينطق منذ ليالٍ. دخل غرفة مكتبه القديم، ذلك الركن الذي تركه ذات ضجرٍ مليءٍ بأوراقٍ لم يعد يقرأها ورسائلٍ لم يفتحها. هناك، في الزاوية المعتمة، خزانةٌ صغيرةٌ من خشبٍ باهتٍ تنام مثل سرٍّ منسيٍّ في بيتٍ بلا أسرار.

انحنى عليها بظهرٍ صار يشعر بثقله لأول مرةٍ دون أن يخاف منه. فتحها بيدٍ لم ترتجف هذه المرّة. أمامه انكشفت طبقاتٌ من الورق والصور وأشياء صغيرةٍ لم يقدر الزمن على محوها. التقط صورةً صغيرةً: وجهه طفلاً لم يكتمل في ملامحه أيُّ ظلٍّ من الثراء اللاحق. طفلٌ ضاحكٌ يجلس بجانب كلبٍ هزيلٍ لكن عينيه مليئتان بذلك اللمعان الذي رآه الليلةَ نفسها في عيني كلبه الحارس.

مرّر أصابعه على الورق الأصفر، مسح الغبار عن الأطراف كأنه يربّت

على كتفِ روحه. شعر أن الطفل الذي في الصورة يبتسم له من مكانٍ بعيدٍ جداً، يذكّره بما لم يعد يعرف كيف يسميه: تلك الفطرة الأولى، الحنوّ الفطري الذي يأتيك قبل أن تصير وحيداً في قصورٍ عاليةٍ لا تعرف الدفء.

إلى جانب الصورة، وجد عقد شراءٍ قديم: ورقةٌ باهتةٌ من مأوى للكلاب الضالة. تذكّر لحظةً كان فيها شاباً، يربط أربطة حذائه بيدين نظيفتين من المال، ويمدّ يده لمخلوقٍ خائفٍ يرتعد في زاويةٍ قذرةٍ من المأوى. ضحك آنذاك لأن الكلب هزّ ذيله رغم برد الشتاء وقسوة الرائحة. ابتسم فيصل الآن ابتسامةً شاحبةً، كأنه يرى المشهد على شاشةٍ مهشّمةٍ لكنها تعرض قلبه من الداخل.

همس للصورة:

- "كنتَ هنا منذ البداية..."

- كانت الجملة خفيفةً على شفتيه وثقيلةً على صدره. شعر بها تُقشر عنه صمتاً قديماً، تُعيده إلى خطوته الأولى نحو شيءٍ لم يفهمه إلا الليلة: أن الكلب، كل كلبٍ، ليس ظلاً تابعاً بل بابٌ مفتوحٌ نحو تلك الزاوية التي حُرِم منها طويلاً: الرفقة التي لا تفهم لغة الربح ولا الخسارة.

هناك – أمام تلك الخزانة الباهتة – تفتّحت الفكرة في رأسه بوضوحٍ لم يعرفه منذ سنين: أنّ الوفاء لا يُكافأ بكلمةٍ ولا يُرمى كقطعةِ لحمٍ إلى فم جائعٍ ينتظر عند بابٍ موصد. أنّ الوفاء لا يُكافَأ أصلاً، بل يُردّ بوفاءٍ أكبر، بيدٍ تُمدّ لظلٍّ آخر يقف اليوم حيث وقف ذلك الكلب القديم، ممدّداً في العراء، جسده يرتعد تحت شتاءٍ لا يرحمه.

↢ شعر فيصل أن صدره صار أوسع قليلاً، كأنه انتزع منه شيئاً ثقيلاً وترك فيه فراغاً نظيفاً ينتظر هواءً جديداً. التفت خلفه، رأى كلبه واقفاً عند الباب المفتوح، يراقبه بصمتٍ كأنه يعلم - بلا لغةٍ ولا عقلٍ ولا اتفاقٍ - أن سيده خرج من ظلمةٍ صغيرةٍ في نفسه ليمنح غيره فرصةً لم تُمنَح له من قبل.

مدّ فيصل يده للورقة القديمة، طواها بحرصٍ بين أصابعه كأنه يحمل شيئاً هشّاً لا يجرؤ على تكسيره. في تلك اللحظة، لم يكن يحمل عقداً قديماً، بل حمل في كفه نيةً طازجةً: أن يردّ الدَّين لهذه الأرض التي أنبتت له كائناً انتشله من عتبة موتٍ بطيءٍ. أن يمدّ كفّه من جديدٍ لمخلوقاتٍ لم تنتظر منه شيئاً إلا حضناً لا يُغلق بابه.

سار ببطءٍ نحو باب المكتب، كلبه يتبعه خطوةً خطوةً، ذيله يلامس عتبة الخشب كريشةٍ تكتب على الأرض كلماتٍ لا تُقرأ. شعر فيصل أن البيت صار أوسع فجأةً، كأن الأبواب التي فتحها لم تُفتح فقط للغرف المهجورة، بل لشقوقٍ كثيرةٍ في قلبه أُغلقت سنيناً خوفاً من الريح.

ولأول مرةٍ منذ زمنٍ طويلٍ، فهم أن البيوت الواسعة تحتاج إلى من يملؤها بأنفاسٍ صادقةٍ لا تُشترى ولا تُباع - وأنّه، بعد هذا الليل، صار يعرف من أين يبدأ.

↢ هكذا خرج فيصل من عزلته نحو المدينة، كمن يخرج من نفقٍ ضيّقٍ لم يكن يُرى من الخارج، لكن رطوبته كانت تنخر صدره قطعةً قطعة. لم يرفع رأسه إلى لوحات الإعلانات التي تبرق بالأحلام المعلّبة، ولم يتوقّف أمام الأبراج التي شيّدها يوماً بعرقه وأمواله ثم تركته وحيداً يختنق في طوابقها العليا.

باع ما تبقّى له من ممتلكاتٍ لم تلتهمها البنوك ولم تبلعها ديون الصفقات القديمة. تخلّى عن العقارات التي سُجّلت باسمه يوماً كأنها امتدادٌ لجسده، عن السيارات السوداء التي لم يقدها إلا إلى عشاءٍ باردٍ مع رجالٍ بوجوهٍ تلمع أكثر مما تقول.

لم يشترِ بيتاً جديداً. لم يبحث عن شُرفةٍ يطلّ منها على أضواءٍ تُغري قلباً لم يعد يصدّق لمعاناً من بعيد. لم يقف أمام شاشات الأسهم مجدداً، لم ينصت لصوت الأرقام التي كانت تُسكره حتى الثمالة، ثم تتركه ممدّداً عند حافة سريره يشتهي موتاً يليق بثروته.

كان وجهه يتجه نحو زاويةٍ أخرى من المدينة. مكانٍ منسيٍّ كجرحٍ قديمٍ تُرك في خاصرة العمر ولم يجد من يضمده. قطعة أرضٍ صغيرةٍ على أطراف الخرائط التي لا تظهر في دفاتر تجّار الإسمنت ولا ترد في مخطّطات البلديات المزدحمة بشهادات الملكية.

هناك وقف فيصل في صباحٍ هادئٍ، كانت الشمس تطرق على كتفيه بكسلٍ لم يضايقه. رفع بصره إلى الأرض الموحلة التي تشبه صدره حين استيقظ ذات ليلةٍ ووجد كلباً وحيداً يحرسه من حتفه. ابتسم ابتسامةً بلا شكل، كأنه يحدّث التراب الذي لم يلمسه بيدٍ عاريةٍ منذ عقود:

- "هنا... هنا سأبدأ من جديد."

لم تكن الأرض واسعةً كحقول الأغنياء، ولم تكن جميلةً كتلك الحدائق

المصمّمة لتُبهر ضيوفاً يعبرونها ساعةً ثم ينسونها. كانت هامشاً من ترابٍ قاسٍ، محفوراً ببقايا نفاياتٍ قديمةٍ ونبتاتٍ شوكيةٍ تُقاوم الريح بلا اسم.

هناك تفتّحت فكرته مثل ورقةٍ قديمةٍ انتشلها من خزانته المنسية:

- أن يصنع مأوى صغيراً، ملاذاً للمخلوقات التي تشبهه وتشبه كلبه – أولئك الذين لم يسألهم أحد عن حزنهم ولا عن أرجلهم المرتعشة ولا عن قلوبهم التي تنبح من الفزع في عتمة الشوارع.

رأى في مخيّلته بيوتاً خشبيةً متراصّةً كأكواخٍ متواضعةٍ لا تعرف الفخامة ولا تحتاج أبواباً عاليةً لتُغلقها الرياح. رأى سياجاً واطئاً لا يحبس الداخلين بل يحميهم من عجلات السيارات وغبار الطريق. رأى أيدياً طيّبةً تمتدّ بالطعام والماء، لا تطلب توقيعاً ولا سنداً ولا فائدةً تُدفع عند نهاية الشهر.

مدّ كفّه نحو التراب، حمل حفنةً صغيرةً بين أصابعه. شعر بخشونتها تحت أظافره، برائحتها التي لا تشبه عطور قاعاته المكيّفة. رفع التراب إلى أنفه، أغلق عينيه لحظةً، استمع لصدىً قديمٍ: ضحكته حين كان شاباً يُربّت على رأس كلبٍ لم يساومه على أي شيء.

فتح عينيه من جديد. التفت خلفه فوجد كلبه يقف بصمتٍ – نفس الذيل، ونفس الأذنين، ونفس النظرة التي رآها في تلك الليلة عند الباب. قال له في سرّه:

- "لن أبني هذا المكان لك وحدك... بل لكلّ من يحمل في صدره قلباً يلهث ولا يجد من يربّت عليه."

راح يُدوّن الأرقام بيدٍ خفيفةٍ لم تعرف هذا النوع من الأرقام من قبل. لم تكن أرقام أرباحٍ ولا سندات رهنٍ ولا فوائد متراكمة. كانت تكاليفَ خشبٍ ومساميرَ وأقفاصٍ صغيرةٍ وأدويةٍ وماءٍ يجري في أوعيةٍ صدئةٍ ثم يعود صافياً في عروقٍ متعبة.

سيمدّ هذه الأرض بيديه، لا بشركاتٍ كبرى تضع لافتةً باسمه ثم ترحل. سيأتي بنفسه، بملابسه القديمة التي كانت للخراب وحده. سيغرس يديه في التراب ليقيم سياجاً بسيطاً ويغرس بجواره شجرةً واحدةً - شجرةً ربما يلقي ظلّها على ظهر كلبٍ ضالٍ يجلس وحيداً عند ظهيرةٍ حارّةٍ لا تُرحم.

وهكذا صار ينهض كل صباحٍ - فيصل الذي ظنّ أن رحلته انتهت ذات ليلةٍ على عتبةِ بابٍ كاد يُفتح على فراغٍ أبديٍّ - صار يقف على حافّة أرضٍ صغيرةٍ، يربط حبل الحراسة حول خاصرة الحياة من جديد. صار يمدّ طعاماً، ماءً، نظرةً، كلمةً لا تُقال لكنها تُترجم بنباحٍ خافتٍ أو ذيلٍ يتحرّك ببطءٍ كساعةٍ جديدةٍ تُعيد ترتيب الزمن داخله.

» زار فيصل مأوى قديماً للكلاب لأول مرةٍ منذ شبابه البعيد. لم يكن يعرف كيف ساقت خطاه إليه، ولا متى صار الطريق إلى هناك أخفّ من الطريق إلى البنوك التي عجنته طيلة عمره. بدا المأوى من الخارج كخيمةٍ رماديةٍ مهجورةٍ، أسلاكٌ صدئةٌ تلتفّ حول نفسها وتترك فراغاتٍ تكفي لأن يمرّ منها بردٌ ورطوبةٌ ولا يمرّ منها أملٌ كامل.

دفع البوابة الصغيرة بيده العارية، كأنه يفتح باباً في صدره لا في سياجٍ

حديديّ. استقبله نباحٌ خافتٌ أول الأمر، نباحٌ لا يشبه نباح حراسةٍ ولا تهديدٍ، بل كصدى خائفٍ يسأل الداخل: "هل جئتَ لتأخذ أحدنا... أم تتركنا ننام في عراءنا الأبدي؟"

راح فيصل يخطو على أرضٍ موحلةٍ، يلتفت يمنةً ويسرةً: أقفاصٌ ضيقةٌ مُصفَّفةٌ كتوابيت من سلكٍ مفرّغ. كل قفصٍ فيه حياةٌ مرتجفةٌ أو نصفُ حياةٍ تنتظر اسماً يحرّرها من مجرّد رقمٍ على لوحةٍ صدئة. اقترب من سياجٍ فيه كلبٌ نحيلٌ بلون التراب، تلتفّ ضلوعه حول قلبٍ لم يتعلّم أن ييأس بعد.

تأمّل الكلاب خلف الأقفاص: عيونٌ باكيةٌ بلا دموعٍ تسيل، وعيونٌ جافةٌ لأنها بكت حتى جفّت. ألسنةٌ تتدلّى من أفواهٍ يابسةٍ تبحث عن رشّةِ ماءٍ أو ظلّ يدٍ حانيةٍ تهبط من سماءٍ بعيدةٍ لا يُدركون اسمها. بعضهم يقفز فرحاً إن اقترب إنسانٌ – ظنّاً أن الفرج صار قاب قوسين. وبعضهم يولّي وجهه إلى ركنٍ بعيدٍ كأنه تعلّم درساً صعباً: لا أحد يعود لمن تركك خلف قفصٍ صدئٍ.

وفي أقصى القاعة رأى كلباً شبيهاً بحارسه العتيق: نفس العيون الداكنة التي تحمل رجاءً أخرساً، نفس الأذنين المفرودتين كجناحين صغيرين لا يعرفان الطيران. التفت الكلب نحوه ببطءٍ وخجلٍ خائفٍ، رمقه لحظةً ثم اختبأ رأسه في زاويةِ قفصه كأنه يقول: "مرّ أيها الغريب... واتركني."

وقف فيصل أمامه طويلاً. لم يمدّ يده إليه، لم ينادِه بصوتٍ حنونٍ لم يتعلّم أن ينطقه بعد. فقط وقف، يُحدّق فيه كما يُحدّق المرء في مرآةٍ عتيقةٍ يرى فيها ماضيه الذي هرب منه. شعر أن في صدره نافذةً صغيرةً تُفتح على

هواءٍ نظيفٍ، هواءٍ لم يمرّ قطُّ على البورصة ولا على أوراق الصفقات ولا على قاعات الاجتماعات الثقيلة.

أراد أن يقول للكلب المختبئ: "أنا لستُ غريباً." لكن فمه بَقي مُطبَقاً – فاللغة بينهما لم تكن تحتاج إلى صوتٍ هذه المرة، بل إلى وعدٍ يُنفّذ.

حين عاد إلى البيت تلك الليلة، خلع حذاءه عند الباب كأنه يخلع قشرةً سميكةً ظنّها جلداً أصليّاً لعمره. لم يُضيء الأضواء كلّها، اكتفى بنورٍ خافتٍ تسلّل من تحت باب المطبخ. سمع صوت أظافر حارسه القديم تنقر الأرض متّجهةً نحوه، فرأى ذيله يهتزّ بفرحٍ لم تفهمه كل سنوات وحدته.

انحنى فيصل على ركبتيه، مدّ يده فوق رأس الكلب العتيق، راح يُمرّر أصابعه في فروه الذي صار رمادياً من طول الانتظار. همس له بصوتٍ لم يهزّ الجدران، لكنه هزّ داخله كأنما يُعيد ترتيب نَفَسه:

- "سأردّ لك الدّين... وأردّه لكلّ من يشبهك."

في تلك الهمسة، انفرجت نافذةٌ أخرى في صدره. نافذةٌ تتسلّل منها رائحةُ ترابٍ جديدٍ، ترابٍ لا تُبنى فوقه أبراجٌ ولا تُعلّق عليه شهاداتُ استثمارٍ، بل تُبنى عليه زريبةٌ صغيرةٌ تُصدّ برد الشارع عن كلبٍ شريدٍ وتردُّ لحياته اسمه الذي خسرَه ذات شتاءٍ لم يسأل عنه أحد.

تسلّل الكلب العتيق بلسانه إلى راحة يد سيده، لحسها كأنه يختم الوعد بطريقته: لعابٌ دافئٌ على كفٍّ باردةٍ كانت قبل ليالٍ تمسك مقبض الموت.

لبرهةٍ، لم يعد فيصل يسمع سوى صوتٍ خفيٍّ ينبض في صدره - ذلك الصوت الذي لم يكن يأتي من الداخل وحده، بل من قلبٍ صغيرٍ ينبض عند قدميه ويذكّره:

"ها أنتَ تبدأ من جديد... بلا أوراقٍ ولا عقودٍ ولا ضماناتٍ سوى ذيلٍ يهتزُّ ليُعلن لك أن الوفاء حين يُردّ... يصبح حياةً ثانيةً."

ومنذ تلك الليلة، انقلب البيت الذي كان يشبه قصراً بارداً إلى حاضنةٍ لأصواتٍ لم يعرفها من قبل. أصواتٌ واهنةٌ أول الأمر، خجولةٌ كقطراتِ مطرٍ تتسرّب من شقّ نافذةٍ قديمةٍ. نباحٌ بعيدٌ يقطع الصمت من ركنٍ إلى ركن، خطواتٌ خفيفةٌ فوق البلاط تصنع صدىً لم يكن لصدى أقدام البشر أن يصنعه في يومٍ من الأيام.

كانت رائحة الكلاب تختلط برائحة الأثاث الفاخر الذي ظلّ مغلقاً على نفسه سنواتٍ طويلةٍ. مقاعد الجلد الناعم صار يعلوها وبرٌ لم تطرحه شركات التنظيف ولا استطاعت أن تُزيله أيادٍ مدجّنةٌ على تلميع الواجهة. صار البلاط يعرف وقع الأقدام الصغيرة، وصرير الأبواب يعرف معنى أن تُفتح لأرواحٍ لا تُحسن الكلام لكنها تُتقن ملء الفراغ بأنفاسها الدافئة.

لم يعد يسمع فيصل في صدره ذلك الحبل الذي كان يلتفّ على رقبته كل مساءٍ كأفعى بلا جلد. صار يسمع بدلاً عنه مواء الأمل، زمجرة حياةٍ صغيرةٍ تُطالب بحصةٍ من الدفء، كما طالب كلبه بحياته ذات ليلةٍ عند الباب. كانت أنفاس الكلاب الصغيرة تصعد كأدعيةٍ صامتةٍ نحو سقفٍ لم يشهد صلاةً من قبل، وتعود إليه كنسمةٍ تُحرّك ستائر النوافذ المغلقة.

فتح غرفةً أخرى، كانت مغلقةً خلف بابٍ ثقيلٍ لم يجرؤ أن يلمسه حتى وهو سيد البيت. مدّ يده إلى مقبضها كأنه يُدير مفتاح صدره لا مفتاح الغرفة. دفع الباب ببطءٍ فانفتح على هواءٍ خانقٍ من رطوبةٍ وعُزلةٍ قديمة. خطا خطوتين فارتدّت إليه رائحةُ الورق العتيق والخشب المشقوق. لمح ركناً مناسباً لوضع أسرّةٍ صغيرةٍ تليق بفراءٍ يرتعش من بردٍ صامت.

هكذا صار جزءٌ من قصره القديم مأوىً مُصغّراً داخل مأوىٍ أكبر. غرفةٌ للنائمين من وجع الشوارع، فسحةٌ لذيولٍ مقطوعةٍ من حبّ الشوارع، زقاقٌ جديدٌ داخل جدرانٍ كان يخشاها كزنزانةٍ ثم صارت حقلاً للنجاة. صار البلاط الرخاميّ الذي داسه يوماً بكعب حذائه الأنيق يلمع اليوم بأقدامٍ متسخةٍ لكنّها صادقةٌ في احتلالها للدفء.

في الليالي التي يطول فيها نباحٌ أو أنينٌ خافتٌ من ركنٍ بعيد، لم يعد فيصل يدفن رأسه تحت وسادته ليفرّ من صوته. كان ينهض، يجرّ خطاه فوق السجاد، يجلس قرب جسدٍ صغيرٍ يرتعش. يمدّ كفه فوق رأسٍ ناعسٍ يفتح عيناً واحدةً كأنه يطمئن أن صاحب اليد لم ينسَ وعده القديم: أن هذا البيت صار بيتاً لقلوبٍ لم تجد بيتاً من قبل.

يوماً بعد يوم، صار المأوى الذي بدأ من عتبةٍ واحدةٍ يتوسّع بصمتٍ لا يشبه ضجيج مقاولات البناء. لا يعلو فيه مطرقةٌ ولا يهرع إليه مهندسٌ بحقيبته الجلدية. الذي يعمّر الجدران هنا ذيلٌ يهتزّ وجفنٌ يُغمض ويُفتح على أملٍ لا يحتاج عقدَ ملكيةٍ ولا وثائقَ حصر إرثٍ.

ولم يكن فيصل يكتفي بأن يجلس متفرّجاً. صار جسده، الذي تآكل من روتين المكاتب، يستعيد عافيته ببطءٍ من الركض وراء صغارٍ يهربون من حوض الماء، من رفع كيس طعامٍ ثقيلٍ كان بالأمس يدفع مثله إلى حاويات أسواقٍ يملكها ولم يطعم منها فماً واحداً محتاجاً.

وحين يأتي الليل، ويهدأ النباح تحت لحاف السكون، كان يجلس وحيداً قرب سريره الذي صار سريراً مشتركاً – نصفه له ونصفه لظلٍّ ممدّدٍ عند قدميه. يمدّ يده فوق رأس كلبه الأول، يحسّس فروه الذي لم يزد حمرةً ولا سواداً لكنه صار ممرّاً لهواءٍ لا يتعفّن في رئة الوحدة.

همس له مرّة:

- "أتسمع؟ صاروا يشبهونك... وصرتَ تشبهني."

ثم ضحك بخفوتٍ لم يعرفه من قبل. ضحك كأنه يتدرّب على أن يكون إنساناً لا يفرّ من نباحٍ ولا من أنينٍ ولا من كائنٍ يسند رأسه على صدره حين يثقل عليه الليل.

هكذا صار البيت، الذي حلم يوماً أن يكون معزوفةً من رخامٍ وذهبٍ وحرّاسٍ يطردون الفائض من البشر، حاضنةً لأصواتٍ جديدة: مواءٌ صغيرٌ عند الباب، زمجرةُ حياةٍ تُقاسم فيصل فراشه، وخطواتٌ تتعلّم كلّ ليلةٍ كيف تسير مطمئنّةً في بيتٍ لم يعرف الطمأنينة من قبل.

القسم السادس

لم يكن فيصل يظن يوماً أن السعادة قد تختبئ في فناءٍ ترابيٍ رطبٍ تفوح منه روائح الكلاب المختلطة برائحة المطر.

صار الصباح عنده يبدأ بنداءٍ غير مألوف: أصوات نباحٍ متقطعٍ كدقّاتٍ صغيرةٍ على باب قلبٍ أعاد فتحه للحياة.

أقام مركزه على هامش المدينة – هامشٌ يشبهه.

مركزٌ بلا لافتةٍ ضخمةٍ ولا أعمدة رخامية، بابٌ خشبيٌ عريضٌ يُفتح دون أسئلةٍ لمن لا صوت لهم.

استقبل كلباً بعد كلبٍ، اسماً بعد اسمٍ، نبحةً بعد نبحة.

كل واحدٍ منهم يحمل في فرائه بقايا خوفٍ وشوارعَ غدرت به، لكنه سرعان ما يجد أمامه يداً نظيفةً تمسح الجرح وتطعم الجوع.

وفي كل مرةٍ كان فيصل يربت على رأس كلبٍ جديد، كان يشعر أن شيئاً من ظلاله القديمة يسقط من جسده.

صار الناس يمرّون قرب المركز فيسألون:

- "من صاحب هذه الضوضاء؟"

فيجيبهم بعضهم:

- "هذا صوتٌ ينقذ أرواحاً تُنسى في الزوايا."

كان فيصل يجلس في زاويةٍ ضيقةٍ في المساء، يحمل دفتراً صغيراً يدوّن فيه أسماء كل كلبٍ أدخله مركزه.

لم يكن في دفتره أرباحٌ ولا خسائر، فقط قائمةٌ طويلةٌ من حياةٍ جديدةٍ تولد على أربع قوائم.

وأحياناً حين يغفو في مكتبه الخشبي، يمدّ يده في نومه كأنه يربّت على ظهر كلبٍ لم يصل بعد.

أما كلبه الذي أنقذه، فقد صار عجوزاً بطيئاً.

يتجوّل بين الكلاب كحارسٍ صامتٍ، كأنه يقول لهم جميعاً: "لقد أنقذتُه، وهو الآن يُنقذكم."

وفي الليالي التي يثقل فيها الصمت، يقترب الكلب العجوز من قدمي فيصل، يضع رأسه عليهما كوسادةٍ صغيرةٍ دافئة.

فيحني فيصل ظهره فوقه، ويهمس:

↢ "لو أنّ كل ما خسرته عاد إليّ، ما كنتُ سأربحك ولا أربح هذا النباح الذي صار صلاتي الأخيرة."

صار فيصل يعرف يقيناً أن أمواله القديمة لم تشترِ له إلا أبواباً مغلقةً على وحدته، بينما فتح له كلبٌ واحدٌ باباً واسعاً يطلّ على قطيعٍ من أرواحٍ صغيرةٍ تُعيد صياغة قلبه كل صباح.

ولما جاء الشتاء الأخير، جلس فيصل عند عتبة المركز، يرقب الكلاب وهي تلهو تحت مطرٍ خفيفٍ يشبه الدعاء.

شعر بالبرد يلمس كتفيه، فتذكّر معطفه القديم - ذاك الذي حاول أن يخرج به للموت يوماً.

ابتسم.

مدّ يده وربت على رأس كلبه العجوز الذي التصق بساقه كأنه يذكّره: "هنا بيتك... هنا بابك المفتوح."

وحين أغمض عينيه، لم يعد يرى أرقاماً ولا شاشاتٍ ولا مؤشراتٍ حمراء.

صار يرى قلوباً صغيرةً تنبح فرحاً في حضنه - تذكّره أنه لا يُقاس الغنى بما يُكدّس في المصارف، بل بما يُترك حيّاً في صدرٍ نجا من نفسه.

في آخر الليل، حين ينام الكلاب في زواياهم الدافئة، ولا يبقى يقظاً إلا خرير المطر المتسرب من سقفٍ صدئٍ هنا أو هناك، يفتح الراوي دفتره، يمدّ إصبعه على اسم "فيصل" كمن يتحسّس أثره في الورق.

ما الذي يبقى من إنسانٍ حين يخلع عنه الذهب والرخام والستائر الثقيلة؟

يبقى قلبٌ يبحث عن قلبٍ آخر، ولو كان نابضاً في جسدٍ من وبرٍ وصمتٍ بريء.

فيصل، الذي بنى قصوره من أرقامٍ هشّة، علّمه كلبٌ وحيدٌ أن القصور الحقيقية تُشيَّدُ في الداخل، حين يتّسع صدرُ المنكسر لحياةٍ أخرى تحتاجه أكثر من حاجته إلى نهايته.

ما الذي يردع الموت أحياناً؟

كلمةٌ طيبة، يدٌ خفيفةٌ على الرأس، أو حارسٌ صامتٌ يقف أمام الباب ليقول لك: "ابقَ."

في ظلال هذا المركز الذي بناه من بقايا روحه، صار فيصل يردّ كل ليلةٍ دَيناً قديماً: يردّه للكلب الذي ردّ عنه موته، يردّه لكل شاردةٍ لا اسم لها ولا عنوان.

وحين يغلق الراوي دفتَره، يبتسم في عتمة الورق:

ربما لا نملك نحن البشر شيئاً نمنحه للسماء إلا هذه الحكاية – أن يُنقَذَ إنسانٌ من قسوته بقلبِ كلبٍ، وأن يعود ليُنقذ قلب كلبٍ آخر من قسوة الناس.

تمت

حيــن أبكـانـي
الذي لم ينطق

رواية تستبطن أعماق الإنسان في لحظات انكساره القصوى، وتعيد رسم ملامح الأمل حين يولد من حيث لا يُنتظر. تحكي هذه الرواية سيرة "فيصل"، رجل أعمال عاش حياة الترف والثراء، تحيطه الفخامة والخدم، إلى أن جاءت خسارته المفاجئة في الأسهم والبورصة لتقلب موازين عالمه، فيسقط في هاوية اليأس ويقرر وضع حدٍّ لحياته. في ذروة قراره المأساوي، يقف كلبه الوفي "صديقي" عند الباب، يمنعه من الخروج، في لحظة صامتة، لكنها ناطقة بما تعجز عنه الكلمات.

تلك الوقفة كانت كفيلة بأن تفتح أمام فيصل بابًا جديدًا للحياة، لا من بوابة المال، بل من بوابة الرحمة. ينقلب المسار، ويتحول الرجل الذي أوشك على الانتهاء إلى منقذ للمهمّشين من الكائنات الصامتة، فيفتتح مركزًا للعناية بالكلاب الضالة، ويكرّس ما تبقى من عمره لخدمة هذا المخلوق الذي لم ينطق، لكنه أبكاه، وأنقذه.

الرواية تأمل عميق في العلاقة بين الإنسان والحيوان، في قدرة الوفاء الصامت على تغيير المصير، وفي المعنى الذي قد نجده حين نفقد كل شيء. بأسلوب إنساني دافئ، تروي الرواية كيف يمكن لصوت لم يُنطق أن يهزم ضجيج الانهيار.

محتوى للنشر
جمهورية مصر العربية - المنصورة
info@muhtaw.com

الحكمة للنشر والتوزيع
Al Hekmah
Publications & Distrbution
الإمارات العربية المتحدة
info@dahfzc.com

زمزم
ناشرون موزعون
الأردن - عمان
zamzam@gmail.com

amazon
GET IT ON Google Play
Download on the App Store

9 786339 969324